أسامة بن لادن

بلا قناع

لقاءات حظرت نشرها طالبان

بقلم : أحمد موفق زيدان

مقدمة :

لم تثر شخصية عالمية في أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الحالي جدلاً وإثارة بمثل ما أثارته شخصية أسامة بن لادن ؛ فإن كان كارلوس قد ملأ الدنيا وشغل الناس في عصره وعُد حينها بأنه " إرهابي من نوع فريد " ، إلاَ أن لأسامة بن لادن نكهة أخرى ، إذ أنه يعيش ويقوم بنشاطاته التي تعد إرهابية في نظر خصومه ، ومقاومية في نظر المعجبين به ، في زمن عالم القطب الواحد . لقد كان تحت تصرف كارلوس عشرات الدول والأنظمة التي تسهل له حركته ، وسيظل أسامة بن لادن لغزاً للكثيرين ، يحوطه الغموض لا بسبب شخصيته إذ أن كل من قابله يجزم ببساطته و دفئه لمحدثه ، ولكن لطبيعة تحركاته والأساليب التمويهية التي استطاع من خلالها التعمية على وجوده رغم التنسيق الهائل بين أنظمة مخابرات دولية لديها إمكانيات مالية وبشرية هائلة وضخمة .

هيئة وملامح وتصرفات أسامة بن لادن ترفض أن تخبر أنه إرهابي ، ويبدو من الصعب على الدعاية الأميركية أن تنجح

في إبرازه وتصويره على أنه إرهابي ، فكل ما فيه يرفض ذلك ، وهي مهمة عسيرة للدعاية الأميركية ؛ فأسامة شخصية خجولة وحيي إلى أبعد الحدود ، ولكن حين يتحدث إليك تشعر بالثقة الكاملة في كل كلمة يقولها ، وواثق من الخط الذي خطه لنفسه .

وهنا تكمن مخاطر السياسة الأميركية التي اعتمدت طوال تاريخها في التعامل مع خصومها على استنساخ التجربة السينمائية الهوليودية وهي تجريد الخصوم من انسانيتهم وهو ما حصل مع كل خصوم أميركا منذ الحرب مع الاتحاد السوفياتي السابق الذي أطلق عليه " إمبراطورية الشر " وهو ما كرره جورج بوش الابن في وصفه لدول محور الشر ، وكذلك وصف الخصوم بالديكتاتور والأشرار ، فالأنسنة في الإعلام الأميركي حكر على الأميركي وحليفه والشر هو من خاصية خصومه .

ولعل ما زاد من الغموض في شخصيته هو الحجب والجدران العالمية المضروبة عليه ، و التي تحول دون لقائه أو توضيح وجهة نظره ، وتجلى ذلك في القيود التي فرضتها الحكومة الأميركية على محطات تلفزتها في عدم نشر أحاديثه و كلماته التي قد تحمل كوداً وأوامر معينه ـ حسب

قولها ـ لأتباعه من أجل تنفيذ عملياتهم ، وهو ما علق عليه ابن لادن لاحقاً في شريط فيديو بثته قناة الجزيرة بأن الأميركيين يتصرفون وكأننا لا نعيش عصر الإنترنت والاتصالات وغيرها .

أسامة بن لادن شخص ثري وضع كل ثروته من أجل تحقيق هدفه ويصفه من يعرفه بأنه صاحب رؤية واستراتيجية ويعرف كيف يحول هذه الرؤية إلى واقع على الأرض ، بالإضافة إلى قدرة خارقة على التأقلم مع المعطيات الجديدة التي تفاجأ أكثر الأحزاب بله الدول في كثير من الأحيان ، ومع فشل الإدارة الأميركية وحلفائها في القبض على ابن لادن الذي أطل على الجميع في الثاني عشر من نوفمبر " تشرين ثاني " من العام 2002 وذلك على شاشة الجزيرة وصفحات الحياة اللندنية من خلال هذا الكاتب ، فإن ابن لادن أحرج الإدارة الأميركية وحلفائها داخلياً وخارجياً ليقول لهم بصوت واضح أنني ما زلت حي ، وأن توجهكم إلى العراق في هذا الوقت بالذات ما هو إلا هروب من الواقع والهدف الذي جئتم من أجله ، وقصة التسجيل الصوتي الذي وصلني له قصة أخرى سأتحدث عنها في مكان آخر من الكتاب .

ووفقاً للمعلومات المرشحة من خلال بعض الاستقصاءات التي قمت بها وتحديداً مع بعض المصادر العربية التي عايشت مرحلة الجهاد الأفغاني الذي كان أسامة يعمل فيه جهاراً نهاراً ، فإنه ربما يكون من أوائل الأفغان العرب الذين سمعوا بأنباء الغزو السوفييتي لأفغانستان في العام 1979 لينهضوا عملياً بمساعدة المجاهدين الأفغان حينها ، و ينقل عنه أنه سمع بخبر الغزو من المذياع وقرر على الفور حزم حقائبه و ذلك بعد أسبوعين فقط من الاجتياح للتوجه إلى باكستان بغية الوقوف على حقيقة الوضع وإمكانيات المشاركة ، وبينما اقتصرت مشاركته في البداية من خلال تقديم التبرعات والزيارات المتقطعة لأسبوع أو أسبوعين قرر في العام 1984 الاستقرار في باكستان وقضاء الأيام الطويلة داخل أفغانستان مع المجاهدين ، و طوال هذه الفترة لم يتغير أسامة ـ على ما يبدو ـ منذ مجيئه و حتى الآن ؛ فوزنه لا يتعدى السبعين كيلو غراماً بطول قد يتجاوز 190 سنتيمتراً .

والذي يظهر أن اهتمامه هذا بأفغانستان كان أول اهتمام له بالسياسة بشكل عام ، إذ أنه لم يؤثر عنه قبل هذه الحادثة أنها اهتم بالسياسة والقضايا الدولية ، ولكن ربما

أثرت حوادث أخرى جرت في نفس الفترة التاريخية ولعبت أفغانستان دول القطرة التي طافت على الكأس ففي تلك الآونة وقعت الثورة الإيرانية وكذلك توقيع اتفاقية السلام بين مصر والكيان الصهيوني وكذلك بدء أحداث الصدام بين الإسلاميين والنظام السوري والذي تردد كثيراً عن دعم مالي قدمه أسامة بن لادن إلى الإسلاميين في سوريا ضد النظام ، ولعل خلفية والدته السورية الأصل والتي كانت الزوجة الرابعة والأخيرة لوالده لعبت دوراً في عقله الباطن .

ما ينبغي أن تدركه وتعيه السلطات الأميركية أن ما حصل في أحداث الحادي عشر من أيلول وقبلها وغيرها كان رداً على ما تقوم به السياسة الأميركية في العالمين العربي والإسلامي وإن كان المقام ليس مقام تفصيلها ، وبكل تأكيد يدركها صناع القرار الأميركي جيداً ، وإن كانوا يسعون إلى تجاهلها وإغماض العين عنها ، وأنقل هنا ما قاله بالضبط الفيلسوف الفرنسي جان بود ريار عن أحداث الحادي عشر من أيلول في صحيفة الحياة اللندنية وفي عددها الصادر بتاريخ العاشر من أيلول عام 2002 يقول :" ... وما حصل في 11 أيلول لم يكن عمل إبادة ،

إنما عملية قتل انتقامية ورمزية هدفها النيل من القوة العظمى ، ومن عملية الدمج التوتاليتارية التي يجري فرضها ."

فما تريده القوة الأعظم الأميركية باختصار هو فرض ثقافة تكنولوجية القوة العظمى والتهام الثقافات الأخرى وإلحاقها بها ، وقيام الرئيس الأميركي جورج بوش بدور مارتن لوثر لإصلاح الدين الإسلامي بما يتماشى ويتسق مع الأهداف والمقاصد الأميركية .

يقولون إن الصحافي هو أول مؤرخ للتاريخ ، من خلال الأحداث والوقائع التي يتابعها بشكل يومي ، ويقوم بتدوينها ونشرها على الملأ ، وعلى هذا آمل أن أكون من خلال هذه اللقاءات التي أجريتها مع المطلوب أميركياً رقم واحد قد ساهمت في تسجيل التاريخ ونشره بأمانة بعيداً عن التشهير أو التهوين والتهويل ، وإنما أكون قد قمت بنقل الحقيقة كما هي ، فكما قال أحدهم علمتني الحقيقة أن أكرهها فما استطعت ، وكما قيل الرائد لا يكذب أهله ، فأرجو أن أكتب كل ما رأيت بأمانة دون محاباة أو خوف أو وجل ، فالحقيقة مرّة للكثيرين ، وهي الضحية الأولى للحروب ، فكيف إن كنا نحن في أم الحروب وأبيها وهي

الحرب التي وصفت بالحرب على الإرهاب ، والـتي تجمعـت عليها كل القوى الغربية .

الفصل الأول

ملاحظات ، بن لادن والقاعدة وطالبان

قبل الـدخول فـي صـلب الكتـاب أسـجل بعـض الملاحظـات المهمة التي ستساعد و بكل تأكيد في فهم شخصية أسـامة بن لادن التي أفرزتهـا ظـاهرته الـتي ــ باعتقـادي ــ يمكـن وصفها بالظاهرة ، فبعد اللقاءين المطولين الذين أجريتهما معه ، وكذلك بعد أحداث الحادي عشر من أيلـول والهجمـات الـتي حصـلت علـى أفغانسـتان وسـقوط حركـة طالبـان ، أستطيع أن أضع هذه الملاحظات التي قد تساهم في فهــم وفـك ألغـاز هـذه الظـاهرة الـتي اسـتوقفت العـالم كلـه ، وجعلتــه حــبيس أنفاســه بانتظــار مــا ستســفر عنــه تلــك المواجهة بين مـا يمكـن وصـفه بصـراع " الـدب والنملـة " ، والتي رفعت واشنطن شعاراً أشبه ما يكون " لا صوت يعلـو على صوت ما يوصف بالإرهاب " و " معنا أو مع الإرهــابيين " كمــا قــال الرئيــس الأميركــي جــورج بــوش ، وإلــى أيــن ستسـفر هـذه المواجهـة ، وهـو باعتقـادي أمـر مهـم قبـل الولوج إلـى الحـوارين الـذين تـوقفت عـن نشـرهما بسـبب الحظر الطالبـاني الـذي كـان مفروضـاً علـى أي تصـريحات لابن لادن ، ومثل هذه الملاحظات التي غدت بمثابة حقــائق أو مســلمات أعتقــد أنهــا مفتاحيــة فــي فهــم وســبر غــور شخصية مثل هذا الرجل الذي قسّم العالم إلى فسـطاطين

واضحين ، أو كما وصف أحداثها الكاتب المصري محمد حسنين هيكل بأنها " عواصف النار على نيويورك وواشنطن " رغم الكثير من الأخطاء التي وقع فيها بمقاله الذي نشره في وجهات نظر في السفير اللبنانية بتاريخ : 2ـ 2-ـ 2002 تحت عنوان : " واشنطن تؤذن للجهاد في كابول " وقمت بتصحيح الكثير من الأخطاء التي وقع فيها هيكل في مقال نشرته في صحيفة " الحياة " اللندنية التي أعمل مراسلاً لها في باكستان وأفغانستان منذ العام 1991 وذلك بتاريخ 15- 2- 2002 ، وأما الحقائق أو الملاحظات أو المسلمات التي أعتقد بأهميتها في فهم شخصية أسامة بن لادن والظاهرة التي أفرزها :

1 - الملاحظة الأولى : أسامة بن لادن تحدى الولايات المتحدة الأميركية في زمن صعب ونكد إذ تهيمن فيه على العالم قوة واحدة ،هي أميركا ،بل وتفرض على الآخرين رؤيتها ونظرتها إلى الأحداث ؛ ولكن أسامة قبل التحدي ومضى فيه ، وواصل تهديداته للولايات المتحدة الأميركية ، ونفذ هذه التهديدات على أرض الواقع بخلاف كثير من القادة والزعماء الذين هددوا وتوعدوا دون تنفيذ ، ومع أنه شخص خليجي لم يكن يتوقع الكثيرون أن تصدر عنه تلك

المعارضة القوية لأميركا وهو الذي شكك فيه البعض خلال فترة الجهاد الأفغاني لا لشيء إلاّ لأنه سعودي ، ويعمل لصالح الحكومة السعودية كما يقولون ، وعزز ذلك لدى البعض من هؤلاء المشككين الصورة النمطية المأخوذة عن الخليجيين بشكل عام و السعوديين بشكل خاص بأنهم ليسوا أبناء قضية عملية ، وإنما وظيفتهم تتمثل في تقديم الدعم المالي للحركات الإسلامية دون التدخل في شأنها الداخلي ، وإلا فسيؤخذ حينها أي رأي أو تدخل لهم على أنه أوامر من الحكومة السعودية لتجيير العمل لصالحها ، ولعل هذا ما دفع الولايات المتحدة الأميركية إلى قصر اتهاماتها في البداية لابن لادن على تمويل حركات إسلامية مسلحة في كل من مصر والصومال وأفغانستان والسودان ، لكن هذه الاتهامات الأميركية تطورت لتعتبره متورط في تفجيرات الخبر والعليا و السفارتين الأميركيتين و ضربات نيويورك وواشنطن .

2 - الملاحظة الثانية : أسامة بن لادن بنظري اقترب من خطف حركة طالبان الأفغانية ، وليس خطفاً بالمعني السلبي أي لمصلحة شخصية ، وإنما تمكن من فرض أجندته السياسية على حركة تقليدية مولوية تفتقد إلى تلك

الأجندة السياسية ، إذ للمرة الأولى منذ سقوط الخلافة العثمانية في العام 1924 تقترب القوى الإسلامية التقليدية الممثلة بطالبان المتمذهبين بالمذهب الحنفي مع القوى الحركية الانتحارية أو الاستشهادية التي يمثلها أنصار ابن لادن من خريجي المعاهد العلمية و الجامعات العصرية وغير المتمذهبين بمذهب ويدعون إلى الاجتهاد في الشريعة ، بينما يعود التعليم الطالباني إلى المدارس الديوبندية التقليدية ، والتي تعتمد نفس العلوم التي كانت تدرسها المدرسة النظامية في بغداد أيام العباسيين ، وهي فجوة ليس من السهل تجسيرها ، فضلاً أن يتم التعاون بين هاتين المدرستين ، ولعل هذا ما دفع الولايات المتحدة الأميركية إلى التعاون مع طالبان في البداية بقناعة أن طالبان ضد العصرنة وليست ضد الغرب كما قال حينها الناطق باسم الخارجية الأميركية جلين ديفيس ، وربما كان ذلك صحيحاً إلى حد كبير في البداية ، لكن تزاوج العناد الطالباني مع النظرة التقليدية ضد اليهود والنصارى ، إلى جانب العصرنة الإسلامية والفهم للعالم والأحداث التي تدور فيه من قبل ابن لادن أفرز توليفة ، سبقت التوليفة التي كانت تنتظرها أميركا وغيرها من الدول في أن تعمل

طالبان على التأقلم مع العصر وتتطور ، وذلك على غرار ما حصل مع نشوء الدولة السعودية ولكن الفارق كان بعيداً بين التجربتين ، إذ أن على رأس السعودية كان هناك ملك يرغب في التطوير والعصرنة ، بينما الوضع الأفغاني بخلاف ذلك إذ أن " أمير المؤمنين "يرى أن أي تحديث ربما قضاء على مملكته .

وعلى هذه الخلفية فمن المهم الانتظار لرؤية فيما إذا كانت مثل هذه المعادلة الجديدة ستتطور وتتوسع لتشمل مناطق أخرى من العالم الإسلامي أم أنها ستقتصر على الرقعة الأفغانية والباكستانية نظراً لخصوصية المكان و الزمان والأشخاص ، فالتأسيس لمثل هذه العلاقة التعاونية عوضاً عن الاتهامات التي كانت هذه المدارس تكيلها لبعضها البعض سيؤسس لعمل جديد وفريد من نوعه بين الجماعات الإسلامية المتباينة المدارس والرؤى ، وقد يشكل تهديداً جدياً على المصالح الغربية .

وينبغي التأكيد هنا على أن وصول طالبان إلى السلطة أظهر قدرة القوى التقليدية والمحافظة على الخروج من قوقعتها وشرنقتها التي بقيت فيها طوال السنوات الماضية وذلك منذ سقوط الخلافة العثمانية ،بل وأثبتت

القدرة على التعامل مع الجـانب السياسـي للإسـلام ، وهـو الجانب الذي كان مغيباً عن تلك المدرسة كما هـو معـروف . ومقتصـراً علـى القـوى الحركيـة الإسـلامية وعلـى رأسـها الإخـوان المسـلمون وشـقيقاتها مـن الجماعـة الإسـلامية الباكستانية وغيرها ، وكسرت طالبان القاعـدة الـتي كـانت مأخوذة عن المولويين و التقليديين بـأنهم موالـون للحكـام وليس لديهم استقلالية في اتخاذ القـرار السياسـي ، وهـو ما غذته تصرفات البعض منهم في العـالم الإسـلامي وتبـوء الفكـر الإخـواني أو المقـرب منـه طـوال العقـود الماضـية الساحة السياسية والتغييرية في العالم الإسلامي .

مثل هذا الواقع فتح أعين الكثيرين من المثقفين و الخبراء والأجهـزة الأمنيـة الدوليـة علـى الحاضـنة الـتي احتضـنت طالبان وهي المدارس الدينية المقدر عددها فـي باكسـتان بأكثر من عشرة آلاف مدرسة ، والتي يتحـدث تقريـر أممـي صـادر عـن العـام 2001 بـأن طالبـان تمكنـت بالتعـاون مـع المدارس الدينية المنتشـرة فـي باكسـتان مـن تجنيـد مـا لا يقل عن عشرين ألف طـالب تحـت سـن الثامنـة عشـر مـن أجل القتال في أفغانستان ضد خصومها .

ولعل ما يزيد هلع الغرب هو أن التغيير الصلاحي الـذي جـاء على يد صلاح الدين الأيوبي إنما بـدأ مـن المـدارس الدينيـة حين جند أبناء هذه المدارس فـي حربـه لاسـتعادة المسـجد الأقصى من الصليبيين .

3 - الملاحظـة الثالثـة : أثبتـت القاعـدة علـى أنهـا جبهـة متماسكة بعيدة عن فيروس الانقسامات والتشـظيات الـتي عادة ما تميز الساحة الحزبيـة الإسـلامية ، ولـذا فرغـم كـل المصاعب التي عانتها وواجهتها والحصار الدولي المضروب عليها إلاَ أنها أثبتت عصـيانها علـى هـذا التشـظي والتفتـت والانقسام ، بينما اعتدنا على رؤيـة الانقسـام فـي صـفوف الحركات الإسلامية وتحديداً المسلحة منها في أية مواجهـة لها مع أعدائها أو خصومها ، وهو ما ظهر وبان في الجزائـر وغيرها ، بينما تمكنت القاعدة رغم وجود جنسيات ربما من كل أرجاء الأرض في صـفوفها و اختلاف اللغـات والأجنـاس وربمـا الخلفيـات بيـن أتباعهـا إلا أنهـا اسـتوعبت هـذه التناقضات كلها وصهرتهم فـي بوتقـة واحـدة وهـي العمـل الكفاحي ضد أميركا . وبالتالي اسـتطاعت توظيـف طاقـات الكثيرين من الأتباع في أوزبكستان وطاجيكستان ، وجنـوب شرق آسيا في أندونيسيا والفيلبين وماليزيا ، وحـتى أوربـا

والعالم العربي من أجل الهدف المعلن والواضح ، وهو ما وضعته كهدف لها تمثل بـ " إخراج القوات الأميركية من جزيرة العرب " .

4 - الملاحظة الرابعة : قوة التنظيم ومتانته ؛ فرغم كل الضربات التي تعرض لها إلاّ أنه ما يزال قادراً على توجيه الضربات بل ولم يقتل أو يؤسر أحد كوادره الكبيرة ،باستثناء ما حصل لأبي زبيدة في فيصل آباد في 28مارس أذار من العام 2002 ، ورمزي بين الشيبة في كراتشي يوم التاسع من سبتمبر " أيلول " من العام 2002 ، ولعل مرد القوة والمتانة إلى الوضوح و البساطة في الهدف ؛ ففلسفته كلها مستندة إلى حديث نبوي صحيح وهو : " أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، أو أخرجوا المشركين من جزيرة العرب " ، فهذا الحديث هو مدار فلسفة ابن لادن ، ولذا عمد إلى التركيز على نظرية العدو المشترك والواضح بدلاً من اللجوء إلى العدو الأقرب كما وصفه في حديثه معي المتمثل بنظرة البعض من حلفائه بالأنظمة العربية ، لكن نظرية ابن لادن هي التي رسا لاحقاً الجميع عليها كونه هدف مشترك وعام سيشترك مع ابن لادن الإسلامي والوطني وربما حتى بعض الأنظمة

العربيـة المعارضـة أو المتضـررة مـن الهيمنـة الأميركيـة ، وربما يصـل الأمـر إلـى أنظمـة غيـر عربيـة وغيـر إسـلامية متضررة ومهددة بشكل خطير وجدي في مصالحها القوميـة ومجالات نفوذها .

ولعـل الشـهادات الـتي أدلـى بهـا القـادة العسـكريون الأميركيون وغير الأميركيين خلال معارك " عرمـا " وغيرهـا دليل على متانة التنظيم وقدرته علـى التحـرك فـي أصـعب ظـروف رغـم التجييـش العـالمي ضـده واسـتغلال كـل الإمكانيـات المتـوفرة لـدى الـدول الغربيـة والمواليـة لهـا والخائفة منها من معدات ومال ومعلومات أمنية ونحوها .

ويظهـر أن قـوة القاعـدة أتـت مـن العنـوان العريـض الـذي وضعته لمواجهتها بقتال اليهود والنصارى منذ الإعلان عنـه في 23 مايو " أيار " من العام 1998فـي خوسـت الأفغانيـة شرقي أفغانسـتان ، وهـو مـا سـهل علـى القاعـدة أمريـن استراتيجي وتكتيكي مهمين الأول وهو الاستراتيجي بجمـع مجموعات مسلحة غاضبة من النفوذين الأميركي واليهـودي تحت لواءها وهو ما أخرجها من شرنقة الخلاف والقتال مـع الأنظمـة الـتي قـد يتفـق ويختلـف الكـثيرون فـي قتالهـا وتوقيته أو التعامل معها سياسـياً وعـبر صـناديق الاقـتراع ،

أما الهدف التكتيكي الوظيفي ويتمثل في أن كـل مجموعـة مؤدية للقاعدة كانت في الغرب أو الشـرق بإمكانهـا القيـام بأعمـال عسـكرية ضـد العـدوين اللـذين وضـعتهما لنفسـها ومؤيديها دون العودة إلى القيادة ما سيصعب حركة ملاحقة ومتابعة كيفيـة تحـرك القاعـدة وهـو الأمـر الـذي مـا يـزال يذهل الأجهزة الأمنية الغربية والعربية .

5 - الملاحظة الخامسة : تمكن أسامة بـن لادن حـتى كتابـة هذا الكتاب من التواري عن الأنظار والاختفاء بـدون حمايـة أي نظـام سياسـي ، أو دولـة تـؤويه كمـا درج علـى ذلـك معظم أو كل المطلـوبين الكبـار فـي العـالم ، وهـي قضـية بنظري في غاية الحساسية والأهمية في فهم كيفية تحـرك المطلوبين الكبار في العالم بدون غطاء حكومي ، كما كان عليه الأمر حيـن تواجـد فـي السـودان أو فـي أفغانسـتان " طالبان " ، حيـث نظامـان سياسـيان يسـيطران علـى أراض شاسعة ، ويتحرك بحرية أو بشيء من الحرية فـي الاتصـال مـع الإعلام ، وكـذلك فـي التواصـل مـع أتبـاعه وناشـطيه ، فالمعروف أن الحركات المسلحة في كل العالم وعلى مدى التاريخ – حسب فهمي ومعرفـتي – علـى الأقـل لـم يتمكـن أحد منهـا فـي النجـاح بـدون غطـاء حكومـة أو دولـة ، ولـذا

وجدنا كارلوس حين انكشف الغطاء الحكومي الذي يوفر لـه ذلك تم القبض عليه وأودع في السجن ، ونفس الأمر حصل مع زعيم حزب العمال الكردستاني عبد اللـه أوجلان بعـد أن رفعت سوريا الحماية عنه ، وهذا الأمـر ينطبـق حـتى على حركات الإسلام السياسي ، فنجاح حزب الله في لبنان إنمـا يعزا بدرجة كبيرة للدولة الـتي سـاندته ووقفـت إلـى جـانبه ومن ورائها إيران وسوريا وأوضاعاً إقليمية ودولية مواتيـة بدرجة كبيرة .

وعلى هذه الخلفية فمن المهم جداً مراقبـة فيمـا إذا كـانت حركة مسلحة وشخص مطلـوب رقـم واحـد للقـوة الأعظـم الأميركية بهـذا الـوزن سـينجح فـي مواصـلة الهـروب ، بـل وحتى تنفيـذ أعمـال ضـد عـدوه رغـم كـل الحصـار الـدولي الخـانق المضـروب عليـه ، وفـي ظـل عولمـة أمنيـة غيـر مسبوقة .

ولعل المستغرب أن يهرب ويفر قـادة أفغـان ومـن أصـول أفغانيـة إلـى خـارج بلادهـم لعـدم عثـورهم علـى المـأوى والملاذ ويتمكن ابن لادن ورفاقه مـع عـائلاتهم مـن العثـور على مكان داخل أفغانستان كما هـو ظـاهر حـتى الآن ، بـل ويتمكنـون مـن الاختفـاء والتـواري عـن الأنظـار رغـم كـل

المتابعات المنظـورة وغيـر المنظـورة . ومثـل هـذا الواقـع ربما سيشكك الكثيرين في صدقية المثل العربي الـدارج : " أهل مكة أدرى بشعابها ."

6 - الملاحظة السادسة : أعاد أسامة بن لادن لأفغانسـتان أهميتها ومكانتها بعد أن سعت الولايات المتحـدة الأميركيـة إلى تناسيها وإيكال أمرها إلـى الـدول الإقليميـة المجـاورة لأفغانسـتان ، ولعلـه أعـاد إلـى دول الأطـراف والمهملـة أهميتها في السياسة الدولية بعد أن كان العالم مقسم في الفلسـفة الغربيـة إلـى دول محـور ودول أطـراف ، وبـذلك أدخل ابن لادن مصطلحاً جديـداً فـي الاسـتراتيجية الدوليـة بعد الجغراسياسـية والجغرااقتصـادية وهـو مصـطلح مـا قـد يطلق عليه " الجغراإرهابية " ، فالمكان الممثل بأفغانستان و الفعـل الـذي يطلـق عليـه صـفة الإرهـاب اجتمعـا فـي أفغانستان وهو ما دفع الولايات المتحدة الأميركية إلى عدم تناسي أي دولة بعد أحداث الحـادي عشـر مـن أيلـول ربمـا يستغلها أسامة وغير أسامة في تنفيذ أعمال ضدها ، ولهـذا فقد كتب أحد الكتاب الأميركيين عن أفغانستان بأنها تمثـل " حدود الفوضى" على حسـب قـوله ، ولـم يعـد فـي العلـم السياسي المعاصر بعـد أحـداث أيلـول أن هنـاك دولاً مهمـة

استراتيجياً ومحورية كما قسمها بول كيندي ودول أطراف ، فقد غدت دول الأطراف المنسية أهم من الدول الفاعلة دولياً على الساحة السياسية مادامت مفاعيل التحرك الدولي هذه الأيام هو ما أطلق عليه " الإرهاب ".

7 - الملاحظة السابعة :قدرة أسامة بن لادن على حشد طاقات المسلمين ، وليس المتحدرون من الدول العربية فقط ، وإنما المتحدرون من دول غير عربية وحتى من دول غربية ، إذ لأول مرة يستعد أشخاص أسلموا حديثاً ومن الغرب للقيام بعمليات انتحارية في بلاد احتضنتهم ، وهو ما يشير إلى عمق القناعة العقدية و الفكرية التي تمكنت القاعدة من تشريبها في هؤلاء الشباب ، وذلك على غرار ما حصل مع ريتشارد ريد الذي كان يعتزم تنفيذ عمليات انتحارية من خلال حذائه المفخخ وذلك في الطائرة المتوجهة من باريس ، وهناك أيضاً جون ووكر الأميركي الذي ألقي القبض عليه في قلعة جنكي بمزار الشريف شمالي أفغانستان ، فضلاً عن أسرى بريطانيين واستراليين وغيرهم ، ولعل مرد نجاح أسامة في ذلك هو بتحديد العدو المشترك والممثل بالولايات المتحدة الأميركية المتهمة بالوقوف خلف مصائب المسلمين كما

قال في أشرطته بدءً من فلسطين عبر دعمها الكيان الصهيوني وكشمير وتيمور الشرقية وقضايا عدة أخرى ، ولذا حقق أسامة بن لادن أهدافه في إقناع الكثيريين بنظريته الداعية إلى قتال العدو المشترك وليس العدو الأقرب كما كان يطرحه زعيم تنظيم الجهاد الدكتور أيمن الظواهري ، وهو ما سنرى ذلك في الكتاب ، ونجاح ابن لادن هذا في نظريته وفر له دعماً في معظم بقاع الأرض ، ونظراً لانتشار المصالح الغربية وتحديداً الأميركية منها في كل مدينة مهمة إن لم نقل في كل شارع ، فقد أدى ذلك إلى تسهيل مهمة ضرب المصالح الأميركية .

8- الملاحظة الثامنة : تمكن ابن لادن من تجنيد شباب سعودي وخليجي لأول مرة في تاريخ هذه البلدان المعاصر ، وهو ما وفر عليه مسألة التأشيرات وسهولة التحركات لهذه العناصر التي تتحدر من دول ينظر إليها في الغرب على أنها حليفة له ، وبالتالي لا تحتاج إلى تأشيرات ، ولا حاجة لمراقبتها ما دامت دولهم حليفة لأميركا ولم يسجل عليهم الاشتراك في أية حوادث ضد الولايات المتحدة الأميركية سابقاً ، ولذا فقد كانت الكارثة على أميركا في أحداث نيويورك وواشنطن حين اكتشفت

أن غالبية المنفذين كانوا من المملكة العربية السعودية ، وضاعف من خطورة الأمر أن كل قادة القاعدة الكبار من دول تعد حليفة قوية للولايات المتحدة الأميركية ؛ فابن لادن من السعودية ، وأبو حفص الذي قتل وكذلك الظواهري من مصر ، والناطق الرسمي باسم القاعدة سليمان أبو غيث من الكويت الذي حررته أميركا من الغزو العراقي في العام 1991 ، حتى قيل أن شريط تدمير المدمرة الأميركية في عدن كانت الكويت مركز توزيعه ، إذ وزع فيها أكثر من 200 نسخة .

9- الملاحظة التاسعة : بساطة الحديث الذي يتفوه به ابن لادن والذي يلقى صدى لدى الكثير من الشعوب العربية و الإسلامية ، ويفهمه ويستوعبه المثقف من كامبريدج والفلاح أو العامل ، والمعروف أن قوة الخطاب في بساطته خصوصاً وأن ذلك جاء مع شراسة الهجمة الشارونية على الشعب الفلسطيني وبدعم أميركي لا محدود ، الأمر الذي خدم أسامة بن لادن بشكل لافت وساعده على نظريته الداعية إلى تراكم وتكريس العداء إلى الولايات المتحدة الأميركية وتوظيف كل حدث لخدمة الهدف الأساسي وهو العداء للولايات المتحدة الأميركية ،

ولذا ينبغي أن يسجل هنا أن ابن لادن لم يستهدف حتى الآن مصالح غربية ، وإنما حصر كل ضرباته ضد أهداف أميركية لدعوة الآخرين إلى النأي عن الدفاع عن واشنطن ، وإن كان تشكيل التحالف الدولي ضده وضد طالبان والذي أسفر عن سقوط الحركة ربما يدفعه إلى إعادة النظر في هذه الاستراتيجية ، وربما يلجأ إلى السعي إلى توجيه ضربات ضد المصالح الغربية بشكل عام خصوصاً بعد كلمته المشهورة في شريطه الذي بثته الجزيرة : " إن هذا العالم قد انقسم إلى فسطاطين ".

10- الملاحظة العاشرة :لعل ما ميّز هذه الحرب بين الولايات المتحدة الأميركية والغرب عموماً وتنظيم القاعدة هو عدم وجود قواعد لها عادة ما تنظم أية حرب ، وأحياناً تكون هذه القواعد معلنة أو سرية يفهمها الطرفان ، وما زلت أتذكر كلمة رئيس الشطر الكشميري في باكستان السابق سردار عبد القيوم خان لي حين تحدث عن إمكان تفجر الصراع بين الهند والباكستان على خلفية كشمير فقال : " ربما تستخدم كافة أشكال الأسلحة بما فيها النووية في حال تفجر الحرب ، فإن دخلت الكراهية و البغض في حرب فحينها لا تستبعد استخدام أية أسلحة

ومنهـا النوويـة " فكيـف إن أسـقطنا ذلـك علـى العـداء الأميركي مع القاعدة مشـفوعاً بالكراهيـة العقديـة والحقـد التاريخي المتراكم لدى أتباع القاعدة الذين يحملون أميركـا كل ما لحق بالمسـلمين طـوال القـرن الماضـي ، وترجمـت القاعدة تحطيم قواعد اللعبة هذه التي درجت أميركـا علـى قناعتها بأنها لن يتـم كسـرها ، وهـي عـدم مهاجمتهـا فـي عقر دارها ، ولذا كانت كل عقيدتها العسكرية منصـبة علـى تعزيز أمنها في الخارج وفوجئت أميركا بعاصـفة الطـائرات كما وصفها الناطق باسم القاعدة سـليمان أبـو غيـث لتعيـد إلى الذاكرة أهوال الكاميكـاز اليابـاني وعمليـاته الانتحاريـة حين هاجم حوالي 18 شاباً عربياً بطـائرات مخطوفـة مقـار الهيبـة الأميركيـة الاقتصـادية والعسـكرية الممثليـن بمركـز التجارة العالمي والبنتاغون الأميركيين ،والفشل في ضرب مقر الهيبة السياسية الممثل بالكابيتول هول ، ثم مـا تـردد عن عـزم ناشـطي القاعـدة مـن تسـميم الميـاه فـي رومـا وامتلاك القاعدة لأسلحة دمار شامل كل ذلك يشير إلـى أن الحرب يمكن أن تذهب إلى أبعد مـديات ، وأن حـدودها غيـر معلومـة ولا يمكـن التنبـؤ بهـا ، ولعـل هـذا مـا عكسـته

التصريحات الأميركية القائلـة بـأن الحـرب مـع " الإرهـاب " طويلة الأمد .

11- الملاحظة الحادية عشر :أرغمت الحـرب الجديـدة الـتي تعد القاعدة أحد طرفيها روسيا على التعـاون مـع الولايـات المتحدة الأميركية في قضايا عسـكرية كـانت محرمـة حـتى قبل يـوم واحـد مـن أحـداث الحـادي عشـر مـن أيلـول ،بـل وقبلت التواجد الأميركي لأول مرة منذ قرون في حــديقتها الخلفية الممثلة بدول وسط آسيا ، مقابـل صـداقة محتملـة مع الولايات المتحدة الأميركيـة ، وهـو مـا دفـع مـدير مركـز التحليل والدراسات الاستراتيجية في مجلس الأمن القومي في كازخستان مولن ايشيمبايف إلى القول بأن روســيا : " فقدت هيمنتها العسكرية – السياسـية فـي آسـيا الوسـطى وغدت الولايات المتحدة هي الضامن للأمن والاستقرار فـي المنطقة ، وسيمتد وجودها هنا لفترة طويلة ." وقـد تحـدث وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد عـن فـترة عشـرين عاماً ، وما تخشاه موسكو أن تكـون هنـاك اتفاقيـات سـرية بيــن هــذه الــدول وأميركــا لمرحلــة مــا بعــد أفغانســتان واســتخدامها كقواعـد مســتقبل اً." ولا يسـتبعد البعـض أن تكون موسكو وربما بكين بـدأتا فـي الانزعـاج مـن التواجـد

الأميركي بهذه الكثافة في مناطق نفوذها ومجال حيويتها ، وربما يتطور ذلـك إلـى دعـم كـل القـوى المناوئـة للتواجـد الأميركي في المنطقة والثأر من هزيمتها في أفغانستان ؛ فقد عثر قرب مطار قندهار على مجموعة صـواريخ مضـادة للطيران بارتفاع 5.5 كم روسية وصينية الصنع وهو ما أثار الشكوك في أن تكون عملية توريد هـذه الأسـلحة قـد بـدأت بالفعـل مـن دول مثـل الصـين وروسـيا وذلـك لمناهضـة الوجود الأميركي ، خصوصـاً وأن مثـل هـذه الصـواريخ الـتي تبـاع أو تـورد للـدول العربيـة لا يتعـدى مـداها الثلاثـة كيلومترات فقط .

فصناع القرار في أميركا يدركون أن الخطر الحقيقي الـذي يهددهم على المسرح الدولي هو روسيا وهو ما تحـدث عنـه بالتفصـيل مستشـار الرئيـس الأميركـي الأسـبق زبيغينـو بريجنسكي في كتابه " رقعة الشطرنج الكـبرى " ، ومفتـاح السيطرة على روسيا هو بالسيطرة علـى جمهوريـات آسـيا الوسـطى وان مفتـاح السـيطرة علـى جمهوريـات آسـيا الوسـطى هـو أوزبكسـتان الـتي توصـف بمصـر المنطقـة . ولذلك ليس بغريب أن يذكر الرئيـس الأميركـي بـوش اسـم أوزبكسـتان فـي خطـابه أمـام الكـونجرس بعـد أحـداث 11

سبتمبر مباشرة، وان اوزبكستان هي أول دولة في تلك المنطقة تم فتح قوات أميركية فيها.

12- الملاحظة الثانية عشر :أوجدت ظاهرة أسامة بن لادن مكانة واعتباراً للإعلام العربي وتحديداً الفضائي والذي دأب طوال العقود الماضية على النقل والنسخ من الإعلام الأجنبي ، فانقلبت الآية حين محّض ابن لادن كل مقابلاته وتقاريره وبياناته وصوره للإعلام العربي وتحديداً قناة الجزيرة ، والتي غدت هي وشعارها على شاشات كل محطات العالم وبدون استثناء ، ولأول مرة يغدو الإعلام العربي صانع للخبر ، وجاء توفير طالبان الفرصة للجزيرة في الاستفراد بتغطية القصف الأميركي على أفغانستان ليعزز مكانة الإعلام العربي الذي كان معظم ما ينشره هو ترجمات لما يطبع في الدوريات العالمية .

ورغم حديث البعض عن خسارة الجزيرة لحوالي أربعة ملايين دولارات ثمناً للإعلانات التي توقفت بسبب إصرارها على بث أشرطة ابن لادن غير أن ما حصدته الجزيرة من دعاية وشهرة وسط العالم برمته يستحق ربما البلايين من الدولارات ، وبحاجة إلى عشرات السنين حتى يتم حصد

هكذا شهرة ونجومية وهو ما تحقق لها في غضون أشهر إن لم يكن أقل .

ومعلوم جدلية العلاقة بين السياسي والإعلامي فبعد أن كان وما يزال قادة الدول العربية والإسلامية يحرصون على إعطاء أية مقابلات مهمة وتسريب الأخبار السرية إلى الإعلام الأميركي والغربي بشكل عام ، جاء ابن لادن و الطالبان ليكسروا هذه القاعدة ، على أمل كما عبر لي ابن لادن في أحاديثه أن يعزز ذلك من ثقة العرب و المسلمين بأنفسهم وينتهي عهد الهيمنة الغربية والأميركية على الإعلام وغير الإعلام . فلأول مرة يشهد العالم تدفق الخبر بشكل معاكس ممثلاً من العالم الثالث أو العالم العربي تحديداً إلى العالم الغربي بعد أن كانت الآية معكوسة تماماً . وكسرت بريطانيا تقاليدها العظيمة في عدم السماح لأقل من وزير بالتحدث للإعلام وكونت " وحدة الإعلام الإسلامي " وعينت جيرالد راسل ناطقاً باسمها وهو يتحدث العربية بطلاقة ، وزار الدوحة غير مرة للظهور على قناة الجزيرة لتوضيح وجهة النظر البريطانية للمشاهدين العرب ، وربما لأول مرة في تاريخ الحروب يتم إنشاء مكتب إعلامي للتحالف الدولي في دولة خارجة عن

الـدول الـتي شـاركت قواتهـا فـي الحـرب ضـد أفغانسـتان والقاعدة حين تأسس مثـل هـذا المكتـب فـي إسـلام آبـاد ، وهو ما يشـير إلـى كسـب ابـن لادن الإعلام فـي حربـه مـع أميركا .

ولم يقتصر تأثير الأحداث علـى الجـوانب الإعلاميـة فحسـب وإنما تعداه إلى فرض مادة الإسلام في الجامعات الأميركية ، وأقبـل الجمهـور الغربـي علـى دراسـة الإسـلام والـدول العربية في الوقت الـذي لـم يكونـوا معنييـن بنـا وبإسـلامنا وبقضايانا ، وبدأ الحديث يدخل الكثير من الـبيوت الأميركيـة عن سببية كره الشعوب العربية والإسلامية لأميركا .

13- الملاحظـة الثالثـة عشـر : كشـفت ظـاهرة ابـن لادن وأحداث الحـادي عشـر مـن أيلـول الكـثير مـن زيـف الإعلام الغربـي وحريتـه وحقـوق الإنسـان الـذي كـان ينـادي بهـا الغرب ، وظهر الإعلام الغربي منسـاقاً وبشـكل كامـل إلـى السياسـة الغربيـة ومتناغمـاً معهـا تمامـاً باسـتثناء بعـض الأصوات التي واصلت رسالتها في الاسـتقلالية والمهنيـة ، ويقف على رأس هؤلاء الصحافي البريطاني اللامع روبـرت فيسك الذي كتب في الاندبندنت البريطانية مقـالاً : " لمـاذا أصبح الصحافيون هدفاً ؟" وذلك على هامش اختطاف وقتل

مراسل الوول ستريت جورنال دانيال بيرل في باكستان ، ويعزو فيسك في المقال الذي أعادت نشره صحيفة الدون الباكستانية الرصينة في تاريخ : 2ـ 3 ـ 2002 إلى تحول كثير من الصحافيين الأميركيين وغيرهم إلى مقاتلين ، وينقل عن جيرالد وريفير مراسل تلفزيون الفوكس نيوز الذي حمل سلاحه حين توجه إلى جلال آباد شرقي أفغانستان ، وحين سئل ماذا ستفعل به أجاب : " سأقتل أسامة بن لادن إن لقيته في طريقي " ، وهناك الكثير من الأمثلة على الفوكس ، وحتى السي إن إن التي رضخت للشروط الأميركية في عدم بث أشرطة ابن لادن بحجة أنها قد تحمل كوداً لأتباعه وناشطيه .

لقد غدا الإعلاميون الغربيون بشكل عام عبارة عن أشبه ما يكون بعملية استنساخ بشري ، فالكل يؤيد ويؤمن على ما يجري ، وقد شبهها البعض بالمحرقة التي لا يمكن أن يدينها أو ينتقدها ، واستدعت السلطات الأميركية الإذاعي الأميركي الشهير كايل هافونز صاحب البرنامج الإذاعي الشهير الذي يحمل اسمه في راديو لوس أنجليس ، ووجهت له تهديداً مباشراً بوقف برنامجه إذا استمر في إتاحة المجال أمام انتقادات البعض لسياسية الرئيس جورج

دبليـو بـوش فـي أفغانسـتان و الشـرق الأوسـط ، ونشـرت صحيفة إيفننيغ سـتاندر قصـة ثلاثـة صـحافيين فصـلوا مـن وظائفهم لأنهم تجرءوا على اعتبار الحرب الأميركية ضد ما يوصف بالإرهاب عملاً اسـتقراطياً يتجاهـل جـذور المشـكلة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وجاء خطاب طردهم من العمل كونهم لم يلـتزموا بـالخط الـوطني فـي التعامل مع قضية استراتيجية تتعلق بالأمن القـومي للبلاد . ولم تكتف قناة فوكس بالتهجم على ابن لادن وتنظيمه بـل وأضافت مصطلحات غريبة كـل الغرابـة عـن تقاليـد أبسـط قوانين المهنة حين وصفت ابن لادن بــ " الشـرير " وكيـس القذارة ، والقاتل و المجرم"[1][1].

لم يعد هناك بعد أحداث الحادي عشـر مـن أيلـول أخلاقيـات صــحافة وإعلام مهنيــة حقيقيــة ، ولــم يعــد الصــحافي والإعلامي الغربي متجرد باسـتثناء البعـض ، وكشـفت هـذه الأحداث أن الإعلام الغربي بمجمله أشبه مـا يكـون بـالإعلام الشمولي والديكتاتوري فـي بلـدان العـالم الثـالث ، وظهـر أهميـة الإعلام الشـمولي والـديكتاتوري فـي بلـدان العـالم الثـالث وفائـدته فـي هـذه الحـرب ، إذ أن إعلام دولـة مثـل

1

طاجيكستان ووأوزبكستان وغيرهما لم يحرك ساكناً مـا دام كله تحـت سـيطرة الدولـة وتحكمهـا ، ولكـن إعلامـاً كـإعلام دولة باكستان التي قدمت تسهيلات للقوات الأميركية سبب لها بعض الصداع نظراً للحرية النسبية التي يحظى بها .

لقد أفرزت أحداث الحادي عشر مـن أيلـول إعلامـاً أميركيـاً جديداً وصف بـ " الإعلام الوطني " وبعد أن كان الإعلام أولاً والحكومة أخيراً قبل أحداث الحادي عشر من أيلول انقلبـت الآية ؛ فقد غدت الحكومة ومصالحها أولاً والإعلام أخيراً .

وتعـدت دائـرة التـأثير مـن الـدائرة الإعلاميـة إلـى إصـابة الحضارة الغربية في مقتلها حين حدّت من الحقوق المدنيـة و القانونية وأرغمت أحداث أيلول الغرب على تغييـر منهـاج وتقاليد حياته التي التزم بها طوال حياته ، والقصص كـثيرة في هذا المجال ،وليس من المناسب سردها كلهـا ، مادمنـا قـد اخترنـا فـي هـذه المقدمـة إعطـاء إضـاءات ودلالات وملاحظات عما أفرزتـه ظـاهرة ابـن لادن وأحـداث الحـادي عشر من أيلول .

14- الملاحظـة الرابعـة عشـر : فشـلت الأجهـزة الأمنيـة الأميركية ف ي توقـع ضـربة الحـادي عشـر مـن أيلـول رغـم

الإشارات العديدة التي ظهرت من ابن لادن في التلويح بضربة قوية ، وهو ما ظهر في التقرير الذي بثته إم بي سي قبل الضربة بأكثر من شهرين ، وحتى أن صحيفة الدستور الأردنية ذكرت في عنوان لافت لها والصادرة في تاريخ : 14 حزيران 2002 أي قبل حوالي ثلاثة أشهر من ضربات نيويورك وواشنطن الخبر الذي أود نقله مع عنوانه الرئيسي الذي تصدر الصفحة الأولى من الجريدة يومها :" " تقارير في صحيفتين أميركية وألمانية ، ابن لادن يخطط لاغتيال قادة الدول الـ " 8 " بطائرات محملة بالمتفجرات ، ثم يقول التقرير : ذكر تقرير أمس أن قوات أمن دولية تعمل بشكل حثيث لإفشال مؤامرة يقال إن أسامة بن لادن وضعها لاغتيال الرئيس الأميركي جورج بوش ورؤساء آخرين خلال قمة اقتصادية في إيطاليا الشهر المقبل . وقالت مصادر لصحيفة " نيويورك بوست " إن مسؤولين إيطاليين ذكروا أن أجهزة الاستخبارات الألمانية حذرتهم من أن ابن لادن يقوم سراً بتمويل جماعات من حليقي الرؤوس النازيين الجدد لتمكينهم من ارتكاب أعمال عنف خلال القمة . وقالت الصحيفة إن الهجوم ربما يأتي من الجو على شكل ضربة غريبة على طريقة أفلام جيمس بوند

تتم بواسطة طـائرات محملـة بـالمتفجرات البلاسـتكية يتـم التحكـم بهـا عـن بعـد . وقـالت صـحيفة يبلـد الألمانيـة أن الطائرات ربما تطير مخترقة المبنى الذي تنعقـد فيـه قمـة الدول الصناعية الثمانية ."

والسؤال الذين ينبغي أن يوجهه كل أميركي إلى السـلطات الرسمية كيف يحصل هـذا الفشـل الـذريع للأجهـزة الأمنيـة في ضوء مـا نشـر ، ويـأتي قائـد الأسـطول الأميركـي فـي المحيط الهـادئ الأدميـرال دينيـس بليـر ليقـول للنيووزيـك الأميركية الصادرة بتاريخ : 11ـ 3ـ 2002 :" نحن لم نربـط الأمور بعضها بعضاً ؛ فقد كـان التوقـع أن تحصـل الضـربات وتستمر الحرب مستهدفة مصالح ديبلوماسية وعسكرية في الخـارج ، وبالتـالي نسـتطيع أن نبقـي الحـرب علـى ذلـك المسـتوى ، وكـان قرارنـا يمكـن تفهمـه ولكـن كـان قـراراً خاطئاً ."

وعلاوة على ذلك كله خلقت هذه الأحداث ومـا رافقهـا مـن أحداث تحديات وتهديدات متعاظمة للقـوة الأعظـم أميركـا ، خصوصاً في ظل فشلها الأمنـي حـتى فـي اعتقـال قنـاص روع أهـالي واشـنطن ، فكيـف سـتقدر علـى القبـض علـى المطلوبين لها في خارج أراضيها .

15- الملاحظة الخامسة عشر : بدأت لأول مرة تطرح الولايات المتحدة الأميركية خيار الضربة النووية ، وهو ما كشفت عنه المصادر الصحافية الأميركية عقب أحداث الحادي عشر من أيلول ووضع تقرير استخباراتي أميركي حسب الصحف الأميركية دول عدة على رأسها دول ثلاث هي العراق وسوريا وليبيا كأهداف لضربة نووية وكذلك إيران ، الأمر الذي يشي بحجم اليأس الذي يتملك الإدارة الأميركية في ظل المتغيرات الدولية و المنطقوية التي أعقبت أحداث الحادي عشر من أيلول . وتحدثت بعض التقارير عن عزم الإدارة الأميركية تصنيع قنابل نووية صغيرة الحجم لهذا الغرض .

16- **الملاحظة السادسة عشر : تمثلت بالانهيار والسقوط الحضاري الأميركي ، والذي سببته أحداث الحادي عشر من أيلول ، فقد غيرت الكثير من صور القيم الغربية والأميركية ، من تفشي العنصرية تجاه غير الأميركي ، وتحديداً العربي ، وكذلك التخلي عن القانون ، فبعد أن كانت واشنطن تدين تشكيل المحاكم العسكرية العربية ، وغير العربية ، على أساس ، أنها لا توفر للمعتقلين والمحتجزين**

محاكمة عادلة ، بوجود محامين ، ومـدافعين عنهـم ، وهو ما سقطت فيـه الولايـات المتحـدة الأميركيـة ، بعـد أن شـكلت محـاكم عسـكرية ، وهـو مـا دانتـه منظمـــات حقـــوق الإنســـان ، وســـقط الإعلام الأميركـي ، الـذي اكتفـى بنقـل بيانـات ولقـاءات المسـؤولين الأميركييـن دون الكشـف عـن خفايـا الأحـداث فـي أفغانسـتان ، بالإضـافة إلـى القصـور الـذي وقعـت فيـه الأجهـزة الأميركيـة لعجزهـا عـن الكشف أو توقع ما حدث في الحادي عشر من أيلول . ومـن صـور السـقوط الحضـاري الغربـي هـو دعـم وتعزيز الأنظمة العسكرية الديكتاتورية ، والتي كـان ينظر إليها غربياً قبل أيام من أحداث وربما سـاعات من أيلول على أنها أنظمة غير ديمقراطية ، وعليهـا أن تعيد الديمقراطية ، ورفض الكثير من قادة الدول الغربية زيارة هذه الدول ، وعلـى رأسـها باكسـتان ، ولكن فجـأة تغيـرت الأمـور وانقلبـت ، وبـدأ الجميـع يهبط فـي إسـلام آبـاد لتشـجيع القائـد الباكسـتاني برويز مشرف ، والذي وصف من قبل هذه القيادات الغربية التي كـانت تهـاجمه حـتى قبـل أيـام ، بـأنه

الباني الثاني لدولـة باكسـتان بعـد مؤسسـها محمـد علي جناح في العام 1947 إثر قـرار الانفصـال عـن الهنـد ، وغـابت صـفة الـديكتاتور الباكسـتاني الـتي كانت تلاحقه كظله في كل مناسبة ، وغير مناسـبة ، واستقبل في كل العواصم العالمية بكـل الترحـاب ، وهو ما يعني أن حقـوق الإنسـان والديمقراطيـة مـا هي إلاّ شعارات لخدمة المصالح الغربية والأميركية ، وبعيدة كل البعد عن المبـادئ والقيـم الغربيـة الـتي تدعو إلى نشرها في الدول الأخرى .

ويقول الناشـط الحقـوقي السـوري هيثـم المنـاع :" ترد كلمة حقوق لانسان عن رامسفيلد عنـد الحـديث عن أفغانستان في ظل طالبـان حيـث يـرون الاستشـهاد بتقرير منظمة العفـو الدوليـة ، وتقريـر منظمـة هيومـان رايتش ، ووتش الأميركية لعام 2001 ، أمـا بالنسـبة إلـى توقيف قرابة 2450 شخصاً بمساعدة 90 دولـة فـي أقـل من عام على حوادث أيلول وبقاء 660 شخصاً منهـم فـي المعتقلات ، وفــي ظــروف تحقيــق اســتثنائية " وفــق إحصاءات البنتاغون " فهذا أمر تقدره الحكومات المعنيــة بالأمر ، يقدر البنتاغون عـدد المعتقليـن فـي أفغانسـتان

بقرابة 7500 معتقلاً من أربعين جنسية ولا يعطي أرقاماً بالمفقودين ، الأمر الذي لا يشمل معتقلي غوانتانامو ."

وفي نفس السياق يمكن القـول بـأن أحـداث أيلـول ومـا بعــدها فضــحت هشاشــة القــانون الــدولي والنصــوص الصـريحة لميثـاق الأمـم المتحـدة والـتي تنـص فـي أول كلماته :" نحن شعوب الأمم المتحدة عاقـدو العـزم علـى إنقاذ الأجيال المقبلـة مـن ويلات الحـرب" وكـان مجلـس الأمن أصدر قرارين في الفترة من 11 سبتمبر وحتى بدء الهجمات الأميركية ضد أفغانستان في 7 اكتوبر والقراءة المتأنية لنص القرارين تظهر أنهما لا يجيـرزان اسـتخدام القوة وإنما هما يـدينان هجمـات 11 سـبتمبر ، ويشـيران إلــى الإجــراءات الــتي تتخــذ للقضــاء علــى مــا يوصــف بالإرهاب ، ولم يذكر القراران كلمة واحدة عـن اسـتخدام القوة العسكرية أو ما شابهها ، بل إنهما لـم يشـيرا إلـى أفغانســتان ولــم تــرد فيهمــا الصــيغة المعهــودة لجميــع الوســائل الضــرورية والــتي وردت فــي قــرارات مجلــس الأمن الصادرة إبان حـرب الخليـج الثانيـة والـتي أعطيـت الضوء الأخضر لاستخدام القوة العسكرية ضد العراق ."[2]

---

[2] راجع بالتفصيل كتاب ما وراء الحادي عشر من أيلول لـ مايكل ماندل .

17- الملاحظة السابعة عشر : أسفرت أحداث الحادي عشر من أيلول عن حالة جديدة في العلاقة الأميركية مع الدول العربية ، وفي علاقة الأخيرة مع شعوبها ؛ فقد تحولت الحكومات العربية إلى جاسوس على أفرادها ، بعد أن فتحت مخزن معلوماتها وملفاتها للاستخبارات الأميركية لتنجو من تهمة "البن لادينية " على غرار من كان يحاول الهرب من تهمة المكارثية ، ولكن بالمقابل حاولت الأنظمة العربية استغلال هذه الأجواء من أجل تصفية حساباتها مع الحركات الإسلامية بحجة الدفاع عن الديمقراطية الغربية ، بعد أن صورت الأنظمة العربية هذه الحركات الإسلامية على أنها المهدد الأول لقيم الحضارة الغربية . وللأسف فقد لعب المثقفون العرب في غالبيتهم دور المطبل والمزمر للسياسات الحكومية العربية والمروج لسياسات بوش في تبرير حملته على ما يوصف بالإرهاب ، وظهر هذا المضلع الثلاثي أميركا والأنظمة العربية ومعهم المثقفون وبعض علماء الدين الإسلامي في خندق واحد ، حيث تدثر بوش بغطاء إسلامي وإن كان رقيقاً وفره له بعض علماء السلاطين لتبرير الحملة على أفغانستان ، من خلال إدانة

أحداث أيلول ومهاجمة طالبان أو القاعدة وابن لادن ، الأمر الذي سيظهر أمام الجمهور وكأن الحملة مبررة .

18 **- لملاحظة الثامنة عشـر : أفـرزت أحـداث الحـادي عشر من أيلول عن حالة شبيهة بحالة المحرقة التي لا جدال فيها ولا نقاش ، ومن يطرحها فكأنه يجادل فــي مسلمات متفق عليها ، وبالتالي فإن من يتهم بأنه مـن القاعدة أو طالبان لا يمكن السـؤال والاستفسـار عـن صحة هذا الادعاء ، وظهر ذلك بتهـويش بعـض الأفغـان المتعاملين مع أميركا على ضرب خصومهم ، وغدا فــي كـثير مـن الأحيـان لا فـرق بيـن طالبـان و القاعـدة و البشتون والعرب ، وستظل الولايات المتحدة الأميركية وحلفاؤها يستغلون ذلـك لضـرب أي حركـة أو أي عـدو حقيقي أو وهمـي ، ومـا علـى الجميـع إلاّ أن يتحسـس على رأسه ويبعد التهمة عن نفسه ، فقـد نشـرت اليـو إس توداي الأميركيـة نقلاً عـن اسـتطلاع للـرأي أجـراه معهد جالوب في السابع والعشرين من فبراير " شباط " 2002 أن 9% من تسع دول أجري عليها الاسـتطلاع ترى أن العملية الأميركية على أفغانستان مبررة .**

19 – الملاحظة التاسعة عشر :أعادت أحداث الحادي عشر من أيلول وما تبعها أهمية السلطة الروحية على السلطة الزمنية " ولعل ذلك يبشر بانتهاء عصر رجال السياسة ليبدأ عصر رجال الدين في القيادة كما في الشأن العام ، ومبشراً كذلك باستيحاء الشرائع السماوية في الأحكام الزمنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وليس الإرادة الشعبية واعتماد الشورى بدل الانتخابات والاقتراع الديمقراطي الحر ."[3] وفي نفس السياق يمكن القول بأنه بعد أن كانت الأحزاب المعتدلة مثل الإخوان المسلمين وغيرهم متهمون بتفريخ الأحزاب المتشددة وهي التي تقوم بمنحها القوة المعنوية انعكست الآية حيث لعبت أحداث أفغانستان وطالبان وتحديداً ابن لادن والملا محمد عمر دوراً مفصلياً في نتائج الانتخابات الباكستانية التي وصل فيها الإسلاميون إلى القوة الثالثة وحصلوا على أكثر من خمسين مقعداً بينما لم يتعد عدد مقاعدهم في انتخابات عام 1997 الأربعة مقاعد ، وكلها بسبب أحداث أفغانستان وما أعقبه من تعاطف الشعب الباكستاني مع الأحزاب الإسلامية لمعارضتها

---

3 - أنظر أدمون صعب ، قاعدة ابن لادن لم تعد استثناء في النهار اللبنانية الصادرة بتاريخ 18-10– 2002

الضربة الأميركية لطالبان والقاعدة ووصل الأمر إلى أن يقول قادة مجلس العمل الموحد الفائز في هذه الانتخابات وفي اجتماع عام عقد في " أيوب استاديوم " بكويتة على الحدود مع أفغانستان يوم 11-10-2002 بأن هذا الفوز إنما يعود إلى التضحيات التي بذلها ابن لادن وطالبان ، ويتطور إلى أن يطالب مولانا عبد الرحيم بازاي الفائز في البرلمان المحلي بالإفراج الفوري عن رمزي يوسف وأيمل كانزي المعتقلين في أميركا ، كما قال أحد كبار علماء المنطقة وهو مولانا أنوار الحق حقاني بأن تضحيات الملا عمر وأسامة بن لادن لعبت دوراً في فوز مجلس العمل الموحد في الانتخابات ، وشكل هذا الفوز انقلاباً اجتماعياً حقيقياً في تلك المناطق المحافظة حيث تراجع وبشكل خطير دور الإقطاع والعائلات والأحزاب العرقية والعنصرية التي استأثرت بالمقاعد البرلمانية طوال تاريخ البلاد السياسي .

20 – الملاحظة العشرين : أفرزت أحداث الحادي عشر من أيلول حملة شعواء على العمل الإغاثي العربي والإسلامي دون التثبت فيما إذا كان لهذه

المنظمة علاقة بالفعل مع القاعدة أو طالبـان ، أم لا ، وذلك كله بحجة مكافحـة مـا يوصـف بالإرهـاب وتحـدث الكـاتب روهـان غواناراتانـا أن " خمـس المنظمـات الإغاثية العربيـة والإسـلامية مخترقـة مـن القاعـدة ."[4] وهو ما يبرر الحملة علـى الجميـع ، مّـا أفسـح المجـال للمنظمـات الكنسـية وغيرهـا بالتسـلل وبقـوة إلـى أفغانستان وغيرها خصوصاً بعد الضغوط التي تعرضـت إليها منظمات على رأسها جمعية إحياء التراث الكويتية فـي بيشـاور فضـلاً عـن اعتقـال واحتجـاز الكـثير مـن العاملين في هذه المنظمات ،وهو مـا أفقـدها العنصـر البشري .

21- الملاحظـة الحاديـة والعشـرين :سـببت أحـداث الحـادي عشر من أيلول وما بعدها تراجع الإسـلام السياسـي لصـالح الإسـلام العسـكري ، ولكـن لا يعنـي هـذا تراجـع الإسـلام السياسي لصالح العلمانية وغيرها من القوى الليبرالية كمـا كـان يتنبـأ بـذلك كتـاب فرنسـيون مـن أمثـال أوليفـر روي وكيبل ونحوهما .

---

4 روهان غوانراتانا ، داخل القاعدة بالانجليزية ، ص 12 .

وبعد أن كان الإسلام السياسي هو الذي يقوم بتوفير الغطاء والدعم والمساندة وتفريخ الإسلام العسكري انقلبت الآية ، حين وفر الحملة الأميركية على طالبان والقاعدة فرصة ذهبية للجماعات الإسلامية الباكستانية بالفوز وقد اعترف كل قادتها لاحقاً بأهمية عنصر طالبان والقاعدة في هذا الفوز .وأفلحت القاعدة في استيعاب العمل الوطني بعد أن كان الأخير هو الذي يستوعب العمل الإسلامي وينعت كثيراً من التنظيمات الإسلامية بعدم الفاعلية والنشاط ، وبخلاف ما كانت عليه التنظيمات الإسلامية سابقاً من الخشية من التعامل مع المخابرات العالمية دفعت القاعدة بعض أعضائها ومؤيديها إلى التعاون من مع مخابرات إف بي آي كما حصل مع أحد مخططي عمليات السفارتين الأميركيتين في أفريقيا الوسطى محمد علي المصري .

الفصل الأول

رحلة في عقل زعيم

تنظيم القاعدة

أسامة بن لادن

مــن خلال حــوار مطــول حظــرت

نشره طالبان

في أحد أيام أكتـوبر " تشـرين ثـاني مـن العـام 2000 دقّ جرس الهاتف فـي الـبيت ، رفعـت السـماعة كـان علـى الخط الآخر شاب قدم نفسه على أنه أبو عثمان المصـــري ، عارضاً علي التوجه إلى أفغانستان للقــاء الأفغـان العـرب ، وربما لقاء الرجل حسب تعبيره ، وما تبادر إلى ذهنـي علـى الفور بأن المقصود به أسامة بن لادن في داخل أفغانستان ، أسرعت إلى التهيؤ للأمر ؛ فمثل هـذا الصـيد لا يـوفر، ولا بد من الرد عليه سريعاً ، إذ أن عملية المدمرة يـو إس كـول كانت حديثـة ، مـا يجعـل تعليـق أسـامة علـى الأمـر أو نقـل انطباعات ما يجري هناك على الأقل مهم للغايـة فـي عـالم الصحافة والسبق الإعلامـي ، فقـد كـان آخـر عهـدي برؤيـة أســامة بــن لادن فــي العــام 1990 إثــر معركــة جلال آبــاد الشهيرة التي خاضها المجاهدون الأفغان في مــارس " آذار " من عام 1989 بعد أن انسـحبت القـوات السـوفييتية مـن أفغانستان ودخلت قوات المجاهدين الأفغان المدعومة مــن

قـوات الأنصـار العـرب فـي معركـة مباشـرة مـع القـوات الشيوعية الأفغانية ، وخاض المقاتلون العرب في جلال آباد معـارك شرسـة ضـد القـوات الشـيوعية الأفغانيـة برئاسـة الدكتور نجيب اللـه الـذي شـنق بعـد دخـول طالبـان كـابول ووصولهم إلـى السـلطة فـي سـبتمبر" أيلـول " مـن العـام 1997 وقدرت حينها المصـادر العربيـة عـدد قتلـى الأفغـان العرب في تلك المعركة بأكثر مـن 170 شخصـاً ، ومـا تـزال قبور العشرات من هؤلاء الأفغان العرب على يسار الطريق المؤدية مـن نقطـة طـورخم الباكسـتانية باتجـاه جلال آبـاد شاهدة علـى ملاحمهـم الـتي خاضـوها إلـى جـانب الأفغـان أنفسهم ، وربما قـد دفـن البعـض منهـم علـى أيـدي هـؤلاء الأفغان أنفسهم في معارك طوره بوره حين قاتل الأفغـان إلى جانب القوات الأميركية ضـد رفـاق سـلاحهم بـالأمس ، وما يزال الأفغان الذين يعبرون من تلـك المنطقـة يخـبرون غيرهم ممن لم يعاصر تلك الفترة عن أصحاب هذه القبور ، لكن تلك المعركة الضروس ضد القوات الشـيوعية أسـفرت لاحقاً عن احتفاظ القـوات الشـيوعية الأفغانيـة بجلال آبـاد لعوامـل كـثيرة ليـس الآن محـل الحـديث عنهـا ، أعـود إلـى أسامة بن لادن ودوره في تلك المعركة ، فـأقول كـان قـد

لعب دوراً مميزاً وعلا نجمه وكعبه كثيراً بعد أن شارك بنفسه وموّل المعركة وأشرف عليها ، وكم شوهد متنقلاً بين جلال آباد وبيشاور لتمويل المقاتلين ومساعدتهم على أمل أن يتحقق النصر من خلال فوهة البندقية وليس من خلال طاولة المفاوضات كما كان يرغب هو والمقاتلين العرب والأفغان ، ولعل هذا الذي مكنه من نسج علاقات وخيوط قوية مع القادة المحليين في هذه الولاية ليعود إليها بعد سنوات من طرده من السودان .

حزمت أمتعتي وبدأت بالتحضير لرحلة طويلة نسبياً ؛ فقد كنت أعرف أن عمليات التمويه والتضليل التي تقوم بها القاعدة والأفغان العرب على الصحافيين ستكلفني الكثير من الوقت والتعب ؛ فقد طلبوني إلى قندهار ، ولكن بكل تأكيد لن ألتقي أسامة إن حصل اللقاء هناك ، وإنما سيتم نقلي إلى مكان آخر قد يكون في الجهة المعاكسة لقندهار ، والتي يمكن الوصول إليها من بيشاور الباكستانية الحدودية بوقت لا يتعدى الساعات بالسيارة ، أما طريق قندهار فسيستغرق الأمر أكثر من يوم .

على كل حال لم يكن هناك مجال للمناقشة فالهاتف لا يساعد في مثل هذه الظروف ، إذ أن القوم يدركون أنه

مراقب وهـو مـا يحـول دون الشـرح و التفصـيل والتوضـيح والفهم والتفهيم ، ولذا لا بد من الاعتماد علـى الـذكاء فـي فهـم الإشـارات أو التظـاهر بـالفهم بانتظـار اللقـاء حـتى تستكمل ما أشكل أو أغلق عليك فهمه .

توجهت إلى كويته الباكسـتانية ومنهـا إلـى قنـدهار برفقـة أبـي عثمـان المصـري ، كـان الطريـق موحشـاً ، وقسـمات القوم تنبئ عن الشدة والقسوة واللامبالاة بمـا يجـري فـي هذا العالم ، فالعولمة بعيدة من هنا ، وربمـا لـم يسـمع بهـا القـوم حـتى الآن ،مـا دامـوا لا يعرفـون مـن الحيـاة سـوى الطعـام والشـراب والسـلاح ، الطريـق كـان وعـراً للغايـة ، وربما لا فرق كبير بيـن الشـطر الباكسـتاني منـه والشـطر الأفغاني ما دامت نفـس اللغـة والعـرق والتقاليـد والقبيلـة هي المنتشرة ، فالأمر ليس كمن كان يعبر في السابق من ألمانيا الغربية إلى ألمانيا الشرقية ، فالكل سـيان فـي بلاد البشتون أفغانياً كان أو باكستانياً ، أما الوجوه فلا تسـتطيع التمييز بين الأفغاني والباكستاني مادامت علامة الاستنساخ البشري الواحدة وهي العمامة تزين رؤوس الجميع في ظل حكم طالبان .

كان الوصول إلى قندهار مساءً ، توجهنا مباشرة إلى أحد المطاعم العادية في المدينة حيث طلبنا صحناً من " تشكن بلاو " وهو الأرز الأفغاني المعروف بالدجاج ، وبجانبه اللبن والسلطات ، وبدأنا نأكل بعد جوع ، إذ من الصعب العثور على مطعم مناسب على الطريق الطويل من الرحلة ، وما أن فرغنا من الطعام حتى طلب مضيفي أبو عثمان الشاي ، واعتذر لي بالذهاب للبحث عن البيت الذي سنقيم فيه ، وما هي إلاّ أقل من نصف ساعة ، حتى حضر أبو عثمان وطلب مني مغادرة المطعم للتوجه إلى البيت الذي تعين أن نبيت فيه ، وعلى الفور توجهنا بالسيارة التي كانت معنا وبتنا ليلتنا في ذلك البيت ، والذي كان على ما يبدو مكتباً من مكاتب القاعدة شاهدت في بعض زواياه بعض أجهزة الكومبيوتر ،لم أسأل بالطبع عن المكتب ولا عن هويته خصوصاً وأنها المرة الأولى التي ألتقي بها القوم في داخل أفغانستان ، وربما مثل هذه الأجهزة الكومبيوترية الوحيدة و اليتيمة في مثل هذه الصحراء التي ينهمك أهلها في تلبية حاجياتهم الأساسية ، التزمت الصمت إزاء كل ما أشاهده دفعاً لأية شبهة قد تحوم حولي ، خصوصاُ و أن الجميع مستنفر هنا توقعاً لضربة

أميركية لرد الاعتبار بعد العملية التي استهدفت المدمرة الأميركية يو إس كول في ميناء عدن ، ومع آذان الفجر أيقظنا من كان في البيت لنصلي جماعة ونأخذ غفوة حتى الصباح ولتبدأ بعدها رحلة مضنية امتدت لأكثر من 12 ساعة من قندهار إلى كابول ومروراً بزابل وغزني ووردك ، كان طريقاً في غاية الوحشة وصحراء قاحلة أدركت حينها التأثير الذي ألقته موجة الجفاف القاسية على هذه الأرض التي حولتها إلى أرض يبسة متعطشة لرذاذ ماء ، خصوصاً وأن هذا الجفاف يضرب البلاد منذ سنوات ، إذ غدا الوضع أشبه ما يكون بعام الرمادة أيام حكم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قرأنا عنه في التاريخ الإسلامي ، فقلما تعثر أو تلمس في هذه الصحراء القاحلة الممتدة كامتداد البصر واتساع الأفق عوداً أخضراً أو بركة ماء ، وهي المنطقة التي طالما كسيت بثوب أبيض من الثلج ، لقد انعكس هذا القحط والجفاف على وجوه القوم التي بدت شاحبة وتحكي قصصاً مأساوية أولها أنها لم تذق طعاماً يليق ببني البشر منذ سنوات ، وتنبئ عن حالة من العوز والفقر والحاجة لا تصدق ؛ فكما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : " لو كان الفقر رجلاً لقتلته " وحين

تجد شخصاً جائعاً فلا تتوقع منه أن يقف مواقف نبيلة أو مواقف مشرفة قبل أن يملئ معدته ؛ فالجوع كافر كما قيل ، ولذا نجد الكثير ممن ارتد عن دينه وبدل وغير من أجل لقمة عيش يملأ بها معدته الخاوية .

في بيت أسامة بن لادن :

كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساءً حين وصلنا إلى منطقة تبعد عن كابول بضعة كيلومترات باتجاه ولاية غزني ، أوقف السائق سيارته ، فهنا الكراج الذي عادة ما تقف فيه السيارات القادمة من الولايات الأفغانية الأخرى إلى العاصمة ، واستأجرنا على الفور سيارة أخرى ، فالوقت يداهمنا ، واقترب موعد حظر التجوال على الأهالي في كابول ، والذي عادة ما يسري من الساعة العاشرة ليلاً ، ولكن لكوننا عرب سيتسامح معنا الطلبة الذين يحبون العرب خصوصاً و أن الكثيرين منهم قتل في صفوفهم خلال الحرب مع المعارضة الشمالية ، هذا ما قاله لي مرافقي أبو عثمان المصري ، اطمأننت لكلام أبي عثمان

وهو المعروف حسب ما فهمت منـه وشـاهدت فـي قنـدهار في أوساط بعض قيادات طالبان ، وبالتالي فلا داعي للقلق بعد الآن ، استأجرنا سيارة خاصة والتي أقلتنا إلـى منطقـة في غرب كابول ، أخطأ مرافقي فـي العنـوان قليلاً ولكـن بعد برهة من الوقت اسـتعاد الـذاكرة خصوصـاً و أن الرحلـة من قندهار إلى كابول هدته وهدتني معه ؛ فقـد اسـتغرقت وقتاً ليس قصيراً ؛ فتعدت الثلاث عشرة سـاعة فـي طريـق وعر للغاية ، وربما ينبغي البحث في اللغة عن كلمة تناسـب وعورته الشديدة ، وأحسست أن كابول التي كتب الكثير عن خضرتها و بساتينها لم يتبق منهـا شـيء ، إذ تعـرت تمامـاً ، وبدت لي صحراء قاحلة ، وربما إن عاد إليهـا الآن مـن كتـب عن خضرتها ومياهها لاعتقد أنه أخطأ العنوان ، لقـد عضـها الجوع والفقر بنابيه ، ولمست ذلك في اليـوم التـالي حيـن تجولت فيها ، وتذكرت مـا كتبـه عنهـا السياسـي الإنجليـزي الكسندر بيرنز في العام 1832 بعد عودته من بخـارى الـذي سحره جمالها وفاكهتها صاحبة الحدائق الكثيرة فكتـب عـن كابول وهو الذي توجه إليهـا فـي مهمـة سياسـية يقـول : " كانت هناك أشجار الإجاص (الكمثرى) والخـوخ والمشـمش والدراقن والتفاح والكرز والجوز والتوت والرمان والعنـب .

جميعها في مدينة كبستان كبير ، وكانت هناك أيضا البلابل والعصافير السوداء والحمام والطيور المغردة على كل غصن » .

فهل لو عاد بيرنز لعرف المكان أم تبرأ مما قاله ؟ !! ، وقد حدثني الكثير من أهالي كابول بأنه حتى أيام حكم الشيوعيين كانت سفوح الجبل الذي يتربع عليه فندق انتركونتيننتال وكذلك مطعم باغ بالا مغطى بأشجار العنب ، ولم تكن الدوائر الحكومية التي تعمل على تقديم العنب كضيافة تشتري من السوق ، وإنما تقطف من هذه البساتين التي كانت ملكاً للحكومة .

تذكرت مرة كنت في منطقة استالف الأفغانية التي تعد من المصايف الأفغانية الرائعة ، وهي تقع شمالي كابول حيث يقع قصر للحكومة الأفغانية ، فقد بدت لي الطبيعة الأفغانية رائعة ، إذ أن ثمة عين على الطريق إلى كابول معروفة لجميع الأفغان ولعلها من أنقى وأطيب ما رأيت في حياتي ربما لا تقل عن ماء الفيجة الشامية قديماً ، والغريب في هذا الماء أنه يساعد على الهضم أكثر من السيفين آب ، ولكن الحرب وأهوالها حين تقع على بلد تحيله إلى ركام وتراب ، وتحوله إلى أثر بعد عين ، فكيف

إن وقعت الحرب الأهلية بين رفاق كانوا إلى يوم قريب في خندق واحد ضد عدو مشترك واحد ، فالإحصائيات مؤلمة من قتل وتشريد وتدمير للبنيـة التحتيـة الـتي ربمـا بحاجـة إلـى عشرات البلايين من الـدولارات ، وهنـاك الأخطـر مـن ذلـك كله هو بناء الإنسان الأفغاني الذي غاب عنه التسامح الــذي كان معروفاً وسط عرقياته وطوائفه .

دلفنا إلى البيت ، والذي كان مكوناً من طابقين ، وهو بيــت ليس بالكبير ، عرفـت لاحقـاً أنـه كـان فـي السـابق لزعيـم المليشيات الإسماعيلية سيد كيان الذي حكم وادي كيان في ولاية بغلان شمالي أفغانستان قبـل وصـول حركـة طالبـان إلى المنطقة واستيلائها عليها في العام 1997 ، البيت كان عادياً جداً في فرشه وترتيبه وعدد غرفه ، إذ أنه كان نســبياً صغيراً يحتوي على بعض الخدم الأفغان الذين يقومون على خدمة العرب ، بينما يجلس العرب في صـالون وسـط الـبيت يطل على كل غرفه يتجـاذبون أطـراف الحـديث ، أمـا نحـن فكنـا نجلـس فـي إحـدى الغـرف المطلـة علـى الصـالون أو الموزع كما يقال له ، فهؤلاء الأفغان العرب الجالسين فــي الصالون لم يريدوا أن نعرف عنهم شـيئاً وهـم المطلوبـون لأكثر من نظام عربي وغير عربي ، ولم نحــاول أن نتطفــل

عليهم ؛ فقد فهمنا من لهجتهم أن معظمهم من اليمن والسعودية و دول خليجية أخرى .

الوضع هادئاً في البيت ، ومعظم أحياء كابول لم يكن فيها كهرباء ، ومن بينها هذا الحي ، قضينا ليلتنا على فراش على الأرض ، ونمنا ملء جفوننا حتى الصباح بانتظار السفر إلى منطقة أخرى لم يحددها أبو عثمان بهدف لقاء أسامة بن لادن ، وإن كان الهاتف الداخلي في ذاتي بدأ يهتف بأنني سألتقي أسامة في هذا البيت ولن يكون حاجة إلى التوجه لمنطقة أخرى ، بكل تأكيد لم أبح لمرافقي بذلك ونمت وكلي أمل على أن ألتقيه في هذا البيت لأتفادى ساعات سير أخرى وهي قضية في غاية السهولة للأفغان العرب ، وقد تعودوا على ذلك في هذه الأرض الجبلية التي أكسبتهم وأكسبت شعبها ميزتي الصبر والتحمل .

كانت الساعة تقترب من الرابعة والنصف فجراً حين كان مرافقي أبوعثمان يوقظني إلى صلاة الفجر فالجميع قد تهيأ ، أسرعت باتجاه الحمام الذي كان الوحيد لأكثر من عشرة من ساكني البيت ، وبعد الوضوء وصلاة سنة الفجر لمحت في الصف الأول زعيم جماعة الجهاد المصرية

الدكتور أيمن الظواهري الذي لم يتقدم بخطوة تجاهي وبقي في مكانه ، وبدوري ظللت في مكاني حيث صليت صلاة السنة فقد توقعت أن يقوم باستقبالي والسلام علي ما دمت ضيفاً عليهم ، وإن كنت لمحت وقرأت في وجهه أنه غير مرتاح لوجودي في هذا المكان ، وربما أكون مخطئاً في تقديري ذاك ، لم أجلس سوى دقائق معدودة بعد صلاة السنة حتى أقيمت الصلاة من قبل أحد الشباب الخليجيين الموجودين في البيت ، ووقف الدكتور أيمن الظواهري إماماً بعمامته البيضاء ولباسه الأفغاني ولحيته الكثة التي بدأ الشيب يتسلل إليها ، فقد عرفت الظواهري من قبل في بيشاور، حين كنت أغطي الأحداث لصحيفة الشرق الأوسط والحياة اللندنية في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات ، إذ كان حينها طبيباً جراحاً مشهوداً له في مستشفى الهلال الأحمر الكويتي ، وعرف عنه الوقار والصمت ومتابعة الصحف المصرية خصوصاً صحيفة الأهرام القاهرية حسب ما سمعت ، وذلك من أجل متابعة الأحداث المصرية .

لم يطل الظواهري في صلاة الفجر ، وما أن فرغ منها حتى ظللت في مكاني في الصف الثاني من الصلاة ،

متوقعاً أن يقوم بالسلام علي ، ولكن ما هي إلاّ دقائق حتى نهض مـن مكـانه إلـى بيتـه الـذي علمـت لاحقـاً أنـه يسـكن بالقرب من هذا البيت الذي نقيم فيه الآن ، وقمـت بـدوري إلى الغرفة المجـاورة مـن أجـل اسـتئناف النـوم أو معرفـة ماذا سيكون برنامج هذا النهار ، ربمـا قـرأ مرافقـي ملامـح وجهي التي من الصعب على المرء أن يخفيها في مثل هذه المواطن .

نظر إلي مرافقي أبو عثمـان صـامتاً ثـم قـال لـي يبـدو أن الجماعة سيأتون هنا ولن يثقلوا علينا مضيفاً : " حين سـمع أسامة بأن رحلتك كانت طويلة إلى هذا الحـد قـرر أن يـأتي بنفسه إلى البيت كي يوفر عليك الوقت والتعـب ." بـالطبع فرحت وسررت كثيراً وإن كنت أخفيتهـا ، مبـدياً اسـتعدادي الـذهاب إلـى أي مكـان يتطلبـه لقـاء أسـامة بـن لادن ، فالصحافي مستعد إلى آخـر الأرض ليلقـى هكـذا شخصـية ، وما هي إلاّ ساعات أي فـي حـدود العاشـرة صـباحاً تقريبـاً حتى دخل أبو حفص المصري " محمد عاطف " فـي الثانيـة والأربعين من عمره ، حولته لحيته البيضاء وهدوءه إلى سن الخمسينات ، وبدا وقوراً وبشوشاً وسلم علينا ، وبينما نحن كذلك حتى لمحت كأن شخصاً ممتلئاً يبدو أنه سعودي يـدخل

بسرعة مسلماً ؛ ولكنه كان على ما يظهر مهموماً ومشغولاً بقضية أخرى ، وبدأ يعطي الأوامر بالانتشار لبعض الشباب الذين كانوا مسلحين ، فعرفت أن الرجل قد دخل البيت ، كانت أوامر الرجل الذي ظهر لي بأنه المسؤول عن الحراسة للحراس الآخرين كالآتي ، أنت انتشر هناك ، وأنت انزل إلى الطابق السفلي ، هكذا كان يعطي أوامره ، بينما لمحت بعض صواريخ ستينغر الأميركية مجهزة للتصدي لأية غارة أميركية أو غير أميركية ، وكانت واشنطن سلمت هذه الصواريخ إلى المجاهدين في الفصل الأخير من الحرب الأفغانية ، ثم اشترت الكثير منها من بعض فصائل المجاهدين ، لكن بعضهم لم يسلمها وأبقاها معه ، ولعل ما تبقى وصل إلى القاعدة ، كما كانت هناك بضع صواريخ من طراز سام 7 الروسية الصنع والمضادة للطيران أيضاً ، وبعد أن تم التوزيع بشكل منظم وهدأت حركة أقدام الحراس والمرافقة ، دخل الشيخ أبو عبد الله أسامة بن لادن كما يحلو لأتباعه أن يسموه .

كانت هيئته وكأنه قدم من منطقة ليست قريبة فالتعب ظاهر على هيئته ، وكذلك على ملامح مرافقيه وحراسه ،

سلم وجلس على الأرض بتواضع غريب ليسأل عن الأحــوال والسفر ، وهل استرحنا منه بعد هذا النوم الطويل نسبياً .

للجدران آذان !!

في تلك الغرفة الصغيرة و البيت المتواضع الذي يبدو أن أسامة يتردد عليه تذكرت المثل الدارج وهو : " للجــدران آذان " ، شعرت برهبة المكان وهيبتــه والجـو الغريــب الــذي يلفنا من وقت دخولنا إلـى خروجنـا ، لا أدري سـببه ، ففـي أحيان كثيرة يعجـز المـرء عـن العثـور علـى كلمـات تناسـب المكان والزمان ، ولعل إحداها في حياتي هي تلـك الجلسـة في تلك الغرفة ، ففيها سـألتقي أول مطلـوب فـي العـالم تبحث عنه كل قوى الأرض الموالية والخائفة والمرعوبة من أميركا ، فإن كان للمكان عبقرية أو رهبـة فهـذا الـبيت قـد يكون بالتأكيد أحدها .

كان كل جدار يحكي قصة من قصص ابن لادن التي سجلها ؛ ولكن هل للجدران لسان أيضاً ؟ حاولت استنطاق الجدران ؛ ولكن يبدو عبثاً ، ولكن لعلـي أحصـل علـى شـيء مـن وراء

عملية الاستنطاق فكل جدار يحكي قصص لقاءات ولقـاءات لبن لادن وأتباعه ومضـيفيه مـن حركـة طالبـان الأفغانيـة ، ولطالما حلمت أميركـا أن تعـرف مـا يـدور فـي هـذا الـبيت المتواضع ، ولطالما سعت أن تضع جهازاً أو قريباً منـه فـي هذه الجـدران البسـيطة ولكـن يبـدو عبثـاً ، كـانت الجـدران تحكي قصة ذلك الشاب السعودي الثري من عائلـة محترمـة ومعروفة أشرفت على توسعة الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنـورة ، كنـت أصـغي باهتمـام لكـل مـا يهمس به هذا الجدار أو ذاك في أذني عن الساعات الطوال التي ركن ابن لادن ورفاقه وأتباعه إليها ، وربما هنـا جـرت التخطيطات لعواصف النار التي انصبت على أميركا ، والتي كانت إيذاناً بمرحلة جديدة فـي العـالم ، وظهـر مبـدأ بـوش على إثرها " إما معنا أو مع الإرهاب ."

كنت أنتظر أي إشارة أو تلميحة أو همس من هذا الجــدار أو ذاك لعلها تفك لـي ألغـازاً وأحـاجي وأشـياء وأشـياء طالمـا بقيت عصية على فهم هذا التنظيم المعقد والذي أخذ علـى عاتقه مناهضة أقوى قوى الأرض فـي هـذا الزمـان ، ولكـن لغز التنظيم وأحجيته لـم تكـن بأقـل مـن لغـز وصـمت هـذه الجدران ، وكأن التنظيم علمها هذه المهنـة ، وغـدا التنـاغم

حتى بين الأشـخاص والمكـان ، والرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم القائل حين وقف على جبل أحـد : " هـذا جبـل يحبنـا ونحبه " فهل وصل الحب حتى بين القاعـدة وأسـامة وبيـن جدران هذا الـبيت ليخفـي عنـه الأسـرار والقصـص المـثيرة التي ينتظرها كل فضولي مثلي .

تثميـن لـدور العلمـاء والشـارع العربي :

بدأ ابن لادن حـديثه بتثميـن موقـف العلمـاء خصوصـاً الذين أفتوا بمقاطعة البضائع الأميركية على خلفيـة الـدعم الأميركي اللامحدود لليهـود فـي فلسـطين ، خصوصـاً و أن الانتفاضة كانت فـي أوجّهـا ، وذكـر أسـامة فتـوى الـدكتور يوسف القرضـاوي فـي هـذا الصـدد داعيـاً إلـى تفعيـل دور وأهمية الفتوى في عالم المسلمين ، خصوصـاً وهـم الـذين يتعرضون للقتـل والتعـذيب فـي كـل أرجـاء الأرض وبشـكل يومي على حسب قوله . كان يدعم رأيه أو يفصل له أكـثر ، أو يعلـق حسـب المقـام أبـو حفـص المصـري ، والـذي كـان

وحيداً في الجلسة معنا ، فلم يجلس أيمن الظواهري الذي اعتكف ساعتها في بيته ، وربما كان منهمكاً في موضوع يخصه ، ولربما لم يكن راغباً في الاقتراب من صحافي كمثلي .

رأيت أبا حفص المصري في الجلسة شاباً طويلاً ربما يتجاوز طوله المائة و التسعين سنتيمتراً أقرب إلى السمرة وشعر خضبه البياض سعى إلى صبغه بالحناء مع لحية طويلة بأكثر من مقبض اليد ولباس أفغاني أبيض مع عمامة بيضاء طالبانية وهي علامة مسجلة لأفراد القاعدة الذين حرصوا على إرضاء مضيفيهم الطالبان الذين يرون في العمامة على كونها رمز تنظيمهم .

عرّج أسامة على الشارع العربي والإسلامي الذي تفاعل مع الانتفاضة الفلسطينية ، مشدداً على أن " هذا الشارع لو انتفض لصالح قضية شيوعية أو علمانية لتم استغلاله بطريقة ذكية جداً من قبل أصحاب تلك القضية ، ولتمكنوا من الوصول السلطة ، ولكن للأسف فإن الإسلاميين لم ينجحوا في استثمار هبة الشارع الذي خرج منادياً بهم وشاجباً لمواقف الحكومات الغربية والعربية ، وبالتالي أضاعت الحركات الإسلامية فرصة لا تفوّت للوصول إلى

الحكم لتطبيق شرع الله الذي طالما حلمت به الشعوب ونادت به السماء ."

وأضاف ابن لادن في حديثه :" باختصار لقد أدى الشارع العربي دوره وبامتياز ، ولكن أين من يحرك وينظم ويرفع الوتيرة ، ويستغل الحدث بما يخدم الإسلام وأهله ؟!! "

وأكد ابن لادن على دور الإعلام خصوصاً الفضائي منه لشغف الجماهير والشعوب به ، وهو الذي ينقل لغة الجسم قبل لغة اللسان ، وهي الأهم في كثير من الأحوال لتفعيل دور الشارع العربي و الضغط على الحكومات من أجل تخفيف اعتمادها على الولايات المتحدة الأميركية ، والركون إلى الله تعالى ،ثم إلى الشعوب التي هي الرصيد الحقيقي في وقت السلم والرخاء و الشدة ، لكنه رأى أن الإعلام يحاول طمس كثير من الحقائق على رأسها حملات التشويه للحركات الإسلامية خصوصاً الجهادية منها في فلسطين .

وتطرق أسامة إلى ضرورة توحيد العمل الإسلامي مشيراً إلى كتاب سيصدر قريباً وسيقدم له ، وحين راجعت مقدمة ذلك الكتاب والذي هو بعنوان : " العمل الإسلامي بين

دواعي الاجتماع و دعاة النزاع " و لم يشر إلى مؤلفه إلاّ بالقول : " إعداد مركز الدراسات و البحوث في باكستان ، تقديم الشيخ أسامة بن لادن ."

و يبدو أن المركز ليس له وجود ، و يتحدث أسامة في المقدمة عن أهمية هذا الموضوع بعد أن شاع الخلاف بين الإسلاميين و كأنه القاسم المشترك بينهم إذ يقول : " .. و لكن ما يدعو للدهشة و يصيب بالذهول هو ما يلحظه المسلم اليوم من حجم الخلافات و الفرقة بين المسلمين عموماً و بين العاملين للإسلام بصورة أخص ، حتى أصبحت هذه الظاهرة الخطيرة تكاد تكون موضوع الإجماع و الاتفاق الوحيد بين فصائل العمل الإسلامي المختلفة !! ."

و يدعو أسامة في نهاية مقدمة الكتاب التي لم تتجاوز الثماني صفحات من القطع الصغير إلى التعامل الإيجابي مع هذا الطرح . و يقع الكتاب بالأصل في 145 صفحة من القطع الصغير ، تحدث فيه المؤلف عن الساحة الإسلامية و واقعها و الخلافات التي تعيشها ، ثم تطرق إلى ضوابط المنهج المطلوب ، و حددها بتسعة ضوابط ، ثم تحدث عن المعالم العامة لإطار التعاون بين العاملين للإسلام ، و ذكر ثلاثة معالم حسب رأيه ، و هي الوحدة في الأصول ، و

التعــدد فــي تكامــل لا تعــارض ، و ضــبط الخلاف بمنهــج السلف ."

وعلمــت فيمــا بعــد أن الكتــاب مــن تــأليف " أبــو حفــص الموريتاني " الذي يعد أحد الشخصيات القيادية فـي تنظيـم القاعدة ، والـذي كـان يـدير معهـداً للدراسـات العربيـة فـي قندهار ، ويحظى بعلاقات وطيـدة مـع قـادة حركـة طالبـان خصوصاً وأنه درس المذهب الحنفي فـي بلـده علـى أصـوله وهو ما يريح الطالبان الذين يتمذهبون على نفس المذهب ، الذي يدين به الشعب الأفغاني بشكل عام .

ويعتقد أسامة كما دونت في مفكرتي بعد لقـائي معـه بـأن الإســلاميين أحــد جنــاحين : " إمــا مســلمون عــاجزون لا يعرفـون مـن أيـن يبـدؤون ، وإمـا مسـلمون فقـدوا الثقـة بأنفسهم ، وبالتالي لا بد من إعـادة الثقـة إلـى نفوسـهم ، وقد أثبتت الأحداث الأخيـرة فـي انتفاضـة الشـارع العربـي الفارق الزمني و القياسي بين الشـارع العربـي والحركـات الإسلامية ."

تداعيات ما بعد يو اس كول :

كانت عملية المدمرة الأميركية يو إس كول في ميناء عدن حديثة ، والكل في أفغانستان يتحدث عن دور القاعـدة في العمليـة ، وبالتـالي كـانت الأجـواء كلهـا بانتظـار قيـام الولايات المتحدة الأميركيـة بتـوجيه ضـربة إلـى أفغانسـتان لرد كبريائها الذي تمرغ في ميناء عـدن حسـب قـول الكـثير من المرافقين لبن لادن . ألمح الأخير في حديثه إلـي الـذي لم أسجله للأسف لأنـه لـم يكـن مسـموحاً لـي بـذلك ولكـن سجلت بعـض نقـاطه بعـد نهايـة اللقـاء فـي مفكرتـي إلـى مسـئوليته علـى ضـرب البـاخرة ، وتوقـع أن يكـون ثمـة رد أميركي على غـرار مـا فعلـت واشـنطن فـي خلال الضـربة الأولى في العام 1998 لأفغانستان ، وذلك بعـد تفجيـرات السفارتين الأميركيتين في أفريقيـا الوسـطى . وقـال لـي حينها : " نحن نتوقع أن يكون الرد الأميركي فـي نوفمـبر " كانون ثاني " من العام 2001 " ولكن ذلك لـم يحصـل إذ أن أميركا كانت تحضر لضربة أكبر من ذلك ، بحيث تقوم بحشد قوى عالمية معها مصطفة خلفها لتحشر القاعدة في زاوية ضيقة ، إذ أنها تود تجسيد الشر كلـه فـي القاعـدة وأسـامة بن لادن وبضع أفراد من الأفغان العرب .

وقال ابن لادن في لقائه آنـذاك :" لقـد سـجدت شـكراً للـه على هذه العملية البطولية الـتي دمـرت الهيبـة الأميركيـة ، وهي إشعار للأميركيين بـأن عليهـم الرحيـل مـن المنطقـة العربيــة و الجزيــرة العربيــة حصــراً كمــا حضــنا علــى ذلــك الرسول عليه أفضـل الصـلاة والسـلام فـي آخـر أيـامه بـأن أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب ."

ودعــا ابــن لادن خلال الحــوار إلــى مواصــلة ــ مــا وصــفه ــ بالضربات الجهادية ضد القـوات الأميركيـة مـن أجـل إعـادة الثقة بـالنفس للأمـة الإسـلامية الـتي ضـربت منـذ سـنوات طويلة في ثقتها وإمكانياتها ، وكذلك هـز الهيبـة الأميركيـة التي تعجرفت وتكبرت واغترت طـوال السـنوات الماضـية ، إن مسألة إعادة الثقة بالنفس للأمة الإسـلامية واسـتنهاض هممها مسألة فـي غايـة الأهميـة هـذه الأيـام ." هكـذا قـال لي .

أبو حفص المصري معروف كما ذكرت بهدوئه وتركيـزه فـي الحديث ، وحين يتكلم تحس بأنه يقذف بكل كلمة مــن فيــه بعد تفكير وتأمل واستعداد للدفاع عنهـا كـونه واثـق منهـا ، ولكن لا تشعر أنه معتد برأيه ، أو من الصعوبة بمكـان تغييـر موقفه ، حدد أبو حفص المصري رؤيته لمسـتقبل الضـربات

الأميركية على الشكل التالي : " ستكون ضربات على غـرار كوســوفو وصــربيا وســيتم حشــد القــوى العالميــة ضــد أفغانســتان ، وسيتواصـل الضـرب لفـترة ليســت قصـيرة وستســتخدم أميركـا قواعـد جويـة فـي دول وســط آســيا وتحديداً في أوزبكستان وطاجيكستان حصراً وربما باكستان ، ولا نستبعد أن تعمـد روسـيا إلـى دعـم قـوات أحمـد شـاه مسعود ماليـاً وتسـليحياً وبشـرياً مـن أجـل السـيطرة علـى مناطق طالبان ." ولكن كل هذا لم يكن يعني أسـامة أو أبـو حفص المصري شيئاً ، إذ شدد كـل منهمـا علـى أن التجربـة الصومالية قاتلة للأميركيين ، وبالتالي كانت القاعدة تنتظـر وصول القوات الأميركية في أفغانستان لتقاتلها على غرار ما فعله الأفغان العـرب فـي قتـالهم ضـد السـوفييت خلال فترة الجهاد الأفغاني ، ولكن ربما ما غاب عن ذهن كلاً مــن أسـامة وأبـو حفـص المصـري هـو المثـال الأميركـي الـذي وضعوه نصـب أعيـن العـالم جميعـاً وهـو" مثـال كـارزي "، بالإضافة إلى الطريقة التي تعامل بهـا الأفغـان مـع العـرب مــن لهــث وراء الأمــوال وانهيــار ســريع لحركــة طالبــان الأفغانية ، وإن كان الكثير يشير إلى أن انهيـار طالبـان لـم

يكن مستبعداً ، ولكن ربما كانت المفاجأة هو سرعة الانهيار .

أسامة بن لادن كان يتكلم بكل فخر عن تجربة " المجاهـدين العرب في الصومال و استبسـالهم ضـد القـوات الأميركيـة التي أرغمـت بعـد أيـام علـى الرحيـل مـن الصـومال تاركـة عملية الأمل التي جاءت من أجلها بدون أمل ".

وبدأ يتحدث ابن لادن عن رأيه في أن القوات الأميركية لــن تخــرج مــن المنطقــة العربيــة مســتدلاً ببعـض التصــريحات الأميركية والتي يقول بـأنه سيضـمنها فـي مقدمـة كتـاب " القــول المختــار فــي حكــم الاســتعانة بالكفــار " للشــيخ السعودي الراحل حمود بن عقلاء الشـعيبي " و الـذي يقـع في 165 صفحة و نشرته حسب الكتاب دار الصـحوة للنشـر و التوزيع في بيروت – لبنان . والمقدمة التي استغرقت 22 صفحة ، وهنا أجدني أعـود إلـى مقدمـة الكتـاب كـوني لـم أسـجل كـل كلمـة تفـوه بهـا أسـامة سـوى بعـض النقـاط الرئيسية ، وبعد أن يتحدث في المقدمة عن أهمية الكتاب و نقده للوجود الأميركي في المنطقة العربية يجزم ابن لادن أن هــذه القــوات جــاءت لتبقــى ، نــاقلاً تصــريحاً لأحــد المسئولين بثته هيئة الإذاعة البريطانية يوم 7- 11- 1418

هـ " إن الأميركيين و البريطانيين لو قيل لهـم أخرجـوا مـن الجزيرة لا يخرجون ."

كما نقل في المقدمة عن إمام الحـرم النبـوي الشـيخ علـي بن عبد الرحمن الحذيفي في إحدى خطبـه قـوله : " و فـي الآونـة الأخيـرة صـار اليهـود و النصـارى يختلقـون مشـاكل للمنطقـة ، و يتـذرعون بهـا للتواجـد العسـكري ، و بعـد أن تمهدت الأسـباب للـدول الكـبرى صـاروا يفتعلـون الأحـداث الصورية للتدخل العسكري بعد أن تدخلوا اقتصادياً ."

ثم يقتبس الكثير من النقولات للرئيـس الأميركـي ريتشـارد نيكسون ، و كذلك الشـيخ سـفر الحـوالي وغيرهمـا للتأكيـد علـى أهميـة المنطقـة الخليجيـة فـي منظـار السياسـة الأميركية . لكن مع هذا كلـه يبـدو لـي أن أسـامة والقاعـدة بشـكل عـام اسـتعدت للأسـوأ فـي الضـربات الغربيـة و الأميركية على أفغانستان ، وهذا ما مكنها من تحاشي قتـل أو القبـض علـى أحـد مـن قيادتهـا أو قاعـدتها الفـاعلين والنشـطين رغـم انهيـار حركـة طالبـان الأفغانيـة ، ومـن السخرية بمكان أن يتم القبـض علـى بعـض قـادة الطالبـان في الوقت الذي ينعـم قـادة القاعـدة بالحريـة و الاختفـاء ، ويظهر أن ما نشرته النيويورك تايمز في أوائل شهر فبراير

" شباط " من العام 2002 وأعـادت نشـره الشـرق الأوسـط اللندنيـة ربمـا يكـون مـن الصـواب حيـن تقـول سـيثبت المستقبل أن معركة طوره بوره مـا هـي إلا عمليـة تضـليل لقوات القاعدة التي كانت في مكـان آخـر غيـر جلال آبـاد ، وعلمـت لاحقـاً مـن أحـد الأفغـان العـرب الـذي تمكـن مـن الخروج من أفغانستان بأن الذين تم القبض عليهم من قبل القوات الأميركيـة فـي باكسـتان أو داخـل أفغانسـتان وتـم نقلهم إلـى غوانتانـاموا كـان تقـديراً خاطئـاً مـن قبـل ابـن الشـيخ الليـبي والموريتـاني الأصـل ، فقـد رفـض مسـاعدة قبائل أفغانية رتبت للانسحاب بشكل آمن من طوره بـوره ، لكنه غير رأيه في اللحظات الأخيرة واستمع لنصـيحة بعـض القبائـل الباكسـتانية ، و انسـحب معهـا وهـي الـتي قـامت بتسليمه للقوات الباكستانية ومنها إلى القوات الأميركيـة ، رغم أن هذه القبائل أقسمت على القرآن الكريـم أنهـا لـن تخـذلهم ، وعلـى هـذا فلـم يكـن هنـاك أي فضـل للقـوات الأميركية في القبض على هؤلاء ، ونفـى المصـدر بقـوة أن يكون أصلاً ابن الشيخ من قادة أو حتى أتباع القاعدة ، وإنما كان كل عملـه هـو تـدريب كـل مـن يرغـب بالتـدريب بغـض النظر عن انتمائه الحزبي .

وقد سمعت من هذا المصدر كلاماً ربما يكون من المناسب تسجيله في هذا المكان بالذات إذ قال : " نحن لم نعد نقبل أن نكون ضيوفاً على الأفغان ، فقد مضى على وجودنا في أفغانستان أكثر من عقدين من الزمن ، وبالتالي فنحن من أهل البيت ، خصوصاً بعد أن احتلت القوات الصليبية الأميركية أفغانستان ، وهذا يحتم علينا أن نقوم بتحريرها والدفاع عنها أمام هذه القوات ، إذ أن الجهاد أصبح متعيناً على كل مسلم في الأرض ."

الخروج من السودان والاتصال بطالبان :

حين بدأ أبو عبد الله الحديث عن ذكريات الماضي خلال فترة الجهاد الأفغاني نظر إلي متأملاً ومستذكراً أيام بيشاور ، وسأل هل التقينا من قبل ؟ قلت بكل تأكيد في منطقة حياة آباد في بيشاور ، حين كنت تسكن في منطقة فيز أربعة ، وأجريت معك حواراً كانت حينها معركة جلال آباد على أشدها ، ومساعيك للتوسط بين القادة الأفغان ،

ولكن الحوار يومها لم ينشر بناءً على رغبتك ! فتذكر الرجل وقال نعم هذا صحيح كنت أسمع عنك وأقرأ مقالاتك ولعلنا نتمكن من إجراء حوار معك ؛ ولكن كما تعرف فإن الطلبة تحت الضغوط ولا يرغبون بمثل هذه اللقاء ، وإن كنا نتحدث في لقاء ليس للنشر الآن ، ولكن أعتقد حسب فهمي من حواري معه أنني تحللت من عدم النشر بعد زوال سببه الممثل برحيل حركة طالبان الأفغانية التي كانت تفرض على أسامة الحظر بسبب الضغوط الدولية والأميركية حصراً عليها ، والتي طالبتها بتسليمه فرفضت درءً للضربة الأميركية ، وعمدت الحركة إلى تقييد حركته ومنع نشاطه ، وإن كان ذلك لم يكن صحيحاً أبداً إلاّ ظاهرياً ، وإلاّ لو كان الأمر غير صالح للنشر فما الفائدة من لقائي وحديثه معي المطول هذا .

صمت أسامة برهة من الوقت ثم ابتلع ريقاً ، وطلب كوباً من الماء الذي يحرص على أن يكون أمامه أثناء الحديث ، وإن كان أتباعه لا يتركون الكأس فارغاً ما دام هو جالس ثم قال : " لقد عانى الشعب الأفغاني الكثير قبل ظهور طالبان والكل يعرف ماذا كانت تفعله أحزاب المجاهدين من فرض للإتاوات والخوّات ونحوها ، حتى قيض الله لهذا

الشعب كوكبة من طلبة العلم ، وهي التي أنقذته من العصابات المسلحة الذي كان أسيراً لها ، وكان لهذه الكوكبة أن رحبت بنا أيضاً بعد أن ضاقت بنا الأرض بما رحبت ."

كان أحد الشخصيات المصرية ويدعى أبو جهاد المصري ممن رافقوا أسامة في السودان ، ثم في رحلته إلى أفغانستان قد أبلغني بعد الحديث بالقول : " حين طلبت منا الحكومة السودانية مغادرة أراضيها جلبنا الخريطة لنبحث لنا عن مكان ما تحت الشمس ، وبتنا نتساءل هل هناك دولة معينة مستعدة لاستضافتنا ، وبينما كان الجميع غارق في البحث عن مأوى لمعت فكرة لدى أحد الأخوة وهي العودة إلى أفغانستان التي لدينا فيها ذكريات ومؤيدون ، وقد استثمرنا فيها الكثير من الدماء دون أن نستفيد منها ، ووافق الجميع على الفور على ذلك ." وكانت مصادر أفغانية في جلال آباد حدثتني أن عدة زيارات إلى السودان قام بها القائد الميداني الراحل فضل الحق مجاهد التابع للحزب الإسلامي بزعامة قلب الدين حكمتيار ، والذي كان يحظى بوجود قوي في جلال آباد ، إلى جانب المهندس محمود وسازنور حيث كان ابن لادن يحظى

بعلاقات وطيدة معهما أيضـاً ، منـذ أيـام الجهـاد الأفغـاني ، فقد سعى بعد سقوط النظام الشيوعي الأفغاني إلى تعبيد جزء من الطريق الرئيسـي لهـم بيـن طـورخم وجلال آبـاد ، وكـذلك إلـى إصـلاح مطـار جلال آبـاد ، وتقـول المصـادر الأفغانية نفسها بأن فضل الحق تمكـن مـن إقنـاع وترتيـب عودة أسامة بـن لادن ، كـان وجـود حركـة طالبـان حينـذاك يقتصر على مناطق جنوب غرب أفغانستان ، وحسب روايـة أسامة في حديثه ذلك اليوم لي فإن : " الأخوة الـذين معـي لم يكونوا يعرفون أحـداً مـن الأخـوة الطلبـة الـذين ظهـروا بينما كنـا فـ ي السـودان ، إذ أن معظـم المجاهـدين العـرب قاتلوا في منـاطق الجنـوب الشـرقي والوسـط والشـمال ، وليس هنـاك أخـوة عـرب كـثر قـاتلوا فـي منـاطق الجنـوب الغربي حيث ظهرت طالبان ، ولم نكن نعرف على كل حـال سوى القائد إحسان اللـه الـذي تسـلم لفـترة رئيـس البنـك الأفغاني في كابول ، ثم قتل في مزار الشريف في معركة وقعت كما هـو معـروف مـع المليشـيات الأوزبكيـة بزعامـة الجنـرال عبـد المالـك ، الـذي انقلـب علـى الطلبـة بعـد أن تحالف معها ."

ولكن يبدو أن القيـادات الأفغانيـة الميدانيـة فـي جلال آبـاد شـرقي أفغانسـتان الـتي اسـتقبلته حينـذاك ، والـتي كـان يحظى معها بعلاقات وثيقة للغاية كـانت تحضـر للاستسـلام لقوات طالبان ، ولم تشأ القتال ضد طالبان خصوصـاً وهـي الـتي وقفـت علـى الحيـاد طـوال الصـراع الأفغـاني بيـن حكمتيار ورباني ، وكـانت منطقتهـم مـأوى للطرفيـن خلال أشد المعارك الواقعة بينهما ، ولكن الغريـب أن جميـع هـذه القيادات الميدانية التي دعت ورحبت بأسـامة بـن لادن فـي ولايتهـا وسـلمت بعـدها المدينـة لطالبـان بعـد أن ربطتـه بـالأخيرة حسـب روايـة أسـامة نفسـه قتلـت فـي ظـروف غامضة إثر إخلاء المدينة من قبل طالبان ، حيث قتلـوا فـي كمين نصـب إليهـم قـرب الحـدود الباكسـتانية خلال عمليـة مغادرة المدينة وتركها لطالبان ، وإن كانت الأصابع اتجهـت يومها إلـى باكسـتان خشـية أن تنقلـب هـذه القيـادات ضـد طالبـان فـي وقـت مـن الأوقـات ، وهـو مـا يهـدد حليـف باكسـتان الاسـتراتيجي طالبـان آنـذاك . إذ كـانت باكسـتان تخشى أن تعود الحمية لهذه القيادات الميدانية الـتي فجـأة فقدت كل امتيازاتهـا لصـالح طلاب علـم جـدد ليـس لـديهم

نفـوذ أو تـأثير شـعبي ، ولا رؤيـة إداريـة أو سياسـية لإدارة الأمور في بلد شديد التعقيد في كل شيء .

شـدد ابـن لادن فـي حـواره معـي علـى أن قنـاة الاتصـال الحقيقية كانت الشيخ يونس خالص زعيم الحزب الإسـلامي وهو من المولويين المحسوبين على نفس الاتجـاه الفكـري لطالبـان ، خصوصـاً وأن الملا عمـر كـان مـن أتبـاع الشـيخ يونس خالص ، وهو ما سيوفر غطاءً قويـاً لوجـود ابـن لادن في أفغانستان طالبان ، فـإلى جـانب خـالص هنـاك الشـيخ مولوي محمد نبي محمدي فقط الذي يحظـى بتلـك العلاقـة القوية مع طالبان نظراً إلى المزاج المولوي الـذي يتشـاطر فيه مع الحركة ، بينما الأمـر يختلـف فـي وضـعية القيـادات الأفغانية الأخـرى مثـل حكمتيـار وربـاني وسـياف وغيرهـم ممن لم يكونوا من نفس المدرسة المولوية.

وظهر من خلال الحديث أن ابن لادن غيـر متفـق تمامـاً مـع طالبان بخصوص إدارة البلاد ، إذ أنه كـان يطمـح منهـا فـي توسـيع قاعـدة مشـاركتها السياسـية خصوصـاً فـي ضـم شخصـيات مثـل حكمتيـار الـذي يحظـى بشـعبية فـي داخـل أفغانستان وكذلك لخبرته السياسـية وعلاقـاته الإسـلامية و الدولية المتشعبة منـذ أيـام الجهـاد الأفغـاني . وأبـدى ابـن

لادن في خلال اللقاء تبرماً من طالبان لعدم توسيع قاعدتها الحكمية ، خصوصاً في إشراك بعض الشخصيات الأفغانية من إعلامية وقانونية وغيرها من كافة التخصصات ممن يوثق بدينهم وكفاءتهم ، لكن للأسف لم تفعل ذلك ، هكذا قال ابن لادن ، وكان على ما يبدو والكثير من أتباعه الذين قاتل البعض منهم في صفوف الحزب الإسلامي بزعامة قلب الدين حكمتيار ضد أحمد شاه مسعود ينتظرون أن يتم اتحاد أو انضمام حكمتيار إلى طالبان ، وهو ما سيعزز من مكانتهم في أفغانستان نظراً إلى العلاقة الوطيدة السابقة التي كانت تربط بين حكمتيار وأسامة بن لادن ، بالإضافة إلى أتباعه الذين انضموا إلى طالبان بعد سقوط حكمتيار ، وفضلاً عن ذلك كله القرب المزاجي والفكري بين الطرفين .

لكن طالبان لم تكن ترغب بذلك أبداً ، ويبدو أن ذلك كله مرده إلى عقد فكرية وشخصية بين المدرستين ، بالإضافة إلى الخشية من أن يتم سحب البساط من تحت أقدامها على يد حكمتيار ، ورغم كل المحاولات الدؤوبة لابن لادن حسب ما علمت أثناء فترة القصف الأميركي إلاّ أن طالبان ركبت رأسها ورفضت التعاون مع أحد بما فيهم حكمتيار

الذي ساندها خلال فترة القصف الأميركي عليهـا ، واسـتعد فـي كـثير مـن المناسـبات الـتي ظهـر فيهـا علـى وسـائل الإعلام إلى التعاون معها ، وأرسـل موفـديه ومنـدوبيه إلـى كابول لكن دون جدوى .

وتأثراً بنظريـة المخلـص أو المنقـذ والمجـدد الـذي ينتظـره كثير من المسلمين الحركيين ، ويسـكن فـي جوانـح قلـوب الكـثير مـن المسـلمين العـاديين ، فقـدعوّل البعـض مـن المسـلمين الباكسـتانيين وغيـر الباكسـتانيين كـثيراً علـى أسامة بن لادن ضاربين مثـال صـلاح الـدين الأيـوبي وغيـره الذي غير وجه العالم الإسلامي حينهـا ، خصوصـاً وأن عصـر صلاح الدين الـذي أطلـق عليـه " العصـر الصـلاحي " سـبقه ظهور وتنامي دور المـدارس الدينيـة الـتي لعبـت دوراً فـي ذلك التغيير الذي شهده العالم الإسلامي ، وهو ما تكرر في تجربة حركة طالبان التي خرجـت مـن رحـم هـذه المـدارس الدينية ، وقد لمست ظاهرة أسامة حين وصلت إلى منطقة القبائل الباكستانية لتغطية التفاعل الباكستاني مع القصف الأميركي علـى طالبـان ، فقـد رأيـت الكـثير مـن الحـوانيت والصيدليات والأماكن قد أطلق عليها اسم أسامة بن لادن ، وسمى الكثير أبنائه أسامة ، وكأنه المنتظر والمخلص لهـذه

الأمة ، ولعله تأثراً أو استنساخاً لفكرة هذا المخلص الذي يسكن في قلوب الكثير من المسلمين ، كان أسامة مقتنعاً ربما بالملا عمر أكثر من الطالبان كحركة ، وهو ما يلمسه كل من يتعاون مع الأفغان إذ أن كثيراً من الأفغان العرب الذين قاتلوا في صفوف الأفغان كانوا مقتنعين بزعيم الحزب أكثر من الحزب كحزب ، ولعل هذا ما حال دون حصول أميركا أو غيرها على معلومات دقيقة عن ابن لادن الذي يدرك تغير الولاءات في أفغانستان وشراء الذمم ، ولذا لم يكن له أن يعطي أسراره أو معلومات مهمة وحتى مكان تواجده لأفغاني مهما علا شأنه ، ربما غير زعيم الحركة وربما في حدود ضيقة أيضاً .

وتأكيداً على هذا فقد رأيت كل الأفغان العرب الذين يريدون حتى بعض الأمور التي ربما قد تبدو عادية يحرصون على الحديث مباشرة إلى الزعيم الأفغاني الأول وبشكل مباشر دون حجاب أو وسيط أو حضور أحد خشية من تسرب المعلومة ، وهو ربما ما طبقه ابن لادن وجماعته بامتياز خلال تواجدهم بين ظهراني حركة طالبان .

كان حديث أبو عبد الله باللغة العربية السليمة ، يسعى جاهداً إلى الوقوف عند الفاصلة والنقطة ، ومعطياً

لإشارات التعجب والاستفهام حقها ، لعل أبا عبد اللــه أدرك من قسمات وجهي وأنا الـذي تـابعت الشـأن الأفغـاني مـن أوله وأدرك أنه وأمثاله من العرب لم يكونوا على قـرب مـن التقليديين الأفغـان وحصـروا معظـم روابطهـم وعلاقـاتهم طـوال فـترة الجهـاد مـع الحركييـن الأفغـان ؛ فتحـدث فـي البداية عن تفسـيره لظهـور حركـة طالبـان وسـرعة انهيـار القيادات الأفغانية الـتي كـانت تملأ الـدنيا ، وتشـغل النـاس ليس في أفغانستان فحسب ، وإنمـا فـي العـالم الإسـلامي وغير الإسلامي ، ولم ينس السـبب الـذي دفعـه إلـى تأييـد الحركة ، ومما قاله حسب الذاكرة : " ما ردده الكثيرون مـن الأخوة في أن طالبان عميلة للباكستان لا أعتقد أنه دقيق ، و إن كنــت لا أشــك فــي أن الحركــة تتلقــى دعمــاً مــن باكستان ، فثمة تقـاطع مصـالح بيـن الطرفيـن ، لقـد تعـب الشعب الأفغـاني وسـئم القتـال وفقـدان الأمـن والفلتـان الذي تفشى في المدن ، وبالتالي ما حصل هو عملية سحب داخلـي أكـثر ممـا هـو دفـع خـارجي ، فباكسـتان عمقهـا الاستراتيجي العرضي ضيق إذ لا يتعدى الأربعمائة كيلومتر ، وهي بحاجة إلى عمق مثل أفغانستان يضاف إليها في حـال اندلاع أي مواجهة مع العدوة الهنـد ، وقـد تمكنـت باكسـتان

عبر استيلاء طالبان على الولايات المحاذية لها من تأمين حدودها وغابت التفجيرات التي كانت أشبه ما تكون روتينية في المدن الباكستانية الرئيسية ، والتي عادة ما تسبب زهق المئات من الأرواح ."

وسألت أسامة : ولكن ما صحة ما قيل عن عمالة طالبان لأميركا والاتهامات التي ساقها في البداية بعض قادة المجاهدين الأفغان ومنهم زعيم الحزب الإسلامي قلب الدين حكمتيار ؟ فقال : " كانت واشنطن تراهن في البداية على فشل طالبان في إقامة الدولة الإسلامية ، وأنها ستنهار من الداخل ، وتندلع اشتباكات في صفوفها ، وهو ما سيمهد الطريق إلى الحل غير الإسلامي ، أي الحل العلماني برئاسة الملك السابق ظاهر شاه ، وذلك على غرار ما حصل مع فصائل المجاهدين في كابول بعد وصولهم إلى السلطة فاقتتلوا عليها ، ولكن الظن الأميركي خاب وتمكنت طالبان من إحباط المخطط الأميركي بل والوقوف والصمود في وجهه ."

ويبدو أن واشنطن ازداد حنقها وغضبها على الحركة التي لم تصمد في وجه العقوبات الأميركية التي فرضتها عليها لإيوائها ابن لادن فقط ؛ وإنما تمكنت حتى من تحقيق

انتصـارات عسـكرية لافتـة ضـد المعارضـة الأفغانيـة فـي الشمال ، إذ توقع الكثير من المحللين حينذاك أن تؤدي هذه العقوبات الاقتصادية وغير الاقتصادية إلى انهيـار طالبـان ، أو علـى الأقـل إلـى اجتيـاح المعارضـة لكـثير مـن منـاطق الحركة خصوصاً في منطقة الشمال الـتي تتشـاطر وقـوات التحالف الشمالي عرقيـة ولغـة واحـدة ولكـن كـل هـذا لـم يحصل .

وحسب بعض الأفغان العرب المقربين مـن أسـامة فـإن مـا ساعدهم هـو وجـود مجموعـة نصـر اللـه منصـور مـع حركـة طالبـان ، خصوصـاً وأن هـذه المجموعـة كـانت قويـة فـي الشرق الأفغاني ، وتحديداً في منطقة ظلمت حيـث يقـال : إن قوات القاعدة انحازت إليها بعـد سـقوط منطقـة طـوره بوره في جلال آباد ، وباعتبار أن كثيراً مـن الأفغـان العـرب كانوا يقاتلون خلال فترة الجهاد الأفغاني في تلك المنطقة قد نسـجوا علاقـات قويـة مـع أهـالي ومقـاتلي المنطقـة ، الأمر الذي سهل لهم مواصـلة العلاقـة مـع طالبـان ، وكـان نصر الله منصور العالم التقليدي الأفغاني والذي قاد حركـة الانقلاب الإسلامي معـروف عنـه قربـه مـن إيـران ، إلاّ أنـه قتـل فـي ظ روف غامضـة ف ي العـام 1994 واتهـم أتبـاعه

يومها زعيم الحزب الإسلامي قلب الدين حكمتيار بالوقوف خلف قتله ، وهو ما سبب عقدة لدى أتباع منصور لاحقاً ، إذ لعبوا الدور الأساسي في إبعاد أي تقارب بين طالبان وزعيم الحزب الإسلامي والذي استعد غير مرة للتعاون مع طالبان ، خصوصاً مع بدء الهجمات الأميركية على أفغانستان ، لكن الدفعة القوية التي حصل عليها الأفغان العرب وهو ما عزز حضورهم وشوكتهم في صفوف طالبان ، هو انضمام القائد البشتوني جلال الدين حقاني والذي يعد الجسر بين الحركيين والتقليديين الأفغان ، ومعلوم أن كثيراً من الأفغان العرب قاتلوا في صفوف حقاني إبّان فترة الجهاد ، وهو معروف لدى زعيم تنظيم القاعدة خصوصاً إذا عرف أن حقاني متزوج من يمنية وأسامة تعود أصوله إلى اليمن أيضاً ، وكذلك إحدى زوجاته منها .

لقاء عاصف بين الملا عمر والأمير تركي الفيصل :

بعد أن تحدث أسامة عن طالبان وتأييده لها لتطبيقها الشريعة الإسلامية في أفغانستان وتوفيرها الأمن والاستقرار وهو الذي كان بمثابة العنقاء في بلاد مزقتها الحروب ، حسب كلام أسامة فقد تفتت بعد سقوطها بأيدي المجاهدين الأفغان إثر انهيار نظام نجيب الله الشيوعي في نيسان من العام 1992 ، شدد على أن الطالبان لهم مواقف رجولة ولا يمكن أن يساوموا عليه ، وذكر بعض تفاصيل اللقاء الذي وصفه بـ " العاصف " بين رئيس المخابرات العامة السعودية السابق الأمير تركي الفيصل وزعيم حركة طالبان الأفغانية الملا محمد عمر ، ومما قاله أسامة في خلال الحديث : " بعد حادث تفجير السفارتين الأميركيتين في أفريقيا الوسطى في العام 1998 وصل الأمير تركي إلى أفغانستان ، والتقى زعيم حركة طالبان الملا محمد عمر ، وطالبه بتسليمي ، فرد الملا عمر بأن الضحايا في تفجيرات أفريقيا أميركيين وليسوا سعوديين ، والحادث وقع على أرض غير سعودية ، فليس هناك داع للتسليم أو الإبعاد ، وجاءني الطلبة ليدعوني إلى التوقف عن الحديث عن المملكة وقصر تصريحاتي على الأميركيين ، فذرفت دمعة ، وقلت بعدها للملا عمر بأننا

سنترك بلادكم ونتوجه إلى أرض الله الواسعة على أن نترك أولادنا وأزواجنا أمانة في أعناقكم ، ونحن سنبحث عن أرض تحمينا ، فرد الملا عمر وقال لم تصل الأمور إلى هذه الدرجة ، ثم اعتذر الطلبة عن ذلك وتركوني وشأني ."

وبعد اللقاء مع أسامة كان أبو حفص المصري قال لي : " إن الملا عمر يدرك أن بقاءه في السلطة مرهون بأسامة ، إذ أن مصدر شرعية حركة طالبان كما حددتها منذ البداية هي حماية أسامة بن لادن ، وتخليها عنه سيفتت الصف الطالباني ، على اعتبار أن كثيراً من القادة الميدانيين مرتبطين بأسامة ويقاتلون من أجله ، وإبعاد أسامة أو تسليمه سيعني أن طالبان رضخت للنصارى ، وهو مصطلح معروف تداعياته وأبعاده لطلبة المدارس الدينية الذين درسوا الكتب المدرسية القديمة ، ولم يطلعوا على السياسة وتشعباتها و الضغوط الدولية ."

ويشير أسامة في اللقاء أيضاً إلى أن المملكة "هددت الحركة بتسليم شؤون الحجيج إلى حكومة الرئيس الأفغاني المخلوع برهان الدين رباني في حال لم تسلمني إليها ، وهي قضية حساسة وسط الأفغان كونها تمثل الشرعية الشعبية التي تستند إليها الحكومات في أفغانستان ، ولكن

مع هـذا رفـض الطالبـان ذلـك ، ومـن بـاب أولـى يرفضـون الضغوط الأميركيـة ، لقـد كـان هـذا التهديـد مـن أخطـر مـا واجهه الطالبـان كـونه سـينزع الكـثير مـن شـرعيتهم أمـام البسطاء من الأفغان ."

كان الوفد السعودي برئاسـة الأميـر تركـي قـد وصـل علـى متن طائرة سعودية إلى قندهار ، إذ كـانت تتوقـع أن تقـوم طالبان بتسليمها أسامة بن لادن كما وعدتها ، وهو ما أكـده الأمير تركي لاحقاً ،غير أن طالبـان شـددت غيـر مـرة علـى أنها لن تقدم على تسليم أسامة بن لادن ، وإنما تـدعو إلـى محاكمة إسلامية أو تشكيل لجنـة مـن علمـاء ثلاث دول هـي أفغانستان والسعودية ودولة ثالثة ليصدروا حكمهـم بحقـه ، وفيما إذا كان مداناً أم لا ؟!

ابـــن لادن ينـــدم علـــى إعلان الجبهة العالمية :

الجبهة العالمية لقتـال اليهـود والنصـارى والـتي كـانت بضع تنظيمات عربية وباكستانية وبنغالية أعلنـت عنهـا فـي

مايو " أيار " من العام 1998 في مؤتمر صحافي عقــد فــي خوست شرقي أفغانستان ، بدا لي من لقائي من ابــن لادن الذي تطرق إليها أنها غدت عبئاً عليه وعلى من معـه ، وهـو ما اعترف لي به لي أبـو حفـص المصـري ، وقـال ابـن لادن بلهجة المتأثر والنادم على إعلانها : " لقد ظننا أنها ستكون نــواة للعمــل الجهــادي العــالمي ضــد اليهــود والنصــارى وخصوصاً الأميركيين ، وسـتدفع حركـات وجماعـات وأفـراد مسلمين إلى الالتحاق بهذه الحركة ، ولكن يبـدو أننـا بالغنـا في قدراتها وإمكانياتهـا ، وكـان مـن الأفضـل عـدم الإعلان عنها ، ولكن هذا ما حصل ."

ويستدرك ابن لادن فيقول لكن : " بعد إعلان الجبهـة جاءنـا الكثير من الشباب بهدف التدريب ، وخرج هؤلاء الشباب عن مشايخهم في الخليج العربي ، وبعد أن كان هـؤلاء التلاميـذ يرتبطون بشكل عضوي مع مشـايخهم فـي الماضـي بـدؤوا يرون أن التعلم وحده لا يكفي ، ولا بد من الإعـداد ، ويشـير ابن لادن إلى الشباب الذي بدا في العشرينيات وهـو يرغـب بالمجيء إلى أفغانستان دون أن تؤثر فيه الدعاية الإعلامية الغربية السيئة ضد المجاهدين الأفغان واقتتالهم الـداخلي ، وهو أمر بنظـري يقلـق الغـرب والأميركييـن ، الـذي يراهـم

وهم يدعمون حكومات ديكتاتورية تجثم على صدور شـعوبها لعقود بل وتورث أبنائها وأحفادها مقاليد الحكم " .

ويعزو ابن لادن سبب تمرد هـؤلاء الشـباب علـى مشـايخهم خصوصاً و أن الطلبـة أو المريـدين فـي المنطقـة الخليجيـة متأثرين جداً بمشايخهم ، ومطيعين لهم إلى إدراك " هــؤلاء الطلبة أن المشايخ ليس لـديهم برنامـج ولا مشـروع تحـرك ضـد مـا تتعـرض إليـه الأمـة الإسـلامية ، والـتي تذبـح الأمـة الإسلامية بشكل يـومي ، ولا جـواب لـدى هـؤلاء العلمـاء إلا الحوللـة والحوقلـة " أي لا حـول ولا قـوة إلا بـالله ، بينمـا الجهـاد الآن مـن آكـد فـروض الأعيـان ولا أحـد يسـتطيع أن يقول غير هذا . "

كان المؤتمر الصحافي الذي عقدته الجبهة في خوسـت قـد دعت إليه عدداً من الصحافيين الباكسـتانيين والأجـانب مـن أجـل تغطيـة وقـائعه ، لإيصـال وجهـة نظرهـا إلـى العـالم الإسلامي تحديداً ، إذ أن الحركات الجهادية ربما غيـر معنيـة كثيراً بإيصال رسالتها إلى الغرب ، وهي التي تقـاتله بالنـار كما يقاتلها بالنار ، عملاً بالمثل .

ويستذكر أسامة كرم الأفغان حال وصوله إلى أفغانستان ثانية ، وخصوصاً الشيخ يونس خالص ، ومساواة الأفغان العرب بالأفغان أنفسهم ، بعد أن عشنا في بلادهم لعقدين من الزمن فيقول أسامة : " ذهبت إلى الشيخ يونس خالص أطلب منه السماح لنا بعقد مؤتمر صحافي في خوست لإعلان بعض الأمور ، فرد علي ولماذا تستأذنني ، فهذا حقكم ."

ويستذكر ابن لادن ردود الفعل في الصف الإسلامي بعد الإعلان عن المنشور الأول والذي صدر في أغسطس " آب " من العام 1996 ، ومما جاء فيه على ما أذكر " أن جدران الظلم والإذلال لا يمكن تحطيمها بدون وابل من الطلقات والقذائف . " فيقول في خلال تلك الجلسة : " فاجأ ذلك الكثير من إخواننا واستغربوا لمواقفنا ، وربما فكروا أن إعلاننا هذا ضرباً من الجنون ، ولكن الحقيقة أن القوات الأميركية ينبغي أن ترحل من جزيرة العرب ، وهي وصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا أحد بمقدوره أن يغير وصية وحديث نبي عليه أفضل الصلاة والسلام ".

ويتابع ابن لادن فيقول : " لقد انتقدنا كثير من الأخوة على البيان الأول الذي أعلنا فيه الجهاد ، وبدؤوا يقولون بعد

اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية أين أنتم مما يجري في العالم الإسلامي وفي فلسطين تحديداً ، فسهل الله عملية عدن التي حطمت كبرياء العسكرية الأميركية وأغرقتها في البحر ، لكن سعى الأميركيون إلى سحب هذه الكبرياء لئلا يتحدث التاريخ أن كبريائهم غرق هناك ، وتبقى أثاره إلى الأجيال المقبلة لتحكي لهم قصة إمكانية مقاومة هؤلاء المتغطرسين والمتكبرين في هذه الأرض ."

وحرص ابن لادن في خلال الحوار على التأكيد على أن دوره ينحصر في " التحريض واستنهاض همم الأمة المختزنة ، والتي هي بحاجة إلى من يفجرها ، ويحدو لها طوال مسيرتها الظافرة إن شاء الله ."

لم يخف ابن لادن في هذا السياق الحديث عن تقصير الحركات الجهادية و المسلحة منها في " جسر الهوة مع المثقفين وأساتذة الجامعات وتوضيح رؤيتها للأحداث و للمستقبل لهذه الشريحة المهمة من الشارع العربي والإسلامي ، وهي التي تعمل على تشكيل وصوغ رأي الكثير من العامة و الخاصة ."

في هذا الوقت كان أبـو حفـص المصـري ينظـر إلـي وإلـى زعيمه أسامة وكأنه يستسمحه في الحديث ، فصمت الأخيـر ليعطيه الحديث وقال حينها أبو حفص : " نحـن نحـاول مـن طرفنا رغـم عزلتنـا عـن العـالم وعـدم الاحتكـاك معـه إلـى التواصل مع الإعلام العربي و الإسلامي ، ولكن للأسف كمـا تعرفـون فـإن الأخـوة الطلبـة فرضـوا علينـا بعـض القيـود حرمتنا من نعمـة التواصـل هـذه ، ولكـن نـدرك أهميـة ذلـك وسنعمل كل ما بوسعنا لتوضـيح وجهـة نظرنـا والاسـتفادة من أراء ونظرات وتجارب الآخرين ."

<u>حادث تفجير الفندق اليمني</u> :

يحرص أسامة بن لادن والمقربون منه خصوصاً مثل أبي حفص المصري على التحـدث بفخـر واعـتزاز علـى " تجربـة المجاهـدين العـرب فـي الصـومال ، وكيـف لعبـت الـدور الأساسي في إرغام القوات الأميركية على الرحيل منها " ، ويتمنون كمـا قـال أن تكـون نهايـة القـوات الأميركيـة فـي

أفغانستان كحالها في الصومال ، وهو ما سيسبب وضع نهاية للغطرسة والهيمنة الأميركية على العالم .

كان أحد الأفغان العرب قد روى لي قصة منام يتداوله الأفغان العرب لأبي حفص المصري ، وفحواه أنه رأى في منامه مرة أن بعض مساعديه يسرعون إلى غرفته ويخبروه أن رئيس الوزراء الصهيوني أريل شارون يريد مقابلته ومفاوضته ، في جو يشير إلى أن وضع الكيان الصهيوني في مأزق وأن المنتصر هي القاعدة ، ولكن أبو حفص كما يقول لقد ترددت كثيراً كيف ألتقي بشارون وأصافحه ، ومثل هذا المنام الذي كان أفراد القاعدة يتداولونه كان يمنحهم الكثير من الدعم المعنوي في إمكان الانتصار والفوز ، ومعروف أن قصة المنامات والأحلام تلعب دوراً مهماً في عقلية المسلمين والشرقيين بشكل عام ، خصوصاً وأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث بما معناه : " الرؤيا الصالحة جزء من واحد وأربعين جزءً من النبوة ."

وأعود إلى الحديث عن واقعة تفجير الفندق اليمني الذي كانت تتواجد فيه قوات أميركية ، تحدث ابن لادن بشيء من الفخر والاعتزاز فقال : " تنامى إلى سمعي أن أحد

المسؤولين في اليمن دعا إلى اجتماع لعدد من العلماء وقادة الحركات الإسلامية ، وسألهم عن حادثة تفجير الفندق ، فاستهجن الجميع العمل ودانوه ، فما كان من المسؤول اليمني إلاّ أن قال : ولكن الواقع ليس كذلك ، إذ لولا هذا الهجوم لكانت القوات الأميركية في شوارع اليمن واتخذت لها مراكز في البلاد ، وربما طال الأمر وتطور إلى إقامة دائمة ، لقد اتصل الأمين العام للأمم المتحدة الدكتور بطرس بطرس غالي بالرئيس علي عبد الله الصالح وأبلغه أن طائرات أميركية وعليها علم الأمم المتحدة ستصل بعد ثلاث ساعات إلى اليمن ، فهي في طريقها إليكم ، وهي تقل قوات أميركية وستتخذ من اليمن قاعدة خلفية لعملية إعادة الأمل التي يعتزم الأميركيون تنفيذها في الصومال فوافق الرئيس الذي لم يكن أمامه خيار آخر ، ولو لم تحصل هذه العملية في بلادنا التي أرغمت السلطات الأميركية على تعديل سياستها ومواقفها وتقرر الرحيل من اليمن لبقوا هنا ربما إلى ما لانهاية ، فهذه العملية هي التي أرغمتهم على الانسحاب من اليمن ."

هــــل هنـــــاك تنظيـــــم باســـــم القاعدة ؟

هذا التساؤل الذي وضعته عنواناً هـو كـان مـا يـثير شهيتي الصحافية ، فقد غطيت الأحداث الأفغانية في عزها أيام الجهاد الأفغاني ، ولم أعثر على ما يؤكد أو يشـير إلـى ذلك ، حيـث كـان كـل الأفغـان العـرب منضـوين تحـت رايـة مكتـب الخـدمات الـذي أسسـه الشـيخ الفلسـطيني الأصـل الدكتور عبد الله عزام في تشـرين أول مـن العـام 1984 ، وكان قد قتل مع ولديه محمد وإبراهيم في تفجير سـيارته عن بعد أثناء توجهه إلى مسجد يتبع للمجاهدين العـرب فـي بيشاور بتاريخ 24 نوفمبر " تشرين ثاني من العـام 1989 ، ولعب أسامة بن لادن في تلك الفترة دور الممول للمكتب ، وإن كـانت تبرعـات ابـن لادن حسـب مـن يعرفـه سـبقت تأسيس المكتب حين كان يقـدمها للمجاهـدين الأفغـان مـن خلال الجماعة الإسلامية الباكستانية التي كان علـى رأسـها آنذاك أبو الأعلى المودودي ، و بقي يـتردد علـى المنصـورة ذلك الحي الخاص بأفراد الجماعة الإسلامية الباكستانية في لاهور حتى بعد وفاة المودودي .

و في شهر مارس " آذار " من العام 1986 قرر أبو عبد الله كما يطلق عليه أتباعه التفرغ لأفغانستان والجهاد ضد القوات السوفييتية ، إذ كان حتى ذلك الوقت يقوم بالصرف على بيت الخدمات الذي كانت ميزانية نفقاته السنوية حسب شهادة عزام نفسه ثلاثمائة ألف دولار أميركي يدفعها جمعيها أسامة بن لادن .

و يرى الذين عايشوا تلك المرحلة أن الفرق بين عزام و ابن لادن هو إصرار الأخير على سياسة التمركز بحيث يجمع العرب في مكان تدربهم ، و يعدهم ليكونوا كتيبة جهادية جاهزة ، أما الشيخ عبد الله عزام فكانت سياسته الانتشار ، و لعل هذا ما أوضحه الشيخ تميم العدناني الذي كان نائباً لعزام حين قال : " كنت أنا و الشيخ عبد الله نرى أن يكون تجميع الشباب مباشرة مع الأفغان و في خدمة الأفغان ، و لعل أبا عبد الله رأى أن القضية الأفغانية تفيدنا في التدريب أكثر مما قد نفيدها نحن الأفراد ، فكأنه يريد أن يجعلنا نستفيد من الجهاد أكثر مما نفيده نحن ، و نحن نريد إفادة الجهاد أكثر من الإستفادة منه ، فهو خلاف شعرة بسيطة بالمفهوم ."

لكن نتيجة تحليل الشيخ تميم لم تكن صائبة تماماً بقدر تحليله الذي أكدته الأحداث لاحقاً ، فهذا الفرق لم يكن كشعرة معاوية ، بل كان كما أثبتت الأحداث أنه فرق كبير في الرؤية ، و النظرة الاستراتيجية ، و لعل تخرج أسامة بن لادن من كلية الإدارة و الاقتصاد من جامعة الملك عبد العزيز بالسعودية انعكس على تفكيره كعادة كل التخصصات التي تلعب دوراً في صوغ سياسات و أفكار الناس .

و بناءً على هذه الخلفية افترق أسامة عن عزام في العام 1987 ، و قام بتأسيس معسكرات للتدريب و بيوت ضيافة خاصة به ، و حتى أنه قسم بيوت الضيافة إلى السعوديين و الشوام و نحوهم .

و يؤكد شهود تلك المرحلة أن المأسدة و القاعدة لم تكونا أبداً تنظيماً سياسياً بقدر ما كانتا تسمية عسكرية للعمل إلى جانب الأفغان لكن مع التميز ، كون خلفيات العرب التي قدموا منها لا يتناسب طعامها و شرابها مع شظف العيش الذي اعتاد عليه الأفغان ، إضافة إلى اختلاف نفسيات الشعوب .

بدأت بهذه الخلفية لتوضيح الأمور أكثر للقارئ الذي لم يشهد أغلبه تلك المرحلة من تاريخ الحركات الإسلامية المسلحة ، وهنا أصل إلى مربط الفرس والشاهد من الكلام وهو قول أسامة بن لادن في لقائي معه في كابول : " لم يكن هناك أي تنظيم باسم القاعدة ، و إنما المسألة لا تتعدى تسمية بعيدة عن الأغراض السياسية ، فهناك الكثير من الشباب العربي الذي جاء وقاتل مع القاعدة ، لكن هل يعني هذا أنه يجب ملاحقته ، رغم أن فترة بقائه معنا لم تتعد الأسابيع القليلة المعدودة ؟! "

وكان ممن حول أسامة في ذلك اللقاء قد أكدوا لي أن الاستراتيجية الغربية تريد حصر الشباب في تنظيم لتصفيته دون أي رد فعل شعبي أو إسلامي ، وهو ما دفعهم إلى إعلان اسم القاعدة ، ولكن الأحداث التي أتت بعد ذلك ربما تنبئ غير هذا ، أو ربما ابن لادن آثر عدم الإعلان عن اسم التنظيم تفادياً لضربه وتصفيته ، وإن كان مجرد إعلانه الجبهة العالمية لقتال اليهود والنصارى مؤشر على نيته العمل الحزبي أو الجبهوي ، وهو ربما ما تأثر به من العمل الإسلامي في السودان والجزائر ، وذلك لتحاشي صبغ العمل الحزبي بطرف معين ومدرسة فكرية واحدة ، وإنما

كان الهدف من تسمية الجبهة هو توحيـد العمـل واسـتيعاب الجميع فيها ، ولكن ما حصل في العـام 2001 مـن تشـكيل قاعدة الجهاد والتي ضمت حركة القاعدة برئاسته والجهـاد المصرية بزعامة أيمن الظواهري توحي بأن التسمية قديمة وإن كان البعض من الأتباع يرى أنه أراد الاستفادة من ذلـك الاسم الذي اكتسب شعبية وسمعة إعلامية يصعب أن يشـق أي اسم مثل تلك الشهرة بعد السـمعة والشـهرة الإعلاميـة التي حظي بها .

كانت نواة القاعدة حسب ما فهمت من الملتصقين بأسامة حين تم إنشاء المأسدة التي تحولت إلى القاعدة لاحقاً قـد شرعت في معارك جاجي الشهيرة الـتي خاضـها أفـراد أبـو عبد الله في رمضان مـن العـام 1987 ، و الـتي قيـل بأنهـا معـارك مهـدت الطريـق للانسـحاب السـوفييتي مـن أفغانستان ، و الذي بدأت طلائعه في فبراير " شباط " مـن العام 1989 ، و قد أبلى العرب في معركة جـاجي هـذه بلاءً حسناً ، حتى نقل عن الزعيميـن الأفغـانيين حينهـا عبـد رب الرسـول سـياف و قلـب الـدين حكمتيـار بـأن العـرب كـانوا طوال الفترة الماضية ضيوفنا ، أمـا الآن فنحـن ضـيوفهم ، كدليل على بلاء العرب في تلـك المعركـة ، و الـتي شـاركت

فيها قوات " السبيتناز " السوفياتية وهي قـوات كومانـدوز روسية خاصة ، وهي أول مشاركة لها فـي أفغانسـتان منـذ بدء الغزو السوفييتي في العام 1979 .

و تعـزو أوسـاط عربيـة مطلعـة عاصـرت تلـك المرحلـة أن تطورات مهمة جرت في خلال تلـك الفـترة دفعـت بأسـامة إلى واجهة العمـل الإسـلامي فـي المنطقـة تمثلـت برحيـل البديل الوحيد لقيادة الأفغـان العـرب تميـم العـدناني مـدير مكتب الخدمات ، والذي تـوفي فـي يوليـو " حزيـران " مـن العام 1988 بسبب المرض الذي ألم بـه فـي أميركـا ، حيـث كان نائب الشيخ عزام ، ولحق بـه الشـيخ الفلسـطيني عبـد الله عزام مع نجليه في انفجار سيارته كما أسلفت بعد عام تقريباً ، و جاء مقتل ضياء الحق قبله بشـهرين إضـافة إلـى الانسحاب السوفييتي من أفغانستان ربما ليـدفع ذلـك كلـه أسامة بن لادن إلى الصفوف الأمامية لقيادة الأفغان العرب ، و ليكـون القائـد البـديل عـن كـل القيـادات الـتي قضـت نحبها ،غير أن ابن لادن لم يطرح نفسـه بـديلاً ، وهـو الـذي يدرك حتى ذلك الوقت حساسية بعض المقاتلين العرب مـن قيادة سعودي لهم ، وانكفـأ علـى نفسـه مـع أتبـاعه الـذين كـانوا حلقتـه الضـيقة ، ونـأى بنفسـه عـن كـل المهـاترات

والخلافات على المكتب وأموره وإدارته ، وكان قراراً أثبتت صحته ودقته الأحداث لاحقاً بعد أن فرط عقد المكتب بسبب المشاحنات والخلافات التي دارت بين الخلف ، مثل هذا الواقع الذي أنتج حالة من الضياع للأفغان العرب في أفغانستان وباكستان دفع بأسامة بن لادن طائعاً مختاراً ومقبولاً من الجميع إلى أن يكون قائد السفينة ، فلم يعد في إمكان هؤلاء الأفغان العرب من العودة إلى بلادهم ، و فضلوا الاستمرار في قتالهم من أجل تفتيت أميركا على غرار ما فعلوه ضد الاتحاد السوفييتي ، هكذا كانت تردد أوساطهم ، ونقل عن الكثير منهم الذين التقيتهم في أفغانستان : " إن كنا مزقنا الاتحاد السوفييتي فلماذا لا نقدر على ذلك مع أميركا " ، وعزز ذلك كله الانحياز الغربي الواضح ضد الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر ، والتي سعى الكل للحؤول دون وصولها إلى السلطة ، وتصوير هؤلاء الأفغان العرب وكأنهم فيروس الشر في العالم كله ، وهو ما أفقد هؤلاء الأمل في إمكان تغير سياسي في العالم العربي الذي يرون حكوماته الديكتاتورية مدعومة من قبل الغرب الداعي إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وعززت نظرة هؤلاء في مقاومة أميركا وقتالها تصريحات

ابن لادن الـذي قـال بـأن مهمـة تفـتيت أميركـا أسـهل مـن تفتيت الاتحاد السوفييتي ، ولعل الثقة بالنفس التي ورثهـا المقاتلون العرب من الحرب الأفغانية أخطـر تركـة لأميركـا والقـوى الغربيـة بشـكل عـام ، وهـي مصـدر قـوتهم وقـوة تنظيم القاعدة حتى الآن .

ابن لادن والظواهري والجماعـة الإسلامية والعدو الأقرب :

المضلع الثلاثي الذي شكله أسامة بـن لادن وأيمـن الظواهري ورفاعي طـه مـن الجماعـة الإسـلامية غيـر مـرة أمـام الإعلام واللقـاءات الـتي جمعتهـم فـي بيـوت كـابول وقندهار تثير شهية أي صحافي لمعرفة كنـه هـذه العلاقـة ، وفيما إذا كانت متينة كما تظهر أمام عدسات التلفزيـون أم أن تحـت الأكمـة الكـثير مـن الأسـرار والألغـاز ؟ وهـل كـل طرف يعمل لمصلحته ومصلحة جماعته التي قد تتعارض مع مصلحة الآخرين ؟ وقد لا يبدو أن ابن لادن حرص على عـدم إظهار أي نوع من الخلاف بيـن هـذا الثلاثـي , و إن كنـا لـم

نلمسه في تلك الزيارات القصيرة ، فابن لادن يدرك أن نقل فيروس الخلاف والشقاق إلى القاعدة ما سيعطي انطباعاً سيئاً عليه وعلى جماعته ، وقد ينزع ثقة الشعوب العربية التي ملّت وسئمت كثرة تشرذم العالم الإسلامي و تفرق الحركات الإسلامية وغير الإسلامية ، حتى أن وباء وداء النزاع والشقاق غدا هو ما يميز العالم الإسلامي وهي الماركة المسجلة له ، ورغم تلميح أسامة بن لادن إلى وجود خلاف في الرؤية بينه وبين الظواهري إلاّ أنه كما يحلو لأتباع أسامة والظواهري وطه أن يصوروه بأنه " خلاف تنوع " كما ينعته علماء أصول الفقه الإسلامي ، ومما قاله ابن لادن في هذا السياق : " إن بعض الأخوة ــ مشيراً على ما يبدو للظواهري إذ أنه كان من المؤمنين بذلك ــ كانوا يؤكدون على ضرورة قتال العدو الأقرب الممثل بالأنظمة الحاكمة عملاً بقوله تعالى : " قاتلوا الذين يلونكم من الكفار " ولكن العدو الأبعد أصبح قريباً منا ، حيث تواجد على أرضنا ، وهو عدو مشترك مجمع على جواز قتاله ، كما أنه الآن بيننا جميعاً ، ولذا فقتاله من أوجب الواجبات والفروض العينية ."

الجماعة الإسلامية المصرية رغم بقائها بشكل علني أبعد عن القاعدة ، إلاّ أن شبابها كما تردد هم الذين شاركوا في العمليات التي نفذت في تنزانيا وكينيا ، إذ أشيع بأن المنفذ للعملية لا يتعدى العشرين عاماً من عمره ، و كان من الجماعة الإسلامية المصرية بزعامة الدكتور عمر عبد الرحمن المسجون حتى الآن في الولايات المتحدة الأميركية .

ويقول أحد الشباب المصري الذي كان في أفغانستان بأن الجماعة الإسلامية التي ينحدر شبابها من الريف بشكل عام والصعيد بشكل خاص أقرب إلى الفطرة و الثقة بالآخرين ، والاستعداد للتعاون معهم ، وربما عمليين أكثر من أهل المدن الذين قد يطغى عليهم التنظير وفلسفة الأمور ، وربما هذا ما عزز العلاقة بين أسامة بن لادن والجماعة الإسلامية ، وإن كان تسليم السلطات السورية للشيخ رفاعي طه إلى السلطات المصرية ربما يلحق الكثير من الضرر في هذه العلاقة . وقد لمست من الشباب العربي الموجود في أفغانستان خلال تلك الزيارة أن الكل سئم من هذه الحياة ويبتغي الدار الآخرة كما يقولون ، حتى قال لي أحدهم وما زالت عباراته ترن في أذني : " لقد عشنا في

هذه الحياة أكثر مما كنا نتوقع ؛ فقد قدمنا إلى الجهاد وأعمارنا لا تتعدى العشرين عاماً ، وقاربت أعمارنا الآن الأربعين عاماً ، ونحن الآن نستبطئ الشهادة ، ونخشى أن يكون الله تعالى غير راض عنا حتى أخذ إخواننا لنا وتركنا نحن ."

ابن لادن وعبد الله أنس وحلقاته في الشرق الأوسط :

شكل وما يزال يشكل الوجود العربي في باكستان أحجية للكثيرين خصوصاً الذين لم يعيشوا تلك الفترة ، ولم يشاركوا أو لم يقرؤوا عنها ، وقرأ الكثير منهم عنها بعيون غربية وليست بعيون القوم الذين شاركوا فيها وكانوا شهوداً عليها ، وتباينت آراء معظم المتابعين لهذا الوجود في كيفية حشده ، وأهدافه ، والجهات التي وقفت خلفه ، فخصوم وأعداء هذا التواجد يعزون كل شيء إلى القوة الأميركية ، ويصورون ذلك على أنها على كل شيء قديرة ، وأن هذا التواجد لم يكن إلاّ بإشارتها ، وكأن الأفغان العرب

عبارة عن جيش مرتزقة تبحث عن الكرين كارد ، كما وصفهم حسنين هيكل في مقاله الذي نشره في وجهات نظر ، ونشرته السفير اللبنانية بتاريخ : 2 ــ 2 ــ 2002 ، بينما الواقع والحقيقة يجافيان ذلك ، فهل من يقدم روحه رخيصة في سبيل ما يعتقد به يبحث عن الكرين كارد ؟!! ، وماذا يفعل من يقتل بالكرين كارت بعد موته ؟!! ، وحسب معاينتي للساحة فإنها شهدت الصالح والطالح ، واحتوت في عزّ الجهاد كل مكاتب أجهزة الاستخبارات العالمية ، ولكن بكل تأكيد فإن الشباب القادم إلى الجهاد بشكل عام لم يكن حافزه أو دافعه الولايات المتحدة الأميركية ، أو أي استخبارات عالمية أخرى باستثناء الذين جاءوا لصالح هذه الأجهزة وبإشارة منها ، وبهدف تجسسي محض ، وإنما كل دافعه هو المشاركة في الجهاد الأفغاني الذي أفتى كثير إن لم أقل كل علماء العالم الإسلامي بفرضه العيني أو الكفائي ، وشجع الجميع على هذه المشاركة ، ولعل الخلاف في الوجود العربي في باكستان وأفغانستان لم يبدأ إلاّ بعد سقوط النظام الشيوعي في أفغانستان في العام 1992 ، حينها استنفذت الدول أغراضها وهي التي كانت صامتة لحاجة في نفس يعقوب أو في نفس ريغان أو

بوش ، واكتشفت هذه الدول فجأة ودون سـابق إنـذار أنهـا صمتت على " فرانكشتاين " يهدد معاقلها بعد أن دعت هذه الحركات إلى دولة إسلامية في دولها ، وعزز من مصـداقية طروحاتهـا هـو الانقلاب الـذي حصـل علـى المسـار الـديمقراطي فـي الجزائـر الـتي رأت فيـه انسـداد العمـل السياسي والديمقراطي أمامها ، وأن التجربة الأفغانيـة قـد تكون هي المفيدة والعملية مع دول وأنظمة ترفض أحداً أن يشاركها فضلاً أن يخلفها فـي هـذا الحكـم الـذي تـراه حقـاً طبيعياً لها ولزبانيتها .

ولعلـي هنـا أشـير إلـى الكتـاب التـوثيقي الـذي صـدر عـن الصحافي السوري باسل محمد تحت عنوان : " صفحات من تاريخ الأنصار العرب " ولكن للأسف لـم يجـد ذلـك الانتشـار الذي يستحقه كونه وثيقـة سـجلت مـن أفـواه مـن عاصـروا تلك الفترة ، وكثير منهم قضوا ، والبعض منهم بقـوا أحيـاء ولكن ما يزالون فاعلين في القاعدة مثل أسامة بن لادن .

من هنا أستطيع أن أدلف إلى حواري مع الشـيخ أسـامة بـن لادن الذي عبر عن عدم رضاه على الحلقـات الـتي نشـرتها الشرق الأوسط اللندنية علـى لسـان عبـد اللـه أنـس صـهر الشـيخ عبـد اللـه عـزام ، والـذي ذكـر فيهـا الخلافـات بيـن

الشخصين ، وتحدث أنس في الحلقات بلهجة فيها نـوع مـن التهوين بأسامة بن لادن ، وإن كانت الحلقات ليست أمامي الآن لأستعيد ما ذكره بالضبط ، ولكن ما أذكره من كلام ابن لادن أنه عبر عن خيبة أمـل مـن كلام عبـد اللـه أنـس ، وأن الوضع لم يكن بهذه الطريقة التي صورها أنـس ، فقـد أكـد لي كثير مـن الأفغـان العـرب المرافقيـن لابـن لادن الـذين عاصروا تلك المرحلة أن العلاقة بين الشيخ عزام وابن لادن كانت قوية جداً ، حتى وإن اختلفـت بعـض وجهـات النظـر ، ولكـن الاحـترام والـود هـو الـذي سـاد العلاقـة . ونقـل لـي أحدهم عن الشيخ عزام آخر شهادة في ابـن لادن قـوله : " لو كان هناك ولي لله في الأرض لكان أسامة بن لادن ." _

جواسـيس فـي صـفوف القاعدة :

رغم كل النجاح الذي أحرزته القاعدة في العمليات التي نسبت إليها إلاّ أنها تعرضت لبعض الاختراق ، وإن كـان ليـس علـى تلـك الخطـورة الـتي كشـفت عملياتهـا أو

مخططاتها ، والدليل على ذلك العمليات الـتي نسـبت إليهـا أو شبه تأكدت أنها هي التي قـامت بهـا فـي أيلـول ، فقـد تحدثت إلى بعـض الأفغـان العـرب الـذين كـانوا فـي كـابول وقندهار والولايات الأفغانية الأخرى الـتي زرتهـا خلال تلـك الفترة وكشفوا لي أن بعض الجواسيس تم التعـرف عليهـم في ظل التعاون والتنسيق بيـن خلايـا الأفغـان العـرب فـي عـدد مـن الـدول وذكـرت إلـي هـذه المصـادر قصـتين علـى الموضــوع ، وسأضــرب هنــا صــفحاً إذ لــن أتطــرق إلــى الجواسيس الذين تم الكشف عنهم ، ونشرت أخبـارهم فـي وسائل الإعلام حين عرضت حركـة طالبـان علـى تلفزيـون أبو ظبي في العام 2000 بعض من هؤلاء الجواسيس ، فهنا سأتحدث كما توافر لـي مـن معلومـات أفـراد القاعـدة عـن هاتين الحادثتين واللتين لم يتم الكشف عنهما حتى الآن :

جاسوس سوري :

ذكر لي أحد الأفغان العرب المقربيـن مـن أسـامة بــن لادن ـ على ما يبدو ـ حين كنا في كابول وذلك على هــامش

اللقاء مع أسامة بأن أحـد الشـباب السـوريين الـذين جـاءوا إلينـا عـن طريـق إيـران ، وعـبر الحـدود مـن هيـرات إلـى قندهار ، ومنها انتقل إلى معسكرات القاعدة في عـدد مـن المناطق الأفغانية ، وتلقى تدريبات عـدة علـى صـنوف مـن الأسلحة والتمرينات ، وعلمنا لاحقاً بعد عودته إلـى سـوريا أنه كشف كل مـا تلقـاه مـن تـدريبات عسـكرية ، وأسـاليب التدريب ، وكذلك الطرق التي استخدمها في الوصـول إلـى أفغانستان ، والمكاتب والبيوت الموجودة فـي الـدول الـتي عبرها ، وهو ما أحرج جهات عدة لم يكن للمصدر أن يتحـدث عنها بطبيعة الحـال ، وحسـب المصـدر ذاتـه فـإن الشـخص الذي جاء به كان عراقياً كردياً ، عادة ما يتردد علـى سـورية نظراً لعلاقة المصاهرة التي تربطه مع سيدة سورية , ولكن يبـدو أن هـذا الجاسـوس السـوري لـم يـؤثر علـى القاعـدة وتنظيمها ، وما كشفه أمور تتعلق بالـدعم اللوجسـتي أكـثر مما تتعلق بالخطط ، وحين سـألت أسـامة بـن لادن عـن مـا يتردد عن وجود جواسـيس وعملاء فـي صـفوفهم ومـا تثـار من تهم من قبل جماعته أو المؤيدين له ضد أشـخاص ربمـا لا يتفقون معهم في الرؤية أو النظرة ، أجـاب بكـل هـدوء وهو يحاول تذكر كل كلمة قد تحسـب عليـه أو لـه مـن هـذا

الطـرف أو ذاك فالكلمـة لهـا مسـارب ومسـالك ستسـلكها وربمـا تنـال يمينـاً أو شـمالاً ، وعليـه أن يكـون دقيقـاً فـي الإجابة ، إذ أنه في بعـض الحـالات وربمـا فـي كلهـا يمشـي على خيط دقيق مشدود للغاية هكذا تخيلتـه وهـو يـرد علـى سؤالي : " إذا كنت تظن بحياتي فكل ذلك بيد اللـه تعـالى ، وأنا الآن لا أعتقد أنني شخص واحد ، فهناك ظاهرة اسـمها الصـحوة الإسـلامية ، ولـن يطفـئ أحـد نـور اللـه الـذي بـدأ يسطع على العـالم ، وقتـل شـخص لـن يفيـد أحـداً ، إلاّ إذا كانت هذه الجهة أو تلك تظن أن العمـل يمكـن أن يشخصـن في فـرد واحـد ، أمـا فـي العمـل الإسـلامي الـذي هـو للـه والأجر يأتي في الدار الآخرة فلا يستطيع أحد أن يربطــه أو يقرنــه بشــخص وفــرد واحــد ، وبعــد هــذا أقــول بالنســبة للجواسـيس الـذين قـد يكونـون فـي المعسـكرات وقـدموا للتدريب ربما يكونون موجودين ، وهذا أمر طبيعي فكل من يعمل قد يتعرض إلى هذا ، فقـد كـان هنـاك منـافقون فـي صفوف الرسول صلى الله عليـه وسـلم ، وهـذا لا يعنـي أن يوقـف الرسـول مسـيرته ، ولكـن مـا أفعلـه إذا تريـدني أن أقـول لـك بصـراحة هـو أن الشـباب الـذين يـأتون للتـدريب يكونون فـي البدايـة فـي دورات عامـة للجميـع ولا يعطـون

شيئاً سوى التدريب العام ، ويزورهم بعد فترة طويلة الأخ أبو حفص ثم يرتب لي الأخوة زيارة إلى المعسكر بعد أن يصر المتدربون على رؤيتي ، وأذهب بشكل مفاجئ لفترة قصيرة ، ودون إخطار مسبق ، إذ أفاجئ الكل في الزيارة ، أملاً في أن تمنحهم رؤيتي كما يرون دفعة في التدريب والعمل ، هذا ما أفعله ."

جواسيس من البدون :

ثمة قصة أخرى سمعتها في تلك الرحلة من عدد من الأفغان العرب تحكي قصة جاسوس آخر من فئة البدون ، قدم من دولة الإمارات العربية المتحدة حيث كان يقطن هناك ، ويبدو أن عملية تجنيده تمت في البعثة الأميركية في الإمارات ، وأرسل إلى بيشاور حيث اتصل مع القنصلية الأميركية في بيشاور ، وكان قد استقبله في مطار المدينة بعض الضباط الباكستانيين العاملين والمتعاونين مع الأميركيين ، والعهدة على الأفغان العرب الذين نقلوا هذه الرواية عن هذا الشاب المجهول بالنسبة إلي ، إذ أنهم لم

يقدموا لي معلومات عن هويته بأكثر من هذا " شخص قدم من الإمارات ومن فئة البدون " ، وينقل عنه في خلال التحقيقات التي أجرتها معه حركة طالبان الأفغانية بعد أن دخل إلى أفغانستان بأنه تم تقديم النساء والخمرة له في القنصلية الأميركية في بيشاور ، وسلّم بعض المعدات لقتل وتصفية أسامة بن لادن ، وانقطع اتصاله مع القنصلية بعد وصوله إلى مدينة جلال آباد شرقي أفغانستان المعروفة بتمركز قوات الأفغان العرب فيها ، والتي دارت بالقرب منها في تلال طوره بوره معارك شهيرة بين الأفغان العرب والقوات الأميركية وحلفائها من القوات الأفغانية ، وغدت هذه المنطقة بعد تلك الواقعة من المعالم الإعلامية البارزة في أفغانستان من كثرة ما ردد الإعلام الدولي اسمها ، وحسب الأفغان العرب الذين رووا هذه القصة التي تبقى مسئوليتها القانونية والتاريخية عليهم لصعوبة التحقق في قضايا جاسوسية كهذه ، فإن ثمة كوداً أو كلمة سر بين المجندين لصالح الأميركيين القادمين من خارج باكستان وبين الضباط الباكستانيين المتواجدين في مطار بيشاور ، وذلك من أجل استقبال الجواسيس وخدمتهم ومساعدتهم في تسهيل مهامهم

الموكلة إليهم داخل أفغانستان وتحديداً ضد تنظيم القاعـدة وزعيمه أسامة بن لادن .

رؤيتـه فـي انتصـار حـزب اللـه اللبناني :

كان حـديث الأفغـان العـرب الـدارج فـي تلـك الأيـام هـو الانتصار الذي حققه حزب الله في جنوب لبنـان مـن طـرده القوات " الإسرائيلية " رغم احتلال دام أكثر من 22 عامــاً ، فـالكثير مـن الأفغـان العـرب إن لـم أقـل الجميـع يشـعر بحساسية الموقف تجاه الشيعة الذين يشكلون حـزب اللـه ، بخلاف ما يتردد في الإعلام الغربي عن وجود علاقة ما بيــن حزب اللـه والقاعـدة أو الأفغـان العـرب ، ولـذلك كـان مـن اللافت والمهم بالنسبة إلـي كصـحافي أن أسـمع أو أحـاول جاهداً و بكل السبل والوسائل لمعرفة رأي أسامة بــن لادن بحزب الله والانتصار الذي حققه ، وجـاء الجـواب حاسـماً إذ كنــت أعتقــد أن المســألة تحتــاج إلــى مواقــف سياســية وتوازنات محددة ، ربما تضللني وتهيل ضـباباً علـى الجـواب

الذي سيفقد حينها لونه وطعمه ورائحتـه ، وهنـا أسـطر مـا قاله لي ابن لادن فـي هـذا المجـال رغـم أن زعيـم الحـزب حسن نصر الله حين سأله المذيع فيصل القاسـم فـي لقـاء خاص من شهر شباط مـن العـام 2002 فـي قنـاة الجزيـرة تهرّب من السؤال ، ولم يشأ على ما يبدو أن يقدم رأياُ فيه سوى قوله إن الناس قد اختلفوا في أسامة ، وأعود إلى ما قاله لي أسامة في ذلك المكان : " لقد تهيأت ظروف دولية وإقليمية ومحليـة سـاعدت علـى خـروج اليهـود مـن جنـوب لبنان على يد حـزب اللـه ، وللأسـف لـن يسـمح بمثـل هـذه الظـروف أن تتهيـأ لحركـة سـنية ، لأن كـثيراً مـن الـدول والجهات لا تثق بالسنة وحركاتها ونشاطاتها ."

تذكرت حينها حـديث جـرى بينـي وبيـن أحـد الديبلوماسـيين الفرنسيين المعنيين بالملف الأفغاني في إسلام آباد وقوله لي : " إن الحركات الشيعية يمكن السيطرة عليها من خلال دول ، وأما الحركات السنية المسـلحة فحركـات غيـر قابلـة للسيطرة أو التحكم ." فهل كان مقصود أسامة مـن حـديثه لي هو نفس ما عناه وقصده هذا الديبلوماسي الفرنسي ؟!

ترافق حديث أسامة بن لادن معي مع وصول بعـض الأفغـان العرب من الأكراد العراقيين وغيرهـم مـن جنسـيات أخـرى

من إيران ، وظهر لي أنهم يستخدمون الخط الإيراني بعيـداً عن الحـدود الباكسـتانية الـتي شـددت كـثيراً علـى الأفغـان العــرب فــي الفــترة الأخيــرة ، والــتي ســبقت الهجمــات الأميركية على أفغانستان وإسقاط حركة طالبان ، وسمعت همساً بين الأفغان العرب حينها في هذه الرحلة الطويلــة و المضنية أن إيران لا يمكن لها تمانع في مرور هؤلاء العـرب القادمين إلى أفغانستان ، وهي التي تنظر إلى أميركا كــ " شـيطان أكـبر " وفـي حـال أقـدموا علـى اعتقـال هـؤلاء الشباب فسينظر إلى أنهـم يعملـون لمصـلحة الأميركيـن ، وهي ليســت فــي مصـلحتهم خصوصـاً وأنهـم يرغبـون بـأن يظهروا داخليـاً و خارجيـاً علـى أنهـم ليسـوا متعـاونين مـع الأميركيين ضد حركات إسلامية سنية ، فإن كـانت باكسـتان تفعل ذلك فهذا لا يبرر لإيـران ، وهـي الـتي ترفـع الشـعار الإسلامي المعادي للشيطان الأكبر .

في الحقيقة فتح لي كلام أسامة كوّة لا بأس بها فـي بحـث أو معرفـة أسـباب انتصـار الثـورة الإيرانيـة وفشـل الثـورة الأفغانية أو إفشالها ، وأريد لها كـذلك وبـدون الغـوص فـي كثير من التفاصيل المعقدة والمتشابكة أود أن أطرح نقطة ربما تعتبر مفتاحية في فهم هذا الواقع ، وهـي أن الشـيعة

على مر التاريخ الإسلامي لم يتحكموا فيه بشك كامل ، باستثناء فترة معينة ، ومكان معين ، والمتمثل بحكم الفاطميين ، رغم أنهم حين خرجوا من مصر بعد سنوات من حكمهم دون أن يتشيع أحد من أهل مصر ، وبالتالي فإن الغرب ربما ينظر إلى الشيعة على أنهم غير مؤهلين لقيادة العالم الإسلامي الغير مستعد في وعيه الجمعي لذلك ، سيما وهم الذين يشكلون أقلية من المسلمين ، بينما يشكل السنة الأغلبية الغالبة من المسلمين ، أضف إلى ذلك أن السنة حكموا العالم الإسلامي حتى سقوط الخلافة العثمانية في العام 1924 ، فإن كان يمكن حصر نفوذ وتأثير الحكومة الإيرانية في إيران وربما تداعيات الانتصار في بعض الجزر الإسلامية المنتشر فيها الشيعة ، فهذا الأمر لن يتحقق في حال وصول أي حركة سنية إلى الحكم ، والتي سترى نفسها الوريث الشرعي الوحيد للخلافة الإسلامية التي غيبت طوال سنوات من الحكم ، وهكذا ستنظر إليها الحركات الإسلامية الأخرى ، وربما الشعوب المطالبة بوصول هذه الحركات إلى السلطة على أنها مأوى ومنقذ لهم كما حصل بعد وصول العثمانيين وصلاح الدين الأيوبي وغيرهم كثير ، فقد حكم العالم

الإسلامي على مر حوالي أربعين عاماً من مكة المكرمة ، وأقل من مائة عام من دمشق ، وكذلك من بغداد واسطنبول ، ولم تكن هناك مشكلة حتى على التركي أن يحكم العربي أو غير العجمي بشكل عام ، بغض النظر عن بعض التجاوزات التي حصلت في السنوات الأخيرة لحكم العثمانيين ، وهي تعود إلى الأشخاص الذين وقعوا فيها ، وليس إلى الإيديولوجية الإسلامية التي لا ترفض أن يقاد العالم الإسلامي من غير العرب ، وإن كان الكثير من الفقهاء والعلماء يرون أن الأولوية للعرب في ذلك .

وقد ظهر صدق كلام أن أي حركة سنية قد تكون بؤرة لتجمع أتباعها في كل الأرض ، بغض النظر عن قوتها وسطوتها في حكم طالبان وقبلها في فصائل المجاهدين الأفغان ، حيث استقطبوا كل الشباب من العالم العربي والإسلامي الذي كان يتصرف في أفغانستان وكأنها دولة له ، وهو ما يعني أن النظرية القومية لم تترسخ بما فيه الكفاية حتى الآن ، بمعنى أنها لم تحل محل النظرية الإسلامية التي حكمت المسلمين منذ ظهور الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وحتى سقوط الخلافة وبروز

الدويلات القومية على أساس القومية والعرقية وليس على أساس الإسلام .

لماذا الشارع الباكستاني صامت تجاه الانتفاضة ؟

كـانت أحـداث الانتفاضـة الفلسـطينية حينهـا تخيـم وتلقي بظلالها على معظم وسائل الإعلام العربية والدولية ، فمـن بـاب أولـى علـى الأفغـان العـرب الـذي يتعطشـون للعودة إلى فلسطين من أجل القتـال كمـا عـبروا لـي فـي أحاديثهم المتفرقة ، وكان حـال الوسـط الأفغـاني العربـي في تلك المنطقة الـتي تـتربع علـى "سـقف العـالم " كمـا وصـفها الرحالـة قـديماً كولومبـوس يتشـوق للعـودة إلـى فلسطين من أجل المشاركة في " شرف الجهاد علـى أرض الإســراء والمعــراج " كمــا تحلــو لأدبيــات الإســلاميين المتواجدين في أفغانستان الإطلاق عليها ، ولذا فمثـل هـذا الجو المشـحون بالحمـاس ، والمعـادي لكـل مـا هـو يهـودي وأميركــي مولعــاً بســماع كــل شــاردة وواردة عــن هــذه

الانتفاضة التي أحيت الموات من العالم الإسلامي حسب قول أحد الأفغان العرب لي في كابول .

في حديث أسامة في كابول المطول تعرض إلى الانتفاضة الفلسطينية التي حيا أطفالها الذين رفعوا رأس الأمة الإسلامية كما قال وعبر عن فرحته وسروره بما قدمه الشارع العربي والإسلامي من " تضامن وتظاهرات وحتى استعداد للقتال مع الفلسطينيين ، وإن كان الحائل الأساسي هو هذه الأنظمة التي تسهر على حماية الأميركيين واليهود " حسب قوله ، وبدا لي استغرابه من جمود وصمت الشارع الباكستاني كما قال لي ، فهل يمكن أن يصمت الشارع الباكستاني إلى هذا الحد ؟!! ويحجم عن المشاركة في مظاهرة واحدة مؤيدة للانتفاضة الفلسطينية في الوقت الذي كانت تتحرك المدن العربية والإسلامية على شكل كتل بشرية مؤيدة لانتفاضة الأقصى ؟!!

وظهر أن أسامة حرص كثيراً على فهم أسباب وخلفيات ذلك ، وربما يكون هذا الموقف الباكستاني ضرب حسابات كبيرة لديه كان يبني عليها حسابات وحسابات ، حتى قرأت ما كتبه الكاتب الصحافي الباكستاني حامد مير والذي كان آخر صحافي يلتقي أسامة بن لادن حتى كتابة هذه السطور

وذلك خلال القصف الأميركي على أفغانستان ، يقـول ميـر في سلسلة مقالات نشرها فـي صـحيفته أوصـاف الصـادرة باللغة الأوردية الباكستانية المحلية : " حين سألني كـل مـن ابن لادن والظـواهري خلال ذلـك اللقـاء عـن توقعـاتي مـن الشـــارع الباكســـتاني أثنـــاء الضـــربات الأميركيـــة علـــى أفغانستان ، أبلغتهما أنه لن يكون هناك كبير رد فعل سـوى المظاهرات الـتي ترونهـا وتسـمعون عنهـا ، فحينهـا رأيـت تغيراً في وجهي كل من ابن لادن و الظواهري " ، والسؤال الـذي يطـرح نفسـه هـل خـدعت أو ضـخمت بعـض القـوى الإسـلامية الباكسـتانية مـن قـدراتها وغـررت بـابن لادن و الظواهري في أنهم قادرين على التحرك في باكستان ضـد الحكومة أو ضد الوجود الأميركي ؟!

ولـذا حيـن تـوجه الآلاف مـن أتبـاع حركـة تطـبيق الشـريعة الإسـلامية بزعامـة صـوفي محمـد مـن منـاطق القبائـل الباكستانية إلى داخل أفغانسـتان فـي الـوقت الـذي كـانت فيـه الطـائرات والصـواريخ الأميركيـة تواصـل دكهـا للمـدن الأفغانية والمواقع الطالبانية وتنظيم القاعدة أبلغنـي عـدد مـن الأفغـان الـذين كـانوا فـي منطقـة جلال آبـاد شـرقي أفغانســتان أن المســؤولين الطالبــانيين كــانوا يقولــون

لضيوفهم الباكستانيين : لماذا جئتم تقاتلون الأميركيين في أفغانستان ؟!! ولماذا لم تقاتلونهم في أرضكم بباكستان الذين يتواجدون في مطاراتها وقواعدها الجوية ، وتوفر لهم المنطلق والقواعد الخلفية واللوجستية ؟!! ولكن سؤالاً لم يكن يجيب عنه أحد من المتطوعين الباكستانيين .

ولكن بالمقابل يرى الكثير من الإسلاميين الباكستانيين الذين التقيتهم في أعقاب انهيار حركة طالبان أن المسؤولية تقع على عاتق الأخيرة ، فقد قدم الشارع الباكستاني بشكل عام والشارع الإسلامي بشكل خاص خدمات كبيرة لطالبان في مجالي البشر والمال والتحرك الجماهيري ، ولكن الحركة لم تثبت أمام القوات الأميركية ، ولم تبرهن على رغبتها في القتال ، وإلاّ فكيف يختفي رموز القاعدة المطلوبين دولياً ، و يستسلم قادة الحركة التي هددت وتوعدت بحرب عصابات وكان الجميع ينتظر تلك الحرب ، بل وتخلي الحركة مواقعها بشكل مفاجئ دون التنسيق حتى مع مضيفيهم من العرب وغير العرب ، وهو الأمر الذي أوقع الآلاف من الأنصار الباكستانيين وغير الباكستانيين في الأسر ، ما يزالون يدفعون ثمن تلك

الانسحابات الكيفية دون التشاور ، أو حتى إبلاغ أحد من الضيوف الذين ما يزالون يقبعون في سجون تحدثت عن ظروفها القاسية كل وسائل الإعلام ومنظمات حقوق الإنسان الدولية ؟!!

التجربة الصومالية تستحوذ على تفكير أسامة :

يحلو لأسامة بن لادن أن يتحدث بالاسهاب و التفصيل عن التجربة الصومالية ، وكم كنت أطمح إلى سماع تلك التجربة وهو الذي وعدني مرة أن نتحدث عنها بالتفصيل لنشرها في صحيفة " الحياة " اللندنية ، ولكن التطورات المتلاحقة والمتسارعة حالت ـ للأسف ـ دون تحقيق ذلك الطموح ، الذي طالما دفعني وأغراني في أن استكشف ذلك السر الغامض ، و التعرف إلى كيفية وصول الأفغان العرب إلى الصومال ، وعن طريق من وكيف جاءت تلك الفكرة ، ومن هو صاحبها ؟ فكلها أسئلة تغري أي صاحب تحقيق صحافي ،كان يحكي عن الصومال بكل فخر مشيداً

بما يصفهم بـ " الأخوة الذين مرغوا الكبرياء الأميركي بتراب الصومال الفقيرة ، وأسقطوا أسطورة الصقر الأسود الأميركي ، ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره ." هكذا بدأ ابن لادن حديثه عن التجربة الصومالية التي بدا كما تراءى لي أنه معجب بها ، ويحلم بتطبيقها في مكان آخر من العالم الإسلامي ، وربما أفغانستان كانت في ذهنه المكان الأول والأكثر ترشيحاً ، فبنظره أية هزة وضربة للقوات الأميركية ستدعوها إلى الانسحاب ، وسيدعو الكونغرس والإعلام الأميركي إلى الانسحاب ، فالعقلية الغربية بشكل عام والأميركية منها بشكل خاص عقلية مادية تعودت على الرفاهية السلم ، وغير مستعدين إلى تقديم قتلى وضحايا في بلد يحتاج عضو الكونغرس أو المسؤول الأميركي إلى ساعات حتى يشرح لدافع الضرائب العادي عن أهمية أفغانستان ، بل وشرح مكانها على الخريطة ، بخلاف ما كان عليه الأمر مع السوفييت في أفغانستان الذين ضحوا بالآلاف من قواتهم ووقتهم من أجل البقاء في أفغانستان ، ومع هذا فقد انهزموا ، وبالتالي فإن الجنود الأميركيين الذين لم يصمدوا لأشهر في الصومال تحت ضربات المجاهدين كما يقول ابن لادن

لا يمكن لهم أن يصمدوا في ظل الإعلام المفتوح الذي فتح المستور وكشف المخبوء ، وبالتالي فإن أي حادثة تتعرض لها القوات الأميركية ستكشف إعلامياً ، وسيحسب لها المسؤول الأميركي أو الغربي حساباً ، وهو المهووس بالعودة إلى السلطة في الانتخابات المقبلة وحسابات غربية عدة لا تتحمل كلمة الخسائر البشرية .

ومما قاله أسامة في تلك الجلسة : " ومما بلغني من إخواننا الذين شاركوا في قتال القوات الأميركية في الصومال أن الجندي الأميركي أجبن بكثير من الجندي السوفييتي الذين قاتلوه طوال سنوات الجهاد الأفغاني ، وعلى هذا فأرى هزيمتها ستكون أسهل بكثير من هزيمة الاتحاد السوفييتي ."

وكنت قد سمعت الكثير من الهمس في تلك الزيارة عن رغبة الكثير من الأفغان العرب لاستدراج الولايات المتحدة الأميركية إلى أفغانستان من أجل " تلقينها درساً صومالياً آخر خصوصاً و أن أفغانستان مقبرة الإمبراطوريات ، ففي القرن العشرين دفنت في رمالها الإمبراطورية البريطانية التي كانت لا تغرب عليها الشمس ، وكذلك الإمبراطورية السوفييتية أو إمبراطورية الشر كما كان يصفها الرئيس

الأميركـــي الســـابق رونالـــد ريغـــان ." وكـــانت البارونـــة البريطانيـة رئيسـة الـوزراء البريطانيـة السـابقة مـارغريت ثاتشر في مقال لها نشرته في الغارديان أواسـط فـبراير " شباط " من العام 2002 عقـدت فيـه مقارنـة بيـن الإسـلام الأصـولي و البلشـفية الروسـية ، وممـا ذكـرت فيـه أن أفغانسـتان " أرض غـدّارة " ، وتـأتي أهميـة قـول البارونـة البريطانية هذا من تذوق إمبراطوريتهـا طعـم الهزيمـة فـي أفغانستان ، وخبرة البريطانيين المعروفة فـي تلـك البقعـة من الأرض التي تواجدوا فيها وحولها لسنوات طويلة .

وفي مقـاله الـذي نشـر فـي الاندبنـدنت بتاريـخ 27 ـــ 3 ـــ 2002 رأى الكاتب البريطاني روبرت فيسـك أن أسـامة بـن لادن تمكن من جر الرئيس الأميركي جـورج بـوش إلـى فـخ نصبه له في أفغانستان .

ويبدو أنه في حال تواصل الحرج الأميركي فـي أفغانسـتان المتمثل في العجز عن

القضاء على القاعدة وطالبـان ، خصوصـاً إن نجـح كـل مـن القاعدة و طالبان فـي تطـوير حـرب عصـابات ضـد القـوات

الأميركية في أفغانستان ، فإن ذلك سيحرج الكثير من الأنظمة العربية .

كيف تواصل أسامة مع العالم في ظل الحصار الطالباني ؟

كان هذا التساؤل من التساؤلات التي تثير فضولي كصحافي ، وأنا أتابع حديث ابن لادن في ذلك اللقاء الذي كم أندم على عدم تسجيله ، كونه وثيقة فكرية وسياسية مهمة باعتقادي في شخصية الرجل ، والذي كان يمكن أن يحل كثيراً من الألغاز في حياته لنا كصحافيين وبشكل عام للرأي العام الإسلامي وغير الإسلامي ، فحديث ابن لادن ذاك لا يمله صحافي ، أو متابع لشأن الحركات الإسلامية خصوصاً المسلحة منها ، فكيف تلك التي تقارع أميركا ، وأرغمت الأخيرة على تجييش أساطيلها ومن ورائه العالم كله ، وحشدت جميع طاقاتها وقدراتها وما في ترسانتها من أجل هزيمة هذا الشخص وتنظيمه .

بـالطبع لـم أكـن أسـتطيع أن أسـأل هـذا السـؤال بهـذه الفظاظة والوضوح ، فأنا لا أسأل ذلك من أجل نشر مقابلة صحافية ، وإنمـا أسـأل بقـدر مـا يسـمح المقـام والمقـال ، والتقطت إشارة من ابن لادن حين ذكـر لـي بـأن سـجودي شكراً لله على تدمير المدرة كول بإمكانك نقلها عن مصـادر مقربة من ابـن لادن ، وفهمـت حينهـا أن هـذا أحـد الطـرق الملتوية التي استخدمها الرجل مـن أجـل إيصـال رسـائله ، خصوصـاً بعـد أن تحـدثت بعـض المصـادر عـن دفعـه لبعـض الشيوخ والمصادر الإسلامية الباكسـتانية علـى القيـام بهـذا الـدور ، الأمـر الـذي سـيوفر عليـه وعلـى طالبـان مسـألة الضـغوط الأميركيـة الممارسـة علـى الحركـة فـي حظـر تحركات الرجل ، خصوصاً وأن الحركة تعـاني مـن عقوبـات اقتصادية .

كــان ابــن لادن راغبــاً جــداً بــدعوة صــحافيين أفغــان وباكسـتانيين وغيرهـم مـن أجـل توضـيح مسـألة الوجـود الأميركي في المنطقة العربية ، وتحديد الموقـف الشـرعي من ذلك ، ومخاطره على الدول الإسـلامية ،مـع مـا يـترافق من نهب ثروات الشعوب الإسلامية ، وهو التاجر الـذي كـان يحرص على حساب ذلك كله بالدولار .

وبدأ يحسب ابن لادن حساباً لم أسجله وكان الحساب بالدولار كيف أن مردود النفط العربي يدخل على كل مواطن مسلم كذا من الدولارات كل شهر وكل سنة ، ولكن الهدر والنهب هو الذي يبدد الثروات كما قال .

وتجلت مساعيه في الانقلاب والالتفاف على الحظر المفروض عليه طالبانياً من خلال تقديمه كتابين كما ذكرت ، إذ سعى ابن لادن من خلال هذه المقدمات إلى إيصال أفكاره وقناعاته لأتباعه أو العالم بشكل عام ، وفي نفس السياق استغل الحفلات والمناسبات والتلميحات من أجل البرهنة على أنه ما يزال موجوداً ويتحرك ، بل ويتواصل مع الشعوب والجماهير .

قصة الحمّام :

حصلت وأنا أستمع إلى حديث ابن لادن بشغف مطالباً بالمزيد لكن دون الإفصاح عن ذلك باللسان ، وإن كانت قسمات وجهي وإصغائي توحيان بذلك قصة طريفة ، ربما توحي وتكشف جانباً من شخصية بن لادن ، فقد

استأذنته بالخروج لقضاء الحاجة ، وذلك من الغرفة إلى الموزع أو الصالون الذي يضم الحمام ، ولكن وجدته مشغولاً ، فقد كان في داخله شخص آخر ، وكان ابن لادن الذي يجلس في صدر الغرفة مواجهاً للصالون يرى بعض من شباب الخليج العربي الجالسين مقابله والذين واصلوا حديثهم دون انقطاع ، كنا نسمع همهماتهم دون فهم شيء من الكلام ، نظر أسامة إليهم وأعطاهم إشارة توحي بأنه حين يفرغ الحمام أبلغونا حتى لا يقوم الضيف أكثر من مرة ، وربما يعثر على الحمام مشغولاً ، أومأ له من كان في الصالون بالموافقة والسمع والطاعة ، وناداني إلى الدخول وبالفعل ، وبينما كان هو يتحدث جاءت الإشارة ممن كان في الصالون حيث كان أسامة ينظر إلى الشباب ، لكن أنا كنت في مواجهة ابن لادن ، وبالتالي لا أراهم وكانت الإشارة بأن الحمام فارغ ، فنهضت وقضيت حاجتي وهي إشارة بقيت عالقة في ذهني حتى تذكرتها وأنا أكتب هذا الكتاب إذ كنت دونتها في دفتر الزيارة بعنوان قصة الحمام لعلي أكتبها يوماً ما .

العلاقة مع الملا عمر :

يتحدث ابن لادن عن زعيم حركة طالبان الأفغانية الملا محمد عمر بكل فخر ويعتبره شخصية إسلامية فريدة في القوة و البأس والإصرار على الحق ، وكان يصر على إضافة صفة أمير المؤمنين مع ذكر اسمه ، وعلمت من الكثير من الأفغان العرب أنه كان يلتقي معه بشكل شبه دوري ، ويبدو أن أسامة بن لادن أثر كثيراً على شخصية الملا عمر الذي لم يكتب له أن خرج من أفغانستان وباكستان ، بينما كان ابن لادن الذي جاب العالم ورآه يستطيع أن يقدم الكثير من المشورة و والآراء للملا عمر .

كنت قد التقيت الملا عمر في العام 1995 في قندهار ، وذلك بعد لقاء لي اعتبر سبقاً صحافياً مهماً آنذاك مع أبي حمزة المصري المتهم الأول بمحاولة اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في أثيوبيا ، إذ التقيته آنذاك في كونار شرقي أفغانستان ، ونشرت اللقاء المطول في جريدة الحياة ، وكذلك تم بث مقاطع منه في محطة إم بي سي اللندنية .

بدا لي الملا عمر الذي كان حديث عهد بالزعامة والسلطة بسيطاً للغاية ، ورجلاً عادياً ، ولا يفقه ربما حتى القليل مما يدور في العالم ، ولكن شخصيته القندهارية إذا جمعت مع بشتونيته المتشددة ، وبقائه في المدرسة الدينية التي تحصر طالبها بين أربعة جدران وعدم إطلاعه على العالم أو سفره إلى دول أخرى جعلت منه متشدداً من الطراز الأول ، خصوصاً وهو الذي قرأ الكتب القديمة التي تصور وتبرز إسلام صدر الصحابة بعيداً عن فهم فقه الواقع ، و المشكلات الجديدة التي تعترض العالم الإسلامي وما يتهدد العالم بشكل عام .

كان اللقاء في القصر الأبدالي بوسط قندهار ، حيث اعتاد أحمد شاه الأبدالي مؤسس الدولة الأفغانية في العام 1747 والذي يطلق عليه الأفغان " درة دوران" أي درة العصر ، ظننت أنني سألتقي شخصية مهابة وعظيمة ، وعلى مكتب فخم ، ففوجئت بأن رفيقي معصوم أفغاني الذي غدا مفتياً للحركة في قندهار ، وكذلك مدير مكتبه وكيل أحمد متوكل الذي غدا بعدها وزيراً للخارجية يقودانني إلى باحة القصر التي كساها التراب والغبار ، وتوقفا تحت شجرة تحكي قصة أفغانستان منذ أكثر من

قـرن ، وربمـا غرسـها أحمـد شـاه الأبـدالي نفسـه ، فـرش معصوم أفغاني " الباتو الأفغاني " وهو رداء بطـول مـترين بعرض متر واحد ، وجلس بجانبي شخص بعين واحـدة ، كـان هذا الشخص هو الملا محمد عمـر الـذي أطلـق علـى نفسـه لاحقاً : " خادم دين رسول الله أميـر المـؤمنين الملا محمـد عمر مجاهد " . وإن كان التاريخ كتب أن السلطان العثمـاني عبد الحميد الثاني فقد عرشه من أجل فلسـطين فسـيكتب التاريخ ـ برأيي ـ أن ثمة شخص آخر في التاريخ فقد عرشـه ومملكته من أجل حماية شخص واحد هو أسامة بن لادن .

ووقعت لي في تلك الزيارة قصة طريفة يحسن أن أذكرهـا باختصار ، وهو أن بعض الطيارين الـروس والمتحـدرين مـن الجمهوريات التي كانت تحت حكـم الاتحـاد السـوفييتي قـد أسـرتهم حركـة طالبـان بينمـا كـانوا ينقلـون شـحنة مـن الأسـلحة بطـائرتهم مـن أوكرانيـا إلـى قـوات التحـالف الشمالي ، وتمكنت الحركة من إرغام الطائرة على الهبـوط وأسـرتهم ، وطلبـت فـي تلـك الزيـارة لقـائهم ، وبالفعـل تمكنـت مـن اللقـاء ولكـن كـان حـولي اثنيـن مـن الحـراس التـابعين للطلبـة ؛ فاسـتأذنتهم بتصـوير الأسـرى التسـعة فرفضوا وقالوا لي : التصوير حرام ، فقلـت لهـم إن هـؤلاء

كفـار ، ومـا يضـر التصـوير بعـد الكفـر ، فـردوا : عليـك أن تستأذن الملا عمر أو وزير الخارجية في ذلك ، فطلبـت مـن أحدهما أن يذهب ويستأذن لي ، وبقي واحد فقط ؛ فطلبت منه كوباً من الماء ، وذهب بالفعل لإحضـار المـاء ، فظللـت وحدي ، وحينها اغتنمت الفرصة ، وبدأت ألتقـط عـدة صـور ليأتي الـذي تـوجه إلـى الملا عمـر ووزيـر الخارجيـة برفـض الطلب ، أما الذي أحضر الماء فقد جاء بعد خراب البصرة أو بعد التصوير ، والمفاجأة أنه سألني هل صـورتهم فقلـت لا لم يحصل ذلك ، لأنشر الصورة بعد أيام في صـحيفة الحيـاة اللندنية التي كنت أعمل فيها ._

الصلاة في الصف الثاني :

كان وقت الظهر قد اقترب ، ومـا علـى الجميـع إلاّ أن يتهيئوا للصلاة ، فنهض ابن لادن ونهضنا جميعاً لنستعد إلى صلاة الظهر ، وبدا لي أن أسامة مـا يـزال يحتفـظ بوضـوئه طوال فترة جلوسه الـتي دامـت أكـثر مـن ثلاثـة سـاعات ، وهي مؤشر على الصحة التي يتمتع بها ، إضافة إلى أنه لـم

يقم إلى الحمام أبداً خلال جلسته الطويلة هذه ، وهو ما تيقن لي حينها أن مسألة الحديث عن تدهور صحته بين الفينة والأخرى ما هي إلاّ اختلاق ، ولها حسابات خارج الحقيقة والواقع ، وبعد أن أدى ابن لادن ركعتي سنة صلاة الظهر، كان شخص يبدو أنه سعودي هو الذي تقدم إلى الإمامة التي يراها الإسلاميون أن الأحق بها هو القارئ وحافظ القرآن والأعلم بدين الله ، وبالتالي فهناك من يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، وهو ما لا يملكه أسامة بن لادن ، ورغم إلحاح المصلين على أن يصلي ابن لادن في الصف الأول فقد رفض وصلى في الصف الثاني ، باعتباره قد جاء إلى الصلاة بعد أن كان الصف الأول قد امتلأ ، ولم يعد له مكاناً فيه ، إلاّ إذا تخلف أحدهم ومنحه مكانه ، فكان أن أدى ابن لادن صلاة السنة في الصف الثاني ، ولا شك فإن رفضه أخذ مكان أحد في الصف الأول تواضع ، وهو ما عززه روايات كثيرة حكاها لي الأفغان العرب آنذاك عن تواضعة ، وحرصه على ألاّ يكون مميزاً عن أتباعه وناشطيه الآخرين .

لمست من خلال الزيارتين اللتين قمت بهما إلى قندهار وكابول ، والتقيت فيهما مع ابن لادن بأنه لا يحب التميز

عن رفاقه ، ويحرص على أن يكون كواحد منهم في الطعام واللبـاس ، ولـذا لا تجـدد فرقـاً فـي اللبـاس بينـه وبيـن الآخرين ، ولعل هذا محل إعجاب الأتباع به وثقته بهم كـونه واحداً منهم .

الغداء ذبيحة :

ما أن فرغ الجميع من صلاة الظهر حتى انتحـى أسـامة بن لادن بأبي حفص المصري في غرفة أخرى وجلسنا نحـن في الصالون حتى تم تقديم الطعـام الـذي كـان عبـارة عـن خروف نحره أفراد أسـامة كـدليل علـى كـرم الضـيافة كمـا حرصوا علـى القـول لـي بـأن الشـيخ أمـر أن ينحـر خروفـاً للضيف ، وهو كرم عربي قـديم بـأن الضـيف لا يشـترى لـه اللحم من السوق ، وإنما ينحر له في البيت ، وهو ما يحرص أسامة على فعله مع كل ضيوفه وزواره ، بدأ فرش السفرة البلاسـتيكية علـى الأرض فـي الصـالون لتتسـع إلـى كـل الموجودين ، ثم تم فرش الخـبز الأفغـاني مـن قبـل الخـدم الأفغان الذي يتقن معظمهم اللغـة العربيـة أو علـى الأقـل

بإمكانهم أن يفهموا أو يتفاهم مع المقاتلين العـرب ، وبعـد قليل جيئ بالأرز المكلل باللحم والمرق ، وأذن أبو عبد اللـه " أسامة بن لادن " للحاضرين بالطعام ، فتقدم الجميع كـأن علـى رؤوسـهم الطيـر، وهـم يـأكلون وأسـامة يسـعى إلـى توزيـع بعـض اللحـم علـي ، ويحـرص علـى تفـتيت وتقطيـع اللحم بنفسه ، وهي إشارة عربية أخرى على كرم الضيافة ، وما أن لحظ أسامة أن الجميع قـد فـرغ مـن طعـامه تـأخر عن السفرة حامداً الله فرفعت السفرة وقـدمت الفاكهـة ، ثم تم تنظيف ما تبقى من طعام على السفرة لتوزع أكواب الشاي علـى الجميـع ، وهـي آخـر مـا يتـم عرضـه فـي هـذا المجال ، ليستأذن أسامة من الحاضرين ويودعنا قـائلاً لـي : إلى لقـاء آخـر يمكـن فيـه نشـر المقابلـة ، وسـريعاً لمحـت العديـد مـن الحـراس الخليجييـن وقـد قفـزوا مـن غرفهـم وأماكنهم إلى قرب السيارة اللاندكروزر السوداء التي كانت بانتظاره حيث السائق في داخلها ، والحـراس مـن حولهـا ، وركب أسامة ملوحاً بالسلام على الجميـع ، ومـا أن خرجـت السيارة من داخل البيت حتى رأيت بعـض الجيـران الأفغـان ينظرون بفضول ، وكأنهم أحسوا أن شخصاً مهمـاً ، وربمـا تيقنوا أنه أسامة في هـذا الـبيت مـا دام العـرب هـم الـذين

يقطنون فيه ، غاب أسامة وبدأنا نرتب عملية السفر إلى قندهار ، ومنها إلى باكستان ، وبدأت رحلة عذاب أخرى ستستغرق أكثر من 13 ساعة في طريق ربما من الظلم تسميته بطريق .

العودة إلى قندهار :

قررت مع رفيق الدرب أبي عثمان المصري العودة إلى قندهار ، لكن في اليوم التالي إذ تأخر الوقت الآن ، وهو ما سيسمح لنا بالتجوال في شوارع كابول هذه الليلة لأستعيد فيها ذكريات ماضية ، إذ أنني لم أدخلها منذ العام 1997 ، ومشيت في شوارع مغبرة لم يغسلها لا البشر ولا المطر منذ فترة طويلة ، وبدت وجوه القوم شاحبة ، وعيونهم تراقب أي أجنبي ، بينما المتسولات في الشوارع منتشرات بشكل لافت في ظل أكل الحرب لأزواجهن ، فمن لم تقض عليه الحرب مع السوفييت ، أتت عليه الحروب الأهلية بين فصائل المجاهدين والأفغان أنفسهم ، والتي أكلت الأخضر واليابس .

لم تكن كابول هي نفسها التي سمعت عنها أو قرأت عنها قبل الحرب ، ولكن رغم توافر الأمن والاستقرار الذي شهد به الجميع يومها لحركة طالبان ، إلاّ أن الكل يجمع على أن عجلة التاريخ قد توقفت أو أوقفتها حركة طالبان ، فالأغنياء الأثرياء تركوا البلاد ، وكذلك المثقفون الذين هم بمثابة المحرك لعجلة الاقتصاد و السياسة والاجتماع والتعليم والحياة بشكل عام ، وهي المشكلة الأساسية التي تعانيها وتشكو منها كابول في تلك الأيام .

أمضينا ليلة كاملة في نفس البيت ، وتحركنا صباحاً إلى قندهار العاصمة الروحية لحركة طالبان ، كان الطريق موحشاً للغاية ، وما يزيد من وحشته أنك تسير الساعات لا ترى عوداً أخضر ، فالجفاف هو العنوان المتفق عليه في أفغانستان الحرب الأهلية ، توقفنا قليلاً في مدينة غزني وعلى الطريق الرئيسي تناولنا طعام الغداء ، واسترحنا قليلاً لنواصل المسير إلى قندهار لنصلها مساءً ، حيث أمضينا ليلتنا في أحد بيوت المقاتلين العرب حتى الصباح ، ونقضي ليلة وسط الأفغان العرب ساعياً ما سمحت به الظروف للتعرف على تفكيرهم وطموحاتهم في ظل هذه الأجواء الصعبة للغاية ، بعيداً عن الأهل والأوطان ، كان

الكل يتحدث عن تغيير البيوت ، وانهمك الجميع في تغيير بيوته ونقل متاعه من بيت إلى بيت آخر ، إذ أن الأجواء كانت تتوقع ضربة أميركية رداً على تدمير المدمرة الأميركية يو إس كول في عدن ، باعتبار أصابع الاتهام الأميركية توجهت على الفور لتنظيم القاعدة ، خصوصاً بعد عملية المداهمات والاعتقالات لأشخاص يمنيين يشتبه في علاقتهم بالحادث وتنظيم القاعدة ، مشفوعاً بتلميحات صدرت عن ابن لادن وأعوانه تشير إلى مسئوليتهم عنها .

كانت شوارع قندهار وكأنك تمشي في مدينة أثرية قديمة ، حيث لا حياة ولا حركة يؤمها السواح من أجل رؤية ومشاهدة الأطلال ، و يعود عمرها إلى آلاف السنين ، بينما كان مرور أي سيارة أو " طنبر " أو حتى دراجة سيرسل عاصفة غبارية تجعل السائق ينتظر حتى ينقشع الغبار ليواصل سيره ، وإن كان مجرد المشي على الرجلين كفيل لوحده بتغبير لباسك ، ولم تعد قندهار تلك المدينة التي كانت مشهورة بالرمان ، فقد تراجع طعم وشكل الرمان الذي كان سائداً وقت السلم ، إذ كان يصار إلى تصديره إلى الخليج ، وكذلك إلى الهند ، ولكن لم يعد هناك رمان يطعم أهله ووطنه فضلاً عن تصديره إلى الخارج .

كـان مـن العـادي والروتينـي أن أرى الأفغـان العـرب فـي شوارع قندهار ، وكأنهم مـن أهـل البلـد نفسـه ، ولعـل مـا يمايزهم فقط عن الأفغان الأصليين هو عدم إتقـان البعـض منهم للغة المحلية البشتو ، أما المشي واللبـاس والتحـرك والحرية في التنقل كله يشير إلى أنهم غدوا أفغاناً ، وربمـا بشـكل أدق أصـبحوا قنـدهاريين الـتي تعـد معقـل وأبـو أفغانستان البشتون .

لم ألمس نفرة أفغانية تجاه العرب الموجودين هناك ، ربمـا يعـود ذلـك إلـى أن طالبـان مـن المدينـة ولـديها السـلطة والسطوة ، وبالتالي الكل يحترم ضيف طالبان أو خائف من ضيفها كما هو خائف منها ، لم أبحث عن السبب الذي رأيته على الأقل ظاهراً مـن خلال جولـة سـريعة فـي المدينـة أن القندهاريين غير مرتاحين للعرب ، ولكن الكل فـي قنـدهار كـان مرتاحـاً إلـى ارتفـاع أجـور الـبيوت الـتي يسـتأجرها العرب ، وكذلك الدخل والصـرف العربـي الـذي يضـخ المـال في المدينة ، وهو أمر يحرك شيئاً من الاقتصـاد القنـدهاري الراكد والمتوقـف ، لقـد علمـت أن أجـور الـبيوت ارتفعـت أضعافاً مضاعفة بسبب وصول العـرب إلـى تلـك المنطقـة ، والتي لم يكن يتوقـع أحـد أن يكـون هنـاك غلاء ف ي أسـعار

البيوت وآجارها بتلك المنطقة تحديداً ، وكان الأفغاني المحظوظ هو الذي يقوم بتأجير بيته إلى العربي الذي سيقوم بدوره في تحسينة بناءً و دهاناً ، الأمر الذي سيظهر البيت في أفضل حلة ، ولذا لم أستغرب حين سمعت بعد تخلي طالبان عن قندهار في 7 ديسمبر " كانون ثاني " أن القندهاريين كانوا يقفون على أبواب البيوت التي استأجرها العرب منتظرين رحيلهم ، حتى يستولوا على متاعهم الذي من الصعب نقله معهم وهم في ذلك الظرف الصعب .

أسامة بن لادن والطائرة الهندية المخطوفة :

في أواخر شهر ديسمبر " كانون أول " عام 1999 خطف مجهولون الطائرة الهندية التي كانت متجهة من كاتمندو عاصمة النيبال وهي في طريقها إلى الهند ، وسعت الطائرة في البداية إلى الهبوط في مطار لاهور لكن باكستان رفضت العرض خشية أن يؤدي ذلك إلى

مواجهة هندية – باكستانية ، فتوجهت الطائرة إلى أفغانستان ، وهبطت في مطار قندهار حيث كانت حركة طالبان تسيطر على أفغانستان ، وبعد مساومات توجت بوصول وزير الخارجية الهندي جاسوانت سنغ تم الإفراج عن عدد من المعتلقين الباكستانيين في السجون الهندية مقابل الإفراج عن الرهائن ، وكان من بين المفرج عنهم الشيخ مسعود أظهر ، والذي أسس لاحقاً حركة جيش محمد في كشمير ، وكذلك عمر شيخ سعيد الذي سيلمع اسمه في قضية خطف وقتل الصحافي الأميركي واليهودي الأصل دانيال بيرل ، وحسب مصادر الأفغان العرب الذين التقيتهم خلال تلك الزيارة فإنه حالما تم الإفراج عن مسعود أظهر والشيخ عمر سعيد وغيرهما ووصولهما إلى قندهار ، أقام أسامة بن لادن مأدبة غداء كبيرة نحر فيها العديد من الذبائح على شرف المفرج عنهم حضرها بعض المشايخ الباكستانيين الذين حضروا من باكستان خصيصاً لهذه الغاية ، وكذلك بعض المسؤولين الطالبانين ، يبدو الآن عرف سبب هذا الاحتفاء الذي حظي به أظهر وعمر شيخ ، وحتى أن بعض المصادر العربية ذكرت حينها أن مسعود أظهر كان معروفاً لدى بعض الأفغان العرب منذ

أيــام الجهــاد الأفغــاني ضــد القــوات الســوفييتية فــي الثمانينيات .

أحد الأفغان العرب المقرب على ما يبدو لأسامة ذكر لي أن تتابع الزيارات وكثرة الضـيوف الـذين جـاءوا يومهـا للسـلام على الشيخ أسامة ربمـا بحجـة وجـود مسـعود أظهـر كـانت ضـخمة للغايـة ، ووصـل الأمـر إلـى المئـات ، حـتى ألغينـا الاستقبال لأسباب أمنية ، فالأوضاع كما تعرف صعبة للغاية ، ولا يمكن ضبط الأمور بشكل كامل في هكذا ظروف .

كـان الشـيخ عمـر سـعيد المتهـم بخطـف وقتـل الصـحافي الأميركي دانييل بيرل مراسل الـوول سـتريت جورنـال قـد اعترف خلال التحقيقات التي نقلتها صـحيفة ذي نيـوز فـي تاريخ : 18-2ـ 2002 بأنه زار جلال آباد بعد أيام من أحـداث الحادي عشـر مـن أيلـول فـي الهجمـات الـتي نفـذت علـى واشنطن ونيويورك والتقى أسـامة بـن لادن وبعـض رفـاقه من الأفغان العرب ، وبحسب الشخصين الذين قبض عليهما بتهمة إرسال صورة بيرل عبر البريد الإلكتروني فإن سـعيد يحظى باحترام وسـط المقـاتلين العـرب فـي أفغانسـتان ، ولدى حركة طالبان الأفغانية ، لكن مـع هـذا فـإن الصـحيفة

نقلت عن مسؤول أمني باكستاني رفيع قوله بأنه لا يعتقـد أن عمر عضو فاعل في تنظيم القاعدة .

الشيخ عمر سعيد شاب فـي الثامنـة والعشـرين مـن عمـره ،كان درس في كلية الاقتصاد والسياسة في جامعـة لنـدن ، وحصـل علـى الجنسـية البريطانيـة ، وتعـرف علـى الشـيخ مسعود أظهر في السجن حين اعتقـل فـي الهنـد لسـنوات حتى تم إطلاق سـراحه فـي عمليـة تبـادل رهـائن الطـائرة الهندية في قندهار .

في بيت أبو حفص الموريتاني :

كما يقال عند العرب : " الضيف أسير المعزب " وبالفعـل اقترح علي أبو عثمان أن نبيت ليلة عند " الشيخ أبي حفـص " فظننـت أنـه أبـو حفـص المصـري ، وفرحـت أكـثر لعلـي أستطيع أن أكمل ما تبقى ، وبدأت أسرح بعيداً هـل سـبقنا أبو حفص إلى قندهار ، وحين سألته هـل تقصـد أبـو حفـص المصري بدد أملي بالقول لا .. فإن المقصود به هـو الشـيخ أبـو حفـص الموريتـاني ، وهـو مـن المشـايخ المعروفيـن

والمقربين من طالبان ، ويدير معهد الدراسات العربية من أجل نشر اللغة العربية وتعليم الأفغان ، وخاصة القيادات منهم اللغة العربية ، هكذا قدمه لي مرافقي ، وأخبرني أبو حفص الموريتاني خلال اللقاء أن كثيراً من قادة الأفغان المقربين من الملا محمد عمر يتعلمون عنده اللغة العربية ، بالإضافة إلى إعطائهم دروساً في العلوم الشرعية وهو ما ينقص الكثير من قياداتهم .

أبو حفص الموريتاني يعد الشاعر الذي ينظم قصائد عادة ما يلقيها أسامة بن لادن ، شاب نحيف وقور في الثلاثينات من عمره ، قصير القامة وأسمر ، وذو لحية صغيرة ، ولكن علامات النجابة على وجهه ، يتحدث بهدوء ، ولا يكثر من الكلام ، ويحظى بقرب ولصق مع الأفغان ، ولذا فقد منحوه بيتاً جميلاً في وسط قندهار ، وكونه على المذهب الحنفي وهو نفس المذهب الذي يتمذهب به الأفغان فقد منحه ذلك ميزة القرب والعلاقة مع الأفغان لتمسكهم بمذهبهم .

حديث سريع عن أبي زبيدة :

لم يكن أبو زبيدة الذي برز اسمه فـي أعقـاب مقتـل المسؤول العسكري للقاعدة أبـو حفـص المصـري شخصـية مهمة لي حيـن كنـت فـي أفغانسـتان ، رغـم أننـي سـمعت البعض من الأفغان العرب يتحدثون عنه وكأنه يشـرف علـى شـؤون التـدريب والمتابعـة ، وربمـا مقربـاً مـن المسـؤول العســكري المصــري الســابق ، وبعــد أن بــدأت القــوات الأميركية تزيد اهتمامهـا بـه وباسـمه سـعيت إلـى تـذكر مـا سمعته عنه ، وشفعتها بـالتوجه إلـى بيشـاور لأقابـل بعـض الذين عرفوه من جيرانه أو من بعض الأفغـان العـرب ، أملاً في تشكيل صورة معينة عنه ، وكشفت تحريات وتحقيقــات قمت بها ونشرت بعضها في جريدة الحياة اللندنية الصـادرة فــي تاريــخ : 18-2-ــ 2002 بــأن أبــا زبيــدة الفلســطيني المعـروف باسـم زيـن العابـدين بـن علـي شخصـية تتسـم بــالغموض ، لكنهـا كـانت تتميـز بالمقابـل بالمحبـة وســط الأفغان العرب الـذين عاصـروا فـترة الجهـاد الأفغـاني فـي الثمانينيات ومطلع التسعينيات ، ويقول أحد الأفغان العرب القدامى الذي عرف أبو زبيدة : " كان شخصية عادية تتســم بالهدوء ونوعاً من الغموض والثقة بالنفس ، واستطاع نسج علاقات متميزة مع كثير مـن الخليجييـن الـذين قـدموا إلـى

الجهاد ، نظراً إلى أنه ولد من عائلة فلسطينية ثرية في السعودية ، وهو رجل عملي يحب أن ينفذ كل شيء بنفسه دون الركون إلى الآخرين ."

كان اسم أبو زبيدة أو " زين العابدين " و الذي هو في أواخر الثلاثينيات من عمره قد برز خلال السنوات القليلة الماضية وتضاعفت أهميته بعد أن تحدثت الأوساط الأمنية الأميركية على تسلمه منصب المسؤول العسكري في تنظيم القاعدة بعد مقتل أبو حفص المصري" محمد عاطف " في قصف أميركي على مدينة قندهار جنوب غرب أفغانستان مع أكثر من اثني عشر شخصاً من الأفغان العرب .

ويصف من رأى أبو زبيدة بالقول : " شاب قوي البنية رياضي الجسم ، أقرب إلى النحافة ، وأسمر ، ووجه غير ممتلئ ، ويصل طوله إلى 175 سنتيمتر تقريباً ، وكان يعرف عنه الهدوء وعدم التضجر من أي تصرف مسيء ، مع خدمة رفاقه و التعاون على حل مشاكلهم بطريقة عملية و ميدانية بعيداً عن التنظير ."

وبينمـا نفـى الكـثيرون تعمقـه فـي القـراءة الشـرعية أو السياسية ونحوها إلاّ أنهم يصرون على أنـه دقيـق المتابعـة للأخبار من خلال الإذاعات و الصحف .

وكشفت مصادر باكستانية أمنيـة فـي بيشـاور أيضـاً أن أبـا زبيدة الفلسطيني ربما جـاء فـي منتصـف الثمانينيـات إلـى باكسـتان بهـدف الجهـاد حيـن كـان زعيـم تنظيـم القاعـدة أسامة بن لادن قد بدأ يستعد حينها للعمل بشـكل مسـتقل عـن الأفغـان العـرب الآخريـن ، و الـذي تمثـل حينهـا فـي تأسيسه مأسدة الأنصار خلال معـارك جـاجي الشـهيرة فـي رمضان من العام 1987 .

يبدو أن أبا زبيدة طوال فترة الجهاد الأفغاني الذي كان فيه صغيراً في السن نسبياً لم يكـن يـتردد كـثيراً علـى بيشـاور التي أطلقت عليها بعض الأدبيات العربيـة آنـذاك بــ " بوابـة الخلافة المفقودة " ، ولذا فقد ظهـر نشـاطه بيـن الشـباب العرب مطلع التسعينيات .

ويقول أحد الباكستانيين الـذين كـانوا يقطنـون فـي نفـس الحي الذي سكن فيه أبو زبيدة الفلسطيني : " كان شخصـاً عادياً ودوداً ، يمتلك سيارة عادية وقديمة نسـبياً مـن طـراز

تويوتا ، ويسلم على الجميع حين خروجه ودخوله إلى البيت ، ولم يكن هناك ما يستدعي القلق في شخصيته ، فقد ظهر لنا أنه عادي ، ولكن كان يتردد عليه الكثير من الشباب العرب وبقي في هذا الحي فيز أربع من ضاحية حياة آباد الراقية في بيشاور حتى العام 1997 ."

وكانت السلطات الأمنية الباكستانية بدأت في ذلك الوقت حملة مطاردات ومداهمات ضد الأفغان العرب ، وخصوصاً من يشتبه في علاقته بنسف السفارة المصرية في إسلام آباد .

ويشدد كل من التقيته على أن أبا زبيدة لم يعمل أبداً مع منظمات الإغاثة العربية العاملة وسط اللاجئين الأفغان ، والتي يصل عددها إلى الخمس عشرة منظمة ، وهو ما يشير إلى أنه كان منذ البداية مشغولاً بأجندة أخرى وهي العلاقة مع القاعدة ، إذ كان يلعب حسب بعض المصادر العربية في بيشاور دور : " التحريض على التدريب " ، خصوصاً و قد أفادته إقامته في السعودية على نسج علاقات مع الشباب الخليجيين الذين كانوا يترددون على بيته ، والذي كان بمثابة بيت للضيافة . ويقول مصدر أمني باكستاني " حين علمنا بخطورته في منتصف العام 1997

لجأنا إلى اعتقاله ، لكنه لم يكن في البيت ، وربما أحس بذلك فاختفى ، ولكن علمنا لاحقاً أنه عبر الحدود الباكستانية إلى أفغانستان حيث تسيطر حركة طالبان الأفغانية على السلطة في كابول منذ العام 1996 وهي التي وفرت الملاذ لكل الأفغان العرب بمن فيهم زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن .

وتقول بعض الأوساط الأفغانية المطلعة " سمعنا الكثير قبل سقوط حركة طالبان الأفغانية أن أبا زبيدة كان يتجول في الشرق الأفغاني ، وقد نسج علاقات قوية مع قبائل أفغانية ، بالإضافة إلى إشرافه على تدريب الأفغان العرب ف ي معسكرات تدريب أقيمت منذ أيام الجهاد الأفغاني وتحديداً في منطقة " خلدن " و سلمان الفارسي وغيرها .

لكن ستبقى مسألة تسلمه هذا المنصب الحساس في القاعدة محل تكهنات وتوقعات في ظل تكتم القاعدة على أسماء مسئوليها أولاً ، وعدم الكشف عن مناصبهم ، إذ أن أسامة بن لادن لم يعلن بشكل رسمي وعلني أنه زعيم تنظيم القاعدة فكيف غيره .

الفصل الثاني

شاهد على عرس نجل
أسامة بن لادن

يوم كامل عاشه صحافي
مع زعيم تنظيم القاعدة

كان يوماً عادياً من أواخر أيام شهر فبراير " شباط " من العام 2000 حيث الاستعداد للذهاب إلى الحج لأداء الشعائر المقدسة على أشده لعباد الله كلهم ومن بينهم عائلتنا ، فقد اعتادت زوجتي سنوياً على الإلحاح علي بأداء هذه الفريضة لكن مع اقترابها كانت تتخوف في أن يحول حائل صحافي دون أدائها ، وبدأت تضرب لي أمثلة على الأعوام الخوالي ، وكيف حالت عوارض صحافية و تغطيات إعلامية دون التوجه إلى مكة المكرمة ، لكن كنت أحرص على تبديد مخاوفها هذه بأن بداية العام الحالي تبدو مشجعة لأداء هذه الفريضة لتضرب بذلك عصفورين بحجر واحد أداء الفريضة أولاً و أخيراً إلى جانب رؤية شقيقتها المتزوجة هناك " وليشهدوا منافع لهم " كما قال الله تعالى ، وبينما نحن نتجاذب الحديث عما سنفعله هناك وكيف سنقضي العيد مع الأقارب في المملكة رنّ الهاتف ... وتقطب حاجبي الزوجة التي تتخوف من كل رنة تلفون يقطع عليها فرحة الحج ورؤية شقيقتها ، حتى وجدتني بدوري أيضاً أن وجهي قد تغير وانتحيت جانباً ، ثم إلى غرفة العمليات في مكتب البيت الذي كان بمثابة كابوس لها وللأولاد ، وما هي إلاّ دقائق حتى خرجت من

المكتب والزوجة المسكينة تنتظر على أحـر مـن الجمـر مـع الأولاد وكأنهم بانتظـار انفـراج غمـة عـن أم تريـد أن تضـع مولودهـا ، أو عـن شـخص ينتظـر خـروج مريـض مـن تحـت عملية جراحية خطيرة فقلت لهم " هـدؤوا مـن روعكـم ، " لكنهـا كلمـة لا تعنـي لهـم شـيئاً إلاّ أن المحـذور وقـع ، فاستشاط الجميع في وجهي غضـبا وقـالوا هـل حصـل مـا يعكر السفر ؟ وهل انقلبت الأمور فـي باكسـتان أو النيبـال حتى تحرمنا من الذهاب إلى المملكة ؟!! فقلت لهم ما هي إلاّ أياماً وسأعود من أفغانستان ، فكانت الطامـة الكـبرى إذ أن التـوجه إلـى تلـك الـديار انقطـاع عـن العـالم كلـه ، فلا هواتف ولا نقل سريع ، وما على المرء حين يدلف إلى تلـك البلاد إلاّ أن يكسر ساعته وينتظر فرج الله .

أبو عثمان على الخط :

كان الشخص الذي على الخط الآخر هو أبو عثمان كمـا قـدّم نفسـه لـي مؤكـداً أنـه مـن "طـرف الأخـوة فـي أفغانستان " وهو تعبير طالما اعتاد العرب علـى اسـتخدامه

لأفراد القاعـدة وجماعـة ابـن لادن ، ويريـدني أن آتـي إلـى كويته الباكستانية في أقرب فرصة ممكنة ليتـم نقلـي إلـى داخل أفغانستان لأمر مهم وعلى الفور ، وكعادة الصـحافي سألته هل سأجلب معي المعـدات التصـويرية ؟ فقـال : لا ، تأتي لوحدك فقط ، ونحن بانتظارك ، وسنعرفك أو سنكتب لوحة يحملها شـخص مـا فـي المطـار ، وبـدأت علـى الفـور بالتفكير فـي الرحلـة ، وهـل سـتكون مهمـة أم أن الأمـر لا يعـدو أن يكـون ذهابـاً إلـى أفغانسـتان ، ولكـن مجـرد رؤيـة الأفغان العرب مكسب وسبق صحافي لا يتعفف عنـه أحـد ، وإن كان هاتف داخلـي ينـاديني بـألاّ أذهـب ، خصوصـاً و أن صورة الصحافي العربي في أذهان القوم أو قسـم منهـم ــ على الأقل ـ ربما تعادل العميل للمخابرات ، والموظف لدى الأجهزة الأمنية العربية ، لكن قطعت سلسلة أفكاري وبدأت التفكير جدياً بطريقة السفر ، فهل أسافر عن طريق الأمم المتحـدة بطائرتهـا مـن إسـلام آبـاد إلـى قنـدهار ؟ ولكـن الطائرة لديها رحلتان أسبوعياً ، و نحن الآن في الخميــس ، والرحلة المقبلة يـوم الأحـد ، ومـن الصـعب الحصـول علـى تأشـيرة سـفر مـن السـفارة الأفغانيـة للإجـراءات الطويلـة الـتي تحتاجهـا التأشـيرة وأولهـا موافقـة وزارة الخارجيـة

الأفغانيــة فــي كــابول علــى الزيــارة ، بالإضــافة إلــى أن السـفارة لـديها عطلـة يـومي السـبت والأحـد ، وأي تـأخير سيعني أن السفر إلى الحج قد ألغي ، إذ أمامي فقط سبعة إلى ثمانية أيام لألحق بآخر رحلـة طيـران تغـادر الباكسـتان إلى المملكة ، فعزمت على التوجه صباحاً بطـائرة الــ " بـي آي إيه " الباكستانية من إسلام آباد إلى كويته ، وفـي صـالة الدرجة الأولى اتخذت مكاناً ، اقـترب منـي النـادل ليسـألني ماذا تشرب ؟ كنت شارد الفكـر ، ومحلقـاً فيمـا قـد يحصـل إلي ، وسلسلة الأسئلة لا تتوقف في ذهني ، ما هي طبيعـة الدعوة ؟ وهل سأقابل أسامة بن لادن ؟ أم أنها مجرد رحلة استطلاعية ؟ ولماذا وقع الاختيار علـيّ تحديـداً ؟ فـإن كـان المطلوب الجزيرة فهناك مراسل للجزيرة هو الزميل تيسير علوني في كابول ؟ ولم يقطع سلسلة الأسئلة سوى النادل الذي كان ما يزال واقفاً بجـانبي ليعيـد السـؤال علـي مـاذا تشـرب سـيدي ؟ فاعتـذرت لـه بـالقول : قهـوة ، فأسـرع المسكين الذي وقف لبرهة ليست قصيرة وليحضـر القهـوة أملاً في رمي ببعض الروبيـات الباكسـتانية مـع الفـراغ مـن شرب القهوة ، وبدأت أرتشف القهوة ، لكن ذهني ما يــزال يحلق في طبيعة الرحلة ، و الصعوبات التي قد تصادفنا في

المطار ، فهل سيكون أحد بانتظاري ؟ وهل سأعبر الحدود بسهولة ؟ ومتى سأقابل أسامة بن لادن ؟ وما هي نظرة الأفغان العرب إلى صحافي مثلي ؟ خصوصاً وأنه حسب ما أعلم فإن نظرتهم إلى الصحافي ربما تكون أقرب إلى نظرتهم لرجال الأمن ، فبعضهم لم يسرها مرة أمامي حين قال : بأنه لا فرق بين رجال الإعلام والأمن ، وبالتأكيد فمن الظلم تعميم هذه النظرة على كل الأفغان العرب ، وفي ظل تزاحم هذه الأفكار جاءني النادل نفسه ليقول لي سيدي إلى الطائرة ، فحملت متاعي القليل واتجهت إلى الطائرة بخطى سريعة وكأنها ستسرّع من الرحلة لتنتهي على خير ، وأخيب توقعات زوجتي التي جزمت لي قبل الوداع أن رحلة قندهار ستنغَص عليها السفر إلى الديار المقدسة ، وأنا أقول لها : لن يحصل هذا غير مرة ، وإن كنت في داخلي أعتقد بمثل ما تعتقد به هي . ولذا فقد كنت طوال الرحلة أعيش هاجس اللحاق بآخر طائرة إلى المملكة لعلي أؤدي الفريضة هذا العام وألبي رغبة الزوجة والأولاد .

<u>الطريق إلى كويته :</u>

مدينة كويته الباكستانية التي تقطنها عرقية البلوش معروفة بتعاطفها مع الشعب الأفغاني لأسباب عديدة على رأسها العامل العرقي ، إذ تتشاطر شريحة واسعة من الشعب الأفغاني عرقية واحدة مع البلوش الباكستانيين ، بالإضافة إلى أن انتفاضة الشيوعيين الباكستانيين في منتصف السبعينيات ، والتي طالبت بدولة بلوشية باكستانية حين كان محمد داوود في السلطة 1973 ـ 1978 تلقت دعماً ومساندة لامحدودة من داوود ضد حكم ذو الفقار علي بوتو ، فقد كان الشيوعيون متنفذين في حكومة داوود آنذاك ، وحظي المطلب البلوشي الباكستاني بدعم سوفياتي ، وهو من شأنه أن يمنح موسكو منفذاً على الشواطئ العربية الدافئة ، وهو حلم طالما داعب مخيلة الملكة كاترين الثانية الروسية أيام حكم القياصرة ، وذلك في أن تمتلك يختاً على تلك الشواطئ .

كويته لم تتطور كثيراً خلال الجهاد الأفغاني رغم احتضانها لمئات الآلاف من اللاجئين الأفغان ، فقد انصب الدعم و المساندة لأسباب يطول شرحها الآن على بيشاور التي

أطلقت عليها بعض الأدبيات العربيـة أيـام الجهـاد الأفغـاني 1979 ـ 1989 بـ" بوابة الخلافة المفقودة " .

الرحلة بالطائرة من إسلام آباد إلـى كـويته تبلـغ السـاعة ، ولكن المخاوف ما تزال تتقاذف في ذهنـي ، وأسـئلة تـروح وتأتي مـن سـألتقي هنـاك ؟ وكيـف سـيكون الانتقـال عـبر الحدود ؟ وكذلك العودة ومـن سـألتقي ؟ ومـا هـي الصـيغة التي سأنقل فيها الخـبر ؟ وهـل سـأتمكن مـن أداء فريضـة الحج هذا العام ؟ كلها أسئلة كانت تطاردني كظلـي ، لكنهـا بددتها غفوة مني في الطائرة ، فاسـتيقظت علـى أصـوات المسافرين الذين بـدؤوا بـالهبوط فأخـذت متـاعي ونزلـت بسرعة ، وما أن خرجت من المطـار وعينـي كـالرادار تتـابع لوحة يحتضنها شاب أفغاني حسب الوصف مكتـوب عليهـا " أحمد زيدان " فعثرت على شاب متوسط القامة وأقرب إلى هيئة الصـعايدة أو اليمنييـن ، فقـدم نفسـه علـى أنـه " أبـو عثمان الصعيدي " في منتصف الثلاثينات مـن عمـره ، فقـد رآني على شاشة الجزيـرة غيـر مـرة ، وقـال لـي بـأنه هـو الـذي سـيرافقني فـي الرحلـة ، وعلـى السـريع اسـتأجرنا سيارة مع مرافق أفغاني لتغب السير باتجاه تشمن الواقعة على الحدود الأفغانية ـ الباكستانية , وتمت المساومة علــى

السريع مع السائق الذي طلب حوالي الألف روبية باكستانية ، أي ما يعادل العشرين دولاراً لإيصالنا إلى تشمن الحدودية الباكستانية ، ومنها سيكون الانتقال بطريقة غير قانونية ، أي التهريب إلى أفغانستان ، وهي مسافة لا تتعدى الكيلومترات ، لنتوجه بعدها إلى سبين بولداك الأفغانية ، ومن هناك إلى قندهار حاضرة " أمير المؤمنين الملا محمد عمر خادم دين رسول الله " كما يعرفه أتباعه وأنصاره ، ويحلو له أن يمهر توقيعه على القرارات والفرمانات التي يصدرها .

<u>المحطة في مطار قندهار :</u>

ما أن استقلينا السيارة مع أبي عثمان الذي بدا عليه الهدوء مع عبارات الترحيب و التهليل ، والتي تشعر الطرف الآخر بمزيد من القرب والأنس في محاولة حثيثة من مرافقي للتدليل على أنهم ليسوا بإرهابيين وإنما أناس عاديون لبوا نداء الجهاد كما يقول : " للدفاع عن حرمات الأمة الإسلامية التي تنتهك بشكل يومي في كل

أرجاء الأرض دون مغيث أو مدافع عن هذه الحرمات " ، لكن كنت في وضع المستمع والمهتم بكل شاردة وواردة من الحديث فضلاً عن قراءة القسمات والإشارات والتلميحات التي تصدر عن لغة الجسم ، و التي هي في مثل هذه المواطن أهم من كل اللغات الحية التي تسعى أحياناً إلى تضليل الواقع لكنها غالباً لا تغير منه شيئاً .

على كل حال الطريق طويل ومزعج ، مليء بالحفر ، فغالباً ما يطرق الرأس في سقف السيارة " التاكسي " كل نصف دقيقة ، وربما أقل بسبب وعورة الطريق ومساعي السائق الحثيثة التي ترمي إلى الوصول قبل غروب الشمس لتفادي إغلاق بوابة الدخول إلى أفغانستان ، وهو ما قد يجعل سماح حرس الحدود بعبورنا إلى الطرف الأفغاني صعباً وربما مستحيلاً ، كان مرافقي يقول لي ما هي إلاّ ثلاث ساعات وسنكون في سبين بولداك الأفغانية ، وحينها نكون في ضيافة الطلبة ، لكن أجواء الطلبة بدأت منذ خروجنا من مدينة كويتة ، إذ طالما شاهدنا العبارات التي تشيد بطالبان وأسامة على الجدران الموازية للطريق الرئيسي الذي يفضي إلى قندهار ، فقد كانت إحدى الجمل تقول : " كل طالب أسامة بن لادن " ، وهو ربما أمر مألوف

لمن يعرف تلك البلاد ، إذ أن المدارس الدينية منتشرة على الطريق الرئيسي وكذلك المساجد ، وهاتان المؤسستان تلعبان الدور الأساسي والمحوري في عملية التحول الاجتماعي الحاصلة في تلك المنطقة ، خصوصاً و أن القائمين على هاتين المؤسستين يمثلان ــ ربما ــ الطبقة المثقفة في المنطقة القبلية ، و التي يكثر فيها الجهل والأمية ، فالعامة لا يجدون سوى العلماء ليقرؤوا لهم أو يرشدوهم لأمور دينهم ودنياهم ، بينما آثر المثقفون القليلون في ذلك الإقليم الانتقال إلى المدن الرئيسية المهمة وفي أحسن الأحوال إلى كويته عاصمة الإقليم نفسه .

كانت الشمس ترسل أشعتها بهدوء وهي تتوارى وكأنها خجلة خلف جبال شاهقة في بيئة ربما تكون الوحيدة من نوعها في العالم ، حيث لا سيطرة للحكومة المركزية عليها ، وفي أسوء الحالات يتمكن أي شخص من التسلل إلى الأراضي الأفغانية أو العكس عبر دفع بضع روبيات لقوات الحرس ، كيف لا و هنا يقع المثلث الذهبي الممثل بأفغانستان وباكستان وإيران ؟!! حيث يقوم تجار المخدرات العالميون بأخطر لعبة في العالم دون أن تتمكن

حكومات من ضبط مثل هذه التجارة الخطيرة ، والتي ترسل خيوط الموت إلى أرجاء العالم كله .

بعد أقل من ثلاث ساعات وصلنا إلى تشمن الحدودية الباكستانية ، فطلب مني مرافقي أن أنزل من السيارة لنستقل دراجة نارية ضمن ترتيب معين للتسلل إلى الأراضي الأفغانية ، وتتضمن الخطة أن يجلس أحدنا وراء السائق ليقطع بنا حوالي النصف كيلو متر في طريق ترابية ، وما علينا إلاّ أن نغطي وجوهنا حتى لا يتعرف علينا أحد من الحراس الذي سيطالب حينها بسعر أكبر من السعر العادي لعابري الحدود من السكان المحليين ، وبالفعل ركبت وراء أحد سائقي الدراجة النارية ، وفي غضون دقائق كنت أمام البوابة التي يمر منها كل واحد وانتحيت بوجهي إلى الجانب الآخر المعاكس لوجود الحارس الذي يفتح البوابة ، فقد انتهت العملية في غضون ثوان حيث قدم السائق له بضع روبيات لا تتعدى الدولار أميركي ، فدسها في جيبه تحاشياً من أن يراه أحداً وهو يرتشي ، وإن كان الجميع يعرف ذلك ، لكنه يحرص على التعمية على الآخر ، ودلفت إلى الأراضي الأفغانية ومن هناك ركبنا في تكسي عادية ، وخلال دقائق معدودة كنا في منطقة سبين بولداك

وهي التي كانت منها انطلاقة حركة طالبـان الأفغانيـة فـي صيف عام 1994 حين تمكـن زعيمهـا الملا محمـد عمـر مـن السيطرة على هذه المنطقة ، والتي كانت تغص بالأسلحة و الذخائر التي اعتاد المجاهـدون علـى تخزينهـا خلال الحـرب الأهليـة بيـن بعضـهم البعـض ، والـتي امتـدت مـن 1992 ــ 1994 وكان سقوط سبين بولداك في وقتها مؤشراً خطيراً على نهاية حكم المجموعـات المسـلحة الجهاديـة ، وتهـاوت قلاع هذه الجماعات المسـلحة واحـدة تلـو الأخـرى رهبـة أو رغبة بالدولارات التي أغدقتها طالبان والدول الـتي وقفـت إلى جانبها حينذاك .

انحرفت السيارة إلى اليميـن فـي طريـق ترابـي وعـر جـداً تحفـه بيـوت طينيـة أشـبه مـا تكـون بـالبيوت الأركيولوجيـة الأثرية المكتشفة حديثاً ، ووقفت السيارة ، طلب مرافقــي أبو عثمـان النـزول لأداء صـلاة الظهـر والعصـر جمعـاً ، ثـم تنـاول بعـض الطعـام والشـاي الـذي يعـد الأمـر الأهـم عنـد الأفغان ، فقد اعتادوا على القول خصوصاً الشماليين منهم " أكر شاي نميخري جنك نميشا " أي " إذا لم تشرب الشـاي لا يمكن أن تقاتل " وبالتالي فالعادة عند الأفغـان أن يكـون لكل شخص أينما كان في المطعم أو في البيت إبريقـاً مـن

الشاي مع كوب خاص ، ويظل يشرب الإنسـان حـتى ينتهـي من الإبريق ، وكدليل على أنه لم يعد يريد الشاي فمـا عليـه إلاّ أن يقلب الكأس رأساً على عقب وهي دلالة على أنه لـم يطالب بالمزيد .

سارعنا إلى الوضوء والصـلاة ، وفرغنـا منهمـا ، ثـم شـربنا الشاي ولم نتناول الغداء ، فلـم يعجـب صـاحبي أبـو عثمـان شيئاً من الطعام الموجود ، وربما أدرك أنه من باب أولى ألا يعجبنـــي شـــيئاً لســـبب بســـيط أن معـــدتي حديثـــة عهـــد بالمنطقة ، وبالتالي فأي طعام مثل المعروض ربمـا يسـبب لها متاعب صحية ومعدية ، وبينما نحن نحتسي الشـاي كـان صـاحب المطعـم يرمقنـا بنظـرات لهـا مـدلولات عـدة علـى رأسها هل ستمكثون عندنا ؟ وكـأنه يبحـث عـن زبـون لعلـه بذلك يكسب أجرة النوم وتوابعها ، ولكن قطـع صـاحبي أبـو عثمان نظراته بحسم الجدل القائم في ذهنه حين قال لـه : " نحـن سـنذهب الآن ولـن ننـام هنـا " ، ورغـم الابتسـامة الصـفراء الـتي صـدرت عنـه ، إلاّ أن قسـمات الـوجه كـانت تحكي الكثير على رأسها أن أحلامه في كسب زبـون عربـي تلاشى في هذه الصحراء القاحلة ، أما حولنا فكـان الأفغـان الذين جلسـوا القرفصـاء متلفعيـن بالبـاتو الأفغـاني ، وهـو

رداء بطول مـترين وعـرض مـتر واحـد وهـم ينظـرون إلينـا قـائلين لبعضـهم البعـض " عـرب صـيب ، عـرب صـيب " أي هؤلاء من السادة العرب ، ومـا أن فرغنـا مـن الشـاي حـتى استأجرنا سيارة تاكسي إلى مطـار قنـدهار حيـث سنقضـي يومنا فيه .

<u>ابن آوى :</u>

على طول الطريـق الـذي سـيقودنا فـي ليلـة حالكـة الظلمة محرومة حتى مـن ضـوء القمـر سـترافقنا الوحشـة والصمت الرهيب طوال تلـك الرحلـة باسـتثناء أصـوات ابـن أوى ، والتي ربما عملت على تخفيف وحشة الطريق الـوعر والمليء بالحفر الكفيلة بإزعاج أي راكب لتحول بينـه وبيـن أي غفوة ربما يفكر فيها المسافر ، ومع هذه الأصوات التي يرسـلها هـذا الحيـوان أتـذكر الكتـاب الـذي صـدر باللغـة الإنجليزية عن أسامة بن لادن والذي شبهه بإبن أوى ، كـان مرافقـي أبـو عثمـان يسـعى بكـل مـا أوتـي مـن قـوة إلـى تخفيـف وطـأة السـفر الـذي شـبهه الرسـول عليـه أفضـل

الصلاة والسلام " بقطعة من عذاب " ، ويسـعى أبـو عثمـان إلـى التعميـة علـى برنامـج الرحلـة أمـا أنـا فكنـت أقتصـد بالأسئلة ولا أسعى إلى طرح أسئلة فضولية قـد يقـرأ منهـا أبو عثمان الكـثير ، فالحـال والمقـام لا يسـمحان بكثرتهـا ، كان أبو عثمان متضـايقاً إلـى حـد كـبير مـن راكـب أفغـاني عـادي أقلـه السـائق ، رغـم أن السـيارة كـانت مسـتأجرة خصيصاً من قبلنا ، ولكـن يبـدو أن السـائق أراد مـن يسـليه طوال هذه الرحلة الشـاقة مـا دمنـا نحـن الاثنيـن عربييـن ، ولن نتحدث معه ، الأمر الذي قد يجلب له السـآمة والملـل ، وكان هذا الراكب كثير السؤال ، ويحرص أن يعرف من نحن ؟ وأين سنذهب ؟ أما مرافقي أبو عثمان فكان يمرر له كـل الأسئلة دون أن يجيب عنهـا سـوى بـالقول لـه : لا تسـأل ، وتكلم مع السائق صاحبك مع بعض العبارات الـتي تنـم عـن الضجر والملل والانزعاج حتى من السـائق الـذي أقلـه دون مشـورتنا ، كـانت السـاعة بـدأت تشـير إلـى الثامنـة ليلاً بالتوقيت المحلي حين بدا ضوء خافت من بعيد وعلى يميـن الطريق كنـت حينهـا بيـن النـائم واليقظـان فقـال لـي أبـو عثمـان : " إنـه المطـار وسـننزل فيـه حـتى الصـباح لنتـدبر أمورنا " ، ففرحـت فرحـاً كـثيراً أننـا وصـلنا إلـى مهجعنـا ،

وبالتالي سنأخذ قسطاً لا بأس به من الراحة قبل أن نبدأ يوماً ربما يكون شاقاً لا نعرف شيئاً عن تفاصيله ، فالصمت وعدم السؤال عدة أي صحافي في مثل هذه الظروف الدقيقة لرجال مطلوبين لأكثر من دولة و نظام .

استدارت التاكسي التي كانت نمرتها من الإمارات العربية المتحدة أبو ظبي إلى اليمين ، وللعلم فإن كثيراً من السيارات في أفغانستان وقندهار تحديداً ما تزال عليها نمرة الإمارات العربية المتحدة ، إذ تشترى من هناك ثم تصدر إلى أفغانستان عبر إيران ولا يكلف الأفغاني نفسه عناء نزع النمرة ، إذ عادة ما تأخذ عملية التسجيل لدى مصلحة شرطة المرور وقتاً في بلد تسير فيها الحياة كلها ببطئ ، وكأنها ما تزال في القرون الوسطى ، فأوقفنا السائق بصرخة تصيخ لها الآذان " دريش " أي " قف " ، طالباً كلمة السر ، لكن كلمة عرب صيب كانت كافية لتبديد مخاوفه وقلقه ، والسماح لنا بالدخول آمنين مطمئنين .

بدأنا نغذ السير إلى مجمعات سكنية في داخل مطار قندهار حيث بعض الغرف التي كان الأميركيون بنوها في الخمسينيات حين أقاموا مشاريع عدة في غرب أفغانستان ومن بينها مشروع هلمند ، وربما لم يفكروا يوماً ما بأن

أعدائهم من القاعدة سيتخذون من هذه القواعـد لأنفسـهم أو للأفغان الموالين لهم مراكز للتخطيط لعمليات تستهدف مصالحهم ، مثلما لـم يفكـر ربمـا سـاكني هـذه الغـرف مـن العرب أنفسهم أنهم سيجلون يوماً مـا عنهـا ليتركوهـا إلـى أعـدائهم مـن الأميركييـن وحلفـائهم الأفغـان الـذين كـانوا محصورين في خمسة بالمئة من الأرض الأفغانية فقط .

دلفنا إلى إحدى الغرف ، واستقبلنا شاب يظهر مـن لهجتـه بأنه من دول المغـرب العربـي ، لـم أسـأله بكـل تأكيـد عـن اسمه أو وظيفتـه ، رحـب بنـا كالعـادة ، وبـدأ بإعـداد بعـض الطعام والذي تضمن البندورة و البيض والخبز ، مبدياً أسفه لعدم الاستعداد الكامل لطعام يليق بالمقـام حسـب قـوله ، فشكرناه علـى لطفـه ، إذ لا نريـد سـوى الاسـتراحة ، فقـد هدنا السفر الذي تواصل لأكثر من 12 ساعة من إسلام آبـاد إلى قندهار ، وما هي إلاّ فترة قصيرة حتى أنهينا الطعــام ، وأوينا إلى فراشنا لنغط في نوم عميق بانتظار صباح حفيل بالمفاجئات الصحافية ، ولننتظر صيداً ثميناً ، ربما يطمع بـه أي صحافي على وجه الكرة الأرضية .

إلى العرس :

كانت أول كلمة تلفظ بها أبو عثمان معي بعد الاستيقاظ من النوم والتهيؤ إلى الانتقال إلى مكان آخر غير المطار ، هو كشفه السر ، الذي ما يزال مخفياً عني طوال هذه الرحلة ، وهو الهدف من زيارتي كلها ، توقف أبو عثمان ليبتلع ريقه ثم يقول : " بأن الزيارة تهدف إلى حضورك لعرس محمد بن أسامة بن لادن على كريمة محمد عاطف المصري " أبو حفص " المسؤول العسكري في تنظيم القاعدة الذي يقوده أسامة بن لادن " ، لم أخف فرحي ، وإن كنت قد أظهرت له أنني كنت أتوقع أكثر من ذلك ، وهو لقاء أسامة بن لادن والانفراد بحديث خاص معه ، خصوصاً و أنه ملتزم بالصمت منذ القيود الظاهرية التي فرضتها عليه حركة طالبان الأفغانية ، بعد أن جرمته الولايات المتحدة الأميركية في مهاجمة سفارتيها في أفريقيا الوسطى في العام 1998 ، وكعادة الصحافي الذي يظهر أن المعروض عليه ليس مهماً جداً أملاً في الحصول على المزيد ، رد أبو عثمان على الفور ستلتقي أسامة ، ولكن لن يكون لقاءً للنشر ، لظروف الحظر المعروفة التي

تفرضها حركة طالبان عليه بسبب الضغوط الدوليـة ، وهـو ما أدى إلى قطع بعض الـدول لعلاقاتهـا مـع الحركـة ، إلـى جانب حصار اقتصادي ومنع شركة طيرانها من الطيران إلى الخـارج ، فشـكرته علـى كـل حـال لاختيـاري خصوصـاً لأن انفرادي بالمشاركة فـي هـذه المناسـبة تعـود إلـى عـاملين أساسـيين اثنيـن لا ثـالث لهمـا وهـو مـا ظهـر مـن بعـض تلميحات القوم أنفسهم :

1. الحصـار الـذي فرضـته حركـة طالبـان الأفغانيـة علـى أسامة بن لادن ، خصوصاً الإدلاء بأي أحـاديث صـحافية دفـع القاعدة إلـى اللجـوء لصـحافيين خـارج أفغانسـتان ، وذلـك لقناعتهم بأن مراسل الجزيرة تيسير علوني سيتعرض إلــى ضغوط من الحركة ، وربما تصل إلى الطرد مـن أفغانسـتان بخلاف واقعـي الـذي أعيـش أصـلاً فـي باكسـتان ، ولـذا لا يسـتطيعون اتخـاذ إجـراء ضـدي ، خصوصـاً و أننـي أمثـل الجزيرة التي ترغب القاعدة بظهور صورها عليها .

2. أما السبب الثاني فهو أنني أمثل مؤسستين إعلاميتين وهما : الجزيرة ـ كما ذكرت ـ بالإضافة إلـى جريـدة الحيـاة ، وهو ما قاله لي أتباع أسامة كون الحيـاة جريـدة لهـا وزنهـا في الساحة الإعلامية العربية والدولية .

تحركت السيارة التي أقلتنا من المطار إلى مكان في غرب قندهار، لم أعرفه من قبل ، فأنا أجهل المنطقة ، لكن صاحبي كان يعرفها تماماً ، وبينما نحن في داخل المطار كنت أرقب بعض موظفي نزع الألغام الأفغان التابعين للأمم المتحدة يقومون بالبحث عن الألغام في ساحات المطار ، فسألته عنهم فرد أبو عثمان نعرفهم منذ سنوات ، وهم يبحثون عن الألغام ، و في نفس المكان الذي هم فيه الآن ، وندرك أنهم يعملون كجواسيس لا أكثر ولا أقل .

خرجنا من المطار إلى مكان في غرب المدينة ، وكأنه يحضر ليكون معسكراً للتدريب ، إذ رأيت ما يشير إلى ذلك ، حتى تيقنت بعد التقرير الذي بثته كبيرة مراسلي قناة السي إن إن الأميركية كريستينا أمان بور عقب هزيمة حركة طالبان الأفغانية من المكان نفسه على ما يبدو ، وقد طرأت عليه بعض التحسينات من الحواجز ، و أماكن تربية الخيول التي يعشقها ابن لادن .

وصلنا إلى المكان ، وجلسنا في غرفة صغيرة ، مفترشين الأرض ، وحولي شخص أو شخصين يبدو أنهما من اليمن ، وبعد دقائق حتى دخل علينا أبو حفص المصري ، والذي

جلس متربعاً على الأرض دون أي تكلف ، وأخذ يلاطفنا ويسألنا عن أحوالنا ، وفيما إذا تعبنا من السفر ، وإن كنا قد استرحنا بعد عناء سفر طويل ، وبدأ يسأل عن الباكستان ، حتى وصل إلى السؤال الأهم بنظري وهو قوله : " هل وجودنا في أفغانستان يقع في مصلحة باكستان الاستراتيجية " ، والحقيقة فوجئت بالسؤال ، وقلت له بعد برهة صمت : " ربما هذه المصلحة مرتبطة برغبتها في الاحتفاظ بحركة طالبان الأفغانية ، بمعنى أن الأمور متعلقة ببعضها البعض ، وخلت أن جوابي لم يشف غليل أبي حفص الذي ظهر من كلامه أنه واثق جداً من كل كلمة يتفوه بها ، ولا يتكلم إلاّ للضرورة القصوى ، ورأيت أن كلامه يمكن عدّه لو أراد العادّ أن يحصيه ، ومع كل جملة يتفوه بها يطعّهما بابتسامة ، حتى و كأنك تنسى أنك أمام ثاني أهم ما يوصف بأنه" إرهابي " في العالم بالتصنيف الأميركي .

وكان الصحافي الباكستاني حامد مير الذي يعد آخر من التقى زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن ، ونشر مقابلته في كل من صحيفة أوصاف الأوردية الباكستانية و كذلك الدون الإنجليزية الرصينة قد كتب عقب المقابلة في مقال

نشره في صحيفته بأنه حين سأله أسامة و الظـواهري عـن رد الفعل الباكستاني إزاء تعـاون الحكومـة الباكسـتانية مـع الأميركييـن فقـد أجـاب ميـر بـأنه لـن يحصـل شـيء علـى مستوى الشارع ، وكذلك على مستوى الجماعات الإسـلامية الباكسـتانية ، والحكومـة مطمئنـة إلـى الوضـع الـداخلي الباكستاني ، ويعلق الصحافي الباكستاني بـالقول : " لقـد رأيت وجهي كل من ابن لادن والظواهري قد تغيرا تمامـاً " الأمـر الـذي كـان يظهـر مـدى تعويـل كلاً مـن ابـن لادن و الظواهري على الشارع الباكستاني و الحركات الإسـلامية ، وكذلك المدارس الدينية المنتشرة فيـه علـى الانقلاب علـى الحكومـة الباكسـتانية ، ولـذا جـاء أول بيـان لأسـامة عقـب الغـارات الأميركيـة علـى أفغانسـتان يـدعو فيـه الشـعب الباكسـتاني إلـى المشـاركة فـي " الجهـاد ضـد القـوات الأميركية " .

أخذ الحديث أبو حفص المصري معنا وكـأنه نسـي أن اليـوم يوم زواج ابنته على ابن زعيمه ، فقد استغرق في الحـديث السياسي عن الوضع الأفغاني والأسـباب الـتي دفعتنـا كمـا يود أن يقول ، دون أن يستخدم كلمـة " القاعـدة " للتعـاون مع طالبان والاقتناع بهم . وبينما هو يشـرح لنـا الأسـباب و

الدوافع لذلك التي لم أعد للأسف أتذكر شيئاً منها ، جاء أحدهم لينادي لصلاة الظهر فخرجنا وأمّ المصلين أبو حفص ، وما أن فرغنا من الصلاة ، حتى توجهنا إلى البيت المواجه للغرفة التي نجلس فيها ، حيث الطبخ فوق جذوع الأشجار على أيدي الأفغان العاديين وبمساعدة الأفغان العرب الذين كان معظمهم من اليمنيين والسعوديين ، سبقنا أبو حفص لنخرج بعده بدقائق إلى البيت الذي كان سيشهد العرس .

كانت الغرفة التي شهدت العرس كبيرة جداً ، وربما كانت صالة سينما أو مسرح أو شبيهاً من ذلك تعج بالمئات من الناشطين العرب ، الذين يشاركون في الحفل ، وما أن دخلت من باب الغرفة ، حتى بدا لي أسامة بن لادن ، وهو يتصدر المجلس ، وعلى يمينه ويساره شخصيات بدا عليها أفغانية وعربية ، وأمامه على شكل صفوف شباب القاعدة الذين كانوا يكبرون ، ويهللون ، بين الفينة و الأخرى ، واتخذت مكاناً في الصفوف الخلفية ، إلاّ أن إلحاح أحد المشرفين على الحفل بأن أجلس في صدر المجلس إلى جانب أسامة وذلك بناءً على رغبة الأخير ، أرغمتني على القيام ثانية ، مع عبارة من أحدهم ، وبكل أدب تقول " أنزلوا الناس منازلهم " ، سلمت على أسامة الذي قدم يده

للمصافحة وعلى يمينه أبي حفص المصري ، وعلـى شـماله شقيقه حسن ، ثم نجله محمد ثم أنا ، وسلسلة من الأفغان العرب .

بدا لي ابن لادن فـي أواخـر الأربعينيـات مـن عمـره ، لكنـه أقرب إلى النحافة ، بوزن لا يتعدى السـبعين كيلـو غـرام ، وبطـول يتجـاوز المائـة والثمـانين سـنتيمتراً ، صـبغ لحيتـه بالحناء الأقرب إلى السواد ، ولبس اللباس العربي العقال ، مع وضع الجنبيـة اليمنيـة للتأكيـد علـى أصـوله الحضـرمية ، وكان بشوشاً للغاية ، وفرحاً جداً ، ولعل فرحه أكـثر بمقـدم والـدته وشـقيقته ، وشـقيقيه الـذين قـدموا مـن المملكـة بطائرة " أريانا " الأفغانية ، الـتي كـانت عائـدة لتوهـا مـن رحلة لنقـل الحجـاج الأفغـان ، فـالتفت إلـى أحـد مسـئولي طالبان في المطار ، شاكراً إيـاه علـى مسـاعدته فـي نقـل أهله بالطائرة ، وهو ينظر إلي : " إنه هو الذي قام بكل هذا العمل فجزاه الله خيـرا . " وطالمـا مـازحت شـقيقه حسـن بـأنني سـألتقط لـه صـورة فـي هـذا المكـان لنقلهـا إلـى المشاهدين ، والقراء ، لكنه تمنع بكل تأكيد ، فقد تبدت منه الطيبة والأدب الجم في الجلوس والحديث .

جال فكري كثيراً عن الأسباب الخفية التي تجعل أفغانستان تحتضن طوال المرحلة الماضية من عمرها كـل المطلـوبين الدوليين رقم واحد من أمثال رمزي يوسف ، وأيمل كـانزي وتاجر المخدرات الباكستاني المعروف أيـوب أفريـدي الـذي فضل اللجوء إلى أفغانستان فـي العـام 1996 خلال حكـم طالبان ، ومن هنـاك تـوجه إلـى الإمـارات العربيـة المتحـدة ليسلم نفسه إلى أميركا مباشـرة ، متجـاهلاً بـذلك حكـومته التي رأى تسليمها لباكستانيين وهما أيمل كانزي الذي كـان متهماً بقتل عميلين تابعين للمخـابرات المركزيـة الأميركيـة 1993 ، ورمـزي يوسـف المتهـم بنسـف مركـز التجـارة العـالمي فـي العـام 1993 . ويـتردد فـي باكسـتان أن المخابرات المركزية الأميركية حين نقلته بطائرة خاصة مـن باكستان إلى أميركا ، وبينما كانت تحلق الطائرة فـوق بـرج مركز التجارة العـالمي ، قـال لـه مرافقـوه لقـد حـاولت أن تدمر هذا البرج فكان جوابه الساخر : " هل مـا زال موجـوداً في مكانه ؟!! "

لعل من الأسباب الرئيسية التي جعلـت أفغانسـتان تحتضـن هذه الشخصـيات باعتقـادي هـو أن الشـرعية الـتي كسـبتها المنظمات الأفغانية طـوال السـنوات الماضـية فـي الحـرب

ضد السوفييت هي الشرعية الإسلامية ، وحتى في الحرب ضد بعضها البعض إنما استمدت بقائها وشرعيتها من الشريعة الإسلامية ، و الإسلام العالمي ، وعلى هذا فقد رأى الجميع أن من حقه اللجوء إلى أفغانستان مادامت قدمت نفسها كمحضن للمسلمين في الأرض ، للمشاركة في الجهاد الذي لا تحده حدود ولا قيود ، وهو ما أفقدها زعامتها القومية ، إذ أن كثيراً من الشخصيات الأفغانية الكبيرة كانت ترفض حتى مجرد الاشتراك في الحكم ، لا زهداً فيه ، وإنما لأنها ترى نفسها أكبر من أفغانستان ، وقيادتها تتعدى حدود أفغانستان ، وهي التي رفعت راية الإسلام الأممي ، ويؤكد على ذلك بعض المثقفين الأفغان من أن فتح حدودهم أمام الإسلام العالمي ، أفقدهم الزعامة القومية ما داموا كانوا يبحثون عن الجامعة الإسلامية ، الأمر الذي أفقدهم هذا وذاك ، وقبل هذا كله هناك فقدان الحكومة المركزية القوية القادرة على بسط نفوذها على كل التراب الأفغاني الذي هو في الواقع نتيجة حتمية للعامل الأول .

لاحظت أن الحفل قد غاب عنه زعيم تنظيم الجهاد أيمن الظواهري ، والذي علله البعض من جماعة الأفغان العرب

المشاركين في الحفلة حينها بأنهم لم يدعو الكثير من الأفغان العرب المنتشرين في المدن الأفغانية ، نظراً لمشقة السفر ، وإن كان ذلك لم يشف غليل السؤال الذي ظل عالقاً في ذهني ، وعلى الطريقة الصحافية أو المذهب الديكارتي في المنطق والذي يشكك في الكثير حاولت البحث عن جواب ، فبدأت أفكر بقضية الخلاف بين الشخصين ، وتساءلت هل ثمة خلاف بين الطرفين ؟! خصوصاً و أن الظواهري بدأ يفقد الكثير من قوته وسطوته ببعده عن بلده ، و الانشقاقات التي دبت في صفوف الجماعة .

الجلسة كانت تضايقني كما تضايق الذي بجانبي ، نظراً إلى ضيق المكان ، ولكن نسيت نفسي مع الحفل الذي بدا ، وكأنه عرس يمني في هذه الصحراء القاحلة ، كان السؤال الذي أبحث عن جواب له ، وهو ما لم يكن يعني الكثيرين من المشاركين في هذا الحفل ، هو هل ظن هذا العريس ابن أسامة بن لادن والعائلة التي تعد من أصحاب أكبر الشركات في المملكة العربية السعودية أن عرس نجلها وأحد أبنائها قبل سنوات طويلة سيكون في هذه الصحراء ؟ وهل خطر على باله أنه سيكون ملاحقاً ومطارداً حتى في

يوم عرسه ؟ ولكن هذه الأسئلة التي تشغل بالي ربما لا تعني أحداً من هؤلاء الذين أمامي ، وانتقلت إلى قضية أخرى خصوصاً وقدا بدا لي أن العرس لا يعنيني كثيراً ، إلاّ مجرد أنني حضرته وجلست بجانب ابن لادن ، والتقطت لي بعض الصور ، وهو ما سيساعدني في مهمتي الصحافية .

القضية الأخرى التي كنت مهموماً بها والتي ربما كانت أخر ما تخطر على تفكير الحاضرين ، هي ماذا لو أطلقت أميركا التي تبحث عن أسامة ليلاً ونهاراً بعض الصواريخ العابرة للقارات لتحيل العرس إلى مأتم ؟ فحين كنت في إسلام آباد قبل أيام من مقدمي إلى أفغانستان ، سألت بعض الخبراء العسكريين الباكستانيين و الغربيين سؤالاً أفادني الجواب عنه في هذه اللحظة بالذات ، وهو في حال عرفت الولايات المتحدة الأميركية بمكان أسامة بن لادن كم يستغرق الوقت الذي تحتاجه بين علمها بالمكان ، وتوجيه الضربة ؟ وتراوحت الإجابات بين الساعتين و الأربع ساعات ، وبدأت أحصي الساعات التي تمر علينا في نفس المكان ، فقد مرّت أكثر من أربع ساعات ، دون أن يحصل المكروه ، وحانت مني التفاتة إلى الخلفية التي يجلس أمامها أسامة بن لادن ، فرأيت خريطة العالم مرسومة على الجدار كله ،

والذي يبلغ ارتفاعه أكثر من ستة أمتار وبعرض عشرة أمتار ، لكن الخط كان عربياً واضحاً ، في إشارة إلـى أن القاعـدة نفسها هي التي رسمت هذه الخريطـة ، وأبلغنـي مـن كـان في المجلس ، أن مـن مصـادفات القـدر أن المقابلـة الـتي أجريت مع أسامة بـن لادن ، مـع إحـدى المحطـات الأجنبيـة قبل تفجير السفارتين الأميركيتين في تنزانيا وكينيا ، كـان المصور قد ركز عدسة الكـاميرا بشـكل ربمـا غيـر مقصـود على دار مدينتي دار السلام ونيروبي ، واللتان تعرضتا إلــى الهجـوم المعـروف بعـد فـترة مـن تلـك المقابلـة ، وبـدت ابتسامة خبيثة من محدثي ليقول إلى أيـن سـيركز المصـور الذي كان يصور العرس الآن ، وكـأنه تلميـح إلـى أن عمليـة أخرى قادمة لا محالة .

كان الحفـل قـد بـدأ ببعـض الأناشـيد و الأهازيـج الإسـلامية اليمنية التي لم أتمكن من فهم غالبيتها ، وربما سوى تكرار الحاضرين في أهازيجهم على الطريقة اليمنية " يـوم اللـي دمرنا علـى البحـر كـول " ، إذ كـانت حادثـة تـدمير المـدمرة طازجةً ، وحديث الجميع ، و محل فخر كل من التقينـاه مـن الأفغـان العـرب ، والـذي كـانت توضـحه أكـثر الأهازيـج اليمنيـة ، إذ طغـى علـى العـرس بشـكل كامـل التقاليـد

اليمنية ، وكأنك في تعز أو صنعاء أو صعدة ، فهل هي العودة إلى الجذور والحنين إليها حين رغب أسامة بالعودة إلى جذوره الحضرمية ، حتى ولو بالأفراح ما دامت العودة الفيزيولوجية غير متيسرة ؟!! أم أنها مجرد رسائل سياسية لمن يهمه الأمر عن قوته وسطوته ونفوذه في اليمن السعيد ؟!!

لم يكن يجلس إلى جانب أسامة قيادات معروفة من الطالبان ، وإنما بعض المسؤولين في المطار، والمسؤولين المحليين ، وحين سألني أحد الحاضرين الأفغان عن عملي ، قلت له : صحافي ، وبدت نظرة انزعاج من أبي حفص المصري الذي كان على ما يبدو يتابع حديث الأفغاني معي ، إذ لم يكن يرغب في معرفة طالبان ، بأن القاعدة جلبت صحافيين لتغطية الحدث ، وهو ما قد يحرج طالبان التي تقول صباحاً ومساءً للعالم بأنها فرضت قيوداً على أسامة و القاعدة بشكل عام ، ولكن يبدو أن محدثي الأفغاني الذي لم يكن يتقن اللغة العربية لم يفهم جوابي ، وبعد أن فهمت نظرة أبا حفص المعبرة عن انزعاجه من جوابي بدأت بتفادي الجواب وإظهار أنني لا أتقن سوى اللغة العربية ، وهو ما أراح بالتأكيد أبو حفص خصوصاً بعد

أن تيقن أن الأفغاني لم يفهم علي ما أبلغته به ولا كلمة صحافي .

بدا لي حينها أن أسامة بن لادن و القاعدة بشكل عام ، ترغب باستغلال مثل هذه المناسبات لإثبات أنها ما تزال حاضرة وموجودة ، إذ أنها لا تستطيع خصوصاً زعيمها الابتعاد عن الجماهير ، فكيف إن كانت بعيدة عن الشعوب العربية كل هذه المسافة ؟! وبالتالي تسعى القاعدة وعلى رأسها أسامة إلى إرسال رسائلها من خلال هذه المناسبات بعد أن حرمتها طالبان من التعبير عن أفكارها وخططها ورؤيتها للأحداث ، وهو ما أكده ابن لادن لاحقاً معي حين قال في حديثه لي : " لدينا مناسبات كثيرة وسنستغلها في التواصل مع العالم الخارجي ، بعد القيود التي فرضتها طالبان علي ومنعي من الحديث ." فقد ذكر لي أنه سعى إلى إقناع الملا محمد عمر من خلال زملائه في الحركة وبعض المتنفذين الباكستانيين المقربين إليه ، من أجل السماح له بالحديث في هذا الظرف ، وحتى أن وزير الخارجية مولوي وكيل أحمد متوكل نصح الملا عمر بالسماح لأسامة بالحديث في هذه الظروف ، بعد أن قطعت أميركا كل الخيوط معنا ، وبالتالي لم يعد أمامنا سوى الضغط

عليها من خلال أسامة ، وحينها فقـط تـذكرت مـا قـاله لـي أحـد الأفغـان الكبـار فـي السـن فـي جلال أبـاد شـرقي أفغانستان علـى الحـدود مـع باكسـتان بـأن الأفغـاني لـديه ورقتين أساسيتين يمكن بهما الضغط على المجتمع الدولي بشكل عام وأميركا بشكل خـاص ، وهاتـان الورقتـان همـا : المخدرات وأسامة بن لادن وحالمـا نتجـرد منهمـا ، سـنكون مثلنا مثل راوندا أو بورندي لا أحد يأبه بنا ، فإن كان العـالم تحرك لتحرير الكويت بسبب مخزونها النفطـي ، فعنـدنا مـا هو أهم من ذلك ، وهو الإرهاب والمخدرات ، وعلينـا عـدم التخلي عنهما بسهولة ، وبدون مقابل حقيقي وملموس .

علمت لاحقاً من بعض مصـادر الأفغـان العـرب الـذين كـانوا فـي المكـان ، أن أسـامة سـعى فـي محاولـة منـه مسـألة الضـغوط الطالبانيـة عليـه مـن خلال لقـاء الصـحافة فـي مناطق بعيدة عـن حاضـرة طالبـان " قنـدهار " ، مثـل جلال آباد حيث نفوذ زعيم الحزب الإسلامي مولوي يونس خـالص واسع فيها ، ويتمتع بعلاقـات وطيـدة مـع أسـامة منـذ أيـام الجهـاد الأفغـاني ، أو فـي ولايـة بكتيـا حيـث وزيـر الحـدود والقبائـل الطالبـاني الشـيخ جلال الـدين حقـاني ، والـذي يتمتع بعلاقات وثيقة مع ابن لادن ، ويعد ملكاً في منطقته ،

خصوصاً و أنه ينحدر من قبيلة زادران المعروفة في خوست ، و الـتي تحسـب لهـا الحكومـات الأفغانيـة حسـاباً كـبيراً ، ويضـاعف مـن أهميتـه علاقتـه الوطيـدة مـع الجماعـات الإسـلامية الباكسـتانية ، و كـذلك مـع الأجهـزة الأمنيـة فـي باكستان منذ أيام الجهاد الأفغـاني . ولعـل هـذا مـا يفسـره إعلان الجبهة الإسـلامية العالميـة لقتـال اليهـود والنصـارى في أيار مـن العـام 1998 مـن قبـل ابـن لادن والظـواهري وشخصـيات باكسـتانية فـي منطقـة خوسـت وليـس فـي قندهار أو منـاطق تتمتـع طالبـان والملا محمـد عمـر بنفـوذ لافت فيها .

كان العرس اليمني الـذي اسـتغرق أكـثر مـن أربـع سـاعات يتواصل وسط الأناشيد و الأهازيج والعراضات اليمنيـة ، مـع التكبير و المـزاح المعـروف فـي هـذه المناسـبات والـذي لا يخرج عـرس القاعـدة أو الأصـوليين بشـكل عـام عـن إطـار الأعـراس العاديـة مـع الالـتزام ببعـض الأخلاقيـات والحـدود الشرعية .

كان الحاضرون يعمدون إلى تقشير البرتقال للعريـس ، أو قذف الحلوى فـي فيـه مـع عبـارة " كـل وتغـذى يـا عريـس فأمامـك مشـوار طويـل وعمـل شـاق وليلـة ليلاء " يقابلهـا

العريس الصغير بالسن بابتسامة مثل ابتسامة عمه أبي حفص ، وكذلك والده أسامة .

كانت وجوه القوم كلها فرح وابتسامات وضحكات وقفشات ، وكأن الحاضرين الذين تعدى عددهم الخمسمائة شخص ليسوا مطلوبين أحياء أو أموات لأكثر من دولة ، أما اللباس فكان أفغانياً موحداً ، ولم يشذ عن لبس العمامة سوى القليل من الأفغان العرب ، وبكل تأكيد فقد غابت المرأة عن حفلة العرس ، وإن كانت هي الحاضر الأول والأخير ، فهي سبب هذا الحفل كله ، وما أن أخذ أسامة بن لادن الكلمة ، حتى لكأن القوم على رؤوسهم الطير ، وانتهى عهد الضحك والبسمات ، وانتظر الجميع الأوامر والتوجيهات ، فالكل يحترمه ، ويقدره ، بل الجميع هنا في هذه الصحراء وفي هذه البلاد بسببه ، لكن كلمة أسامة بن لادن لم تكن خطبة ، وإنما كانت قصيدة نظمها له أبو حفص الموريتاني الشخص الثالث في القاعدة كما تقول مصادر الأفغان العرب ، وكان أبو حفص الموريتاني قد نظم معظم القصائد التي ألقاها أسامة قبل وبعد هذه القصيدة ، كما أبلغتني بذلك مصادر الأفغان العرب في زيارتي تلك ، وهو ما قاله لي أيضاً أبو حفص الموريتاني شخصياً ، فقد

اعترف ابـن لادن فـي حـديثه الجـانبي غيـر الرسـمي معـي بالقول : " إنني كما يعرف إخواننا لست من فرسان الكلمة " ولكن يبدو أن كلماته التي كان يلقيها في الأشرطة أثبتت قدرته الكبيرة على الحديث الارتجالي دون أخطـاء أو تلعثـم أو تأتأة أو نحوها .

بدأ ابن لادن بقصـيدة مطولـة مـن 62 بيتـاً ألمـح فيهـا إلـى مسئوليته على عملية تدمير المدمرة كول في مينـاء عـدن ، وربما لجأ إلى الشعر نظراً إلى أنـه حمّـال أوجـه ، وبالتـالي في القانون والقضاء يمكن تفسير البيت بأكثر من تفسير ، وهو ما قـد يعفيـه مـن المسـؤولية القانونيـة ، علـى بعـض الإشارات و التلميحات ، التي قد يتضـمنها الشـعر العربـي ، ومن ضمن الأبيات التي تحدث فيهـا عـن كـول وألمـح فيهـا على مسؤوليته إذ قال :

وإخوانكم في الشرق شدوا سروجهم وكابول شدّت والنجائب ضمّر

رفاقكم مـن بعدكـم لم تلن لـهم قناة ولا سـيف ولا لان خنجر

يخوضون بحـر المـوت لا يرهبونـه ومن لا يخاف الموت لاشيء يحذر

كانت كاميرتان تابعتان للقسـم الإعلامـي لتنظيـم القاعـدة أمام أسامة بـن لادن تصـور الحفـل كلـه ، لكـن بكـل تأكيـد تحاشت تصوير المشاركين الذين كانوا حـذرين مـن التقـاط أي صـورة لهـم ، رغـم أن جمـاعتهم هـم الـذين يصـورون ، ولكـــن الكـــاميرا كـــانت تركـــز فقـــط علـــى ابـــن لادن ، والشخصيات المعروفة ، بالإضـافة إلـى الخلفيـة الـتي كـان ابن لادن يجلس أمامها وهي خريطة العالم .

لعل أهم ما فـي الحفـل بالنسـبة إلـي كصـحافي هـي هـذه القصـيدة الـتي سـجلها قسـم الإعلام التـابع للقاعـدة مـع لقطـات لـي مـع ابـن لادن والعـرس ، وذلـك كإثبـات علـى حضوري الحفل ، ولكن اللافت الذي اسـتوقفني لاحقـاً هـو دخول ابن لادن إلى الغرفة التي كنت فيها مع بعـض أركـان القسم الإعلامي في تنظيم القاعدة ، وقوله لنـا : " أعتقـد أنه من المناسب أن نسجل القصيدة مرة أخـرى فـي صـباح اليوم التالي وفي نفس المكان فلعلها تكون أفضل " ، فقد بدا لي كم أسـامة يحـب نفسـه ، وكـم يحـب أن يظهـر فـي صورة يراها مناسبة ، فتكرار التصوير لا يفعله إلاّ القلة مـن

الناس الذين يفهمون ويدركون أهمية العلاقات العامة ، والاتصال مع العالم الخارجي ، من خلال هذه الوسيلة الإعلامية ، وهو ما يعطي انطباعاً واضحاً على الاهتمام الذي يوليه ابن لادن إلى الإعلام واستعداده لإعادة تسجيل القصيدة ، بل وجمع بعض العناصر أمامه ليعيدوا التكبير الذي تخلل إلقاء القصيدة ذاتها في العرس ، وذلك حتى لا تتغير الأجواء و بالتالي يظهر التسجيل الثاني وكأنه هو الأول نفسه ، ولكن رغم أنه سجل القصيدة ثانية وسط أجواء تمثيلية توحي للمشاهد أو السامع على أنها ألقيت أمام حشد كبير إلاّ أن قسم الإعلام فضل التسجيل الأول ، وهو ما وافق عليه ابن لادن أيضاً ، وكان القسم الإعلامي قد سجل لي بضع دقائق على شريط فيديو ، وسلمني الشريط كونهم لم يسمحوا لي بالتصوير بنفسي .

أما الواقعة الأخرى التي أثبتت لي كم أن أسامة يحب أن يظهر في صور معينة ، ويكره صوراً أخرى ، وهي أنني حين صورته على كاميرا ديجيتل بقرص كومبيوتر وبدت رقبته مائلة قليلاً إذ أن رقبته ربما تظهر في الصورة أنحف من المطلوب ، نظر إلي بابتسامة وهو يقول : " هل يمكن أن نصلح الرقبة وأقف مستقيماً وليس مائلاً ؟ " فأعدنا

الصورة على الكاميرا وحين أظهرت له الصورة وافق عليها وقال : " هذه أفضل من تلك ."

ومع انتهاء إلقائه لقصيدته بدأ نجله الأصغر حمزة بإلقاء قصيدة كانت مؤثرة ، شرح فيها حالة الغربة التي يقضيها والده ، والعائلة مع بعض الأبيات التي نالت من السودان ، والتي تخلت عنه كما تقول ، حين كان فيها وعقب القصيدة الثانية أذن لصلاة العصر فصلى الحاضرون جماعة وإمامهم ابن لادن .

ما أن فرغت الصلاة حتى بدأ فرش السفرة من أجل تناول الوليمة التي تضمنت الأرز مع اللحم وعصير البندورة وهو طعام خليجي أو ربما يمني ، إذ تناول الجميع الطعام بينما كان بعض من الأفغان العرب واقفين على رؤوس الضيوف من أجل خدمة كل من يطلب مزيداً من الأرز أو اللحم أو الماء ونحوه ، تبع ذلك توزيع بعض الفواكه مثل البرتقال والتفاح ثم الشاي ، لتختتم الحفلة بتوزيع السكاكر من الحلويات ، فالعراضة مع العريس حيث تجمع حوله العشرات من الشباب ، وهم يحملونه وتتقاذفه الأيادي ، وهي تردد الأهازيج اليمنية التي لم أفهم منها سوى النذر اليسير ، وصاحب ذلك كله الدبكة ، إذ التفوا على شكل دائرة

ليرقصوا مع العريس ، وظلت الأصوات تهتف بالعريس وتهنئه وتبارك له في زواجه ، حتى دخل السيارة التي أقلته إلى بيت الوالد ، وركبنا نحن أيضاً في سيارة " بيك آب " إلى بيت قريب من بيت ابن لادن الذي نزلت فيه والدته لنؤدي بعدها صلاة المغرب ويجلس بيننا لبعض الوقت .

كان البيت القريب من مدينة قندهار وإن كان في ضواحيها من الشرق واسعاً جداً ويضم أيضاً بيت أسامة الخاص الذي لا يرى منه سوى السور الطيني ، بينما خارجه غرف للضيوف ، وكذلك مسجد يصلي فيه مع حراسه ، وبعض الموظفين التابعين له من العرب ، وبعد أن تدخل من السور الخارجي تصادفك بركة ماء كبيرة بسبب الأمطار والسيول التي اجتاحت بعض مناطق قندهار في تلك الفترة ، وأمام هذه البركة الكبيرة أربع غرف للضيوف ، وأمام الغرف على الجهة الأخرى من البركة الحمام ، بينما قبع في آخر الغرف سخان الماء الذي يعد أحد النعم الكبيرة في أفغانستان ، يعرف ذلك كل من زار تلك المنطقة ، خصوصاً و أن المنطقة معروف عنها طقسها البارد والجاف و

القارس جداً ، إذ غالباً ما تصل فيها درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر في الشتاء .

<u>جولة في فكر أسامة بن لادن :</u>

ما أن جلسنا في إحدى غرف الضيوف مع أبي عثمان وبعض الأفغان العرب ، عقب صلاة المغرب ، حتى دخل أسامة بن لادن إلى الغرفة ، وبالفعل لم أكن أتوقع أنه سيأتي أبداً إذ أنه في مثل هذه الأوقات يكون الوالد و الوالدة مشغولين في العرس وما بعده ، فالمثل العربي ينطبق على أم العروس وليس على أم العريس ، ولكن مع هذا جلس معنا قرابة الساعة ، تحدث في أمور عامة مع جماعته سائلاً عن أحوالهم وأوضاعهم ، ومتطرقاً إلى أمور ربما تكون في غاية الأهمية لفهم واستكناه عقلية وأفكار ابن لادن ، و التي أسعى هنا إلى عصر ما في مخي وذاكرتي لتذكر تلك الأيام من لقائنا معه ، إذ أنه تطرق إلى أمور عدة ، وقد تبدو غير مترابطة ، ولكنها تبقى مهمة في فهم عقليته والطريقة التي يتحرك بها في تلك المناطق

النائية والقصية عن عالم القرن الحادي و العشرين ، لكن كل أحاديثه معك لا يشعرك أنه يعيش خارج المكان والزمان ، فهو قريب منهما جداً ، وكأنه يتابع أحداث العالم لحظة بلحظة من خلال جهاز إعلامي يرصد كثيراً من القنوات الفضائية و الإذاعات والصحف ، ومواقع الإنترنت .

<u>الحل بالتخلي عن الحدود المرسومة :</u>

حانت من أسامة نظرة إلى خريطة ضمن جملة خرائط للعالم العربي والإسلامي ، وبعضها خرائط لدول معينة قابعة في زاوية من زوايا الغرفة ، وكأنها معدة لمحاضرة أو درس ما يتم التحضير له ، وذلك لعقد سلسلة محاضرات يستعد ابن لادن على ما يبدو لإلقائها على أتباعه في المخيمات التي يجري استقبال المتطوعين فيها ، والتي تنقسم أيضاً إلى درجات للمبتدئين ، والمقربين ، والمقربين جداً الموثوق بهم حسبما فهمت من المقاتلين العرب في تلك الديار ، والمقربون جداً يمكن وصفهم بأنهم

أصبحوا أعضاء عاملين في القاعـدة ، الـتي يظهـر لـي أنهـا عملت على خطين متوازيين ، تدريب لكل المسلمين الــذين قدموا إلى أفغانستان ، وربما عاد البعض منهـم إلـى بلاده ، وهـو علـى أمـل أن يشـجع الآخريـن مـن أبنـاء جلـدته علـى القـدوم إلـى أفغانسـتان ، أملاً كمـا يقـول أفرادهـا : علـى إحياء " الفريضة الغائبـة ، وهـي الجهـاد فـي نفـوس الأمـة الإسلامية " ، وهناك تـدريب للخـواص الـذين تلمـس منهـم القاعدة قناعة فـي أفكارهـا ومبادئهـا ، وطريقـة عملهـا ، ويمكن الركون والاعتماد عليهم .

أعود إلى خريطة المملكـة الأردنيـة الهاشـمية ، والـتي بـدا أنهـا مرسـومة مـن قبـل القاعـدة ، اقـترب منهـا أسـامة ، وحاول تثبيتها فـي مكـان يتمكـن مـن خلالـه شـرح أمـر مـا يقلقه ويستولي على أفكاره ، وبدأ يشير إلى موقــع الأردن و بعـض التوضـيحات المكتوبـة علـى الخريطـة منهـا ، كميـة المياه التي تسقط على المملكـة سـنوياً ، وقـال : " يعتقـد الكثيرون أنه برحيل شخص أو زعيـم مـا ، والمجيـء بزعيـم آخـر ، أن الأمـور سـتتغير إلـى الأحسـن ، أو إلـى الأسـوأ ، ويتجاهـــل أو يتناســـى هـــؤلاء الأوضـــاع الطبيعيـــة و الجيواستراتيجية التي تحيط بهذه الدولة أو تلـك ، فـالموارد

الطبيعية المتوفرة لأية دولة تجعلك تفهم قوة وقـدرة هـذه الدولـة علـى مقاومـة الضـغوط الخارجيـة ، وبالتـالي تكـون نظرة هذا النوع من الناس التحليليـة للأمـور قاصـرة وغيـر مكتملة ، فقبل التوقع من أحد أن يفعل شيئاً لشعبه ولأمته ، لا بد من دراسة الأوضاع الجغرافية لبلده ، ومـوارد الدولـة التي يحكمها ، وكذلك قدرتها على الاعتمـاد علـى النفـس ، فضلاً عن الظروف الدولية التي تحيط بهذه الدولة أو تلـك ، " وعاد أسامة إلى الأردن الـذي كـان مثـاله وزاد : " وصـول شخص مثل الملك عبد الله إلى سـدة الحكـم لـن يغيـر مـن الأمور ، ما دامت الأردن كـأردن ، ليـس لـديها تلـك المـوارد التي تمكنه من الوقوف على رجليه ، وهذا ينطبق على كل البلاد العربية والإسلامية التي لا تستطيع لوحـدها أن تقـوم كـدول مسـتقلة ، مهمـا سـعت إلـى ذلـك ، فلا الواقـع ، ولا التاريخ ، ولا الجغرافيا ، يساعدوها في ذلك ، والحل الوحيـد هو بالعودة إلى وحدة الدول العربية ، و الإسلامية ، وهو ما كانت عليه قبل سقوط الخلافة العثمانية ، فقد عشنا سوية مـع بعضـنا لقـرون ، بينمـا هـذه الـدول المفروضـة الحـدود عليها ، لـم يتعـدى عمرهـا العشـرات مـن السـنين ، وبـذلك

يمكن تكوين منظومة متكاملة بعيـداً عـن الهيمنـة الغربيـة ، وقادرة على وقف ذلك الانحدار في حياتنا ومستقبلنا ."

ويستكمل أسامة الشرح فيقول : " الطريق الوحيد لذلك هو الجهاد ضد القوى الغربية التي سعت إلى فرض هذا الواقـع المر علـى الأمـة العربيـة والإسـلامية منـذ سـقوط الخلافـة العثمانيـة فـي 1924 ، دون أن يظهـر منهـا سـوى الإصـرار علـى مزيـد مـن الهيمنـة و التسـلط ، وعـدم منحنـا حريتنـا وحقنا في العيش " .

<u>ابن لادن ... الانتفاضة ينبغي أن تتواصل :</u>

الموضوع الآخر الذي ناله كثير من الشرح والتحليل ، كان الموضـوع الحـي حينهـا ، وهـو الانتفاضـة الفلسـطينية الثانية ، والتي انطلقت فـي العـام 2000 ، وكـان ابـن لادن يتحدث بفخر لا يوصف عن أطفال الحجارة الذين ـ بنظره ــ " أحرجوا الأنظمة العربيـة الـتي سـعت إلـى وأد الانتفاضـة قبل أن تنتقل عـدواها إلـى البعـض مـن دولهـم " وتـذكرت حينها كلام مسؤول باكستاني رفيع سـابق نقـل لـي مـا دار

بينـه وبيـن الرئيـس الفلسـطيني ياسـر عرفـات ، إذ أبلغـه الأخير بأنه بينما كان في إحـدى الـدول العربيـة خلال أيـام الانتفاضة الأولى الـتي بـدأت فـي العـام 1987 لـم يشـاهد علـى تلفزيـون تلـك الدولـة أي مشـاهد للانتفاضـة ، وفـي الصباح حين التقى زعيم تلك الدولة سـأله عـن سـبب عـدم بث مشاهد أطفال الحجارة وهم يقذفون القـوات اليهوديـة بالحجارة ، فأجابه ذلك الزعيم بجواب ربما لـم يفاجـأ ياسـر عرفات كونه خبر الكثير من السياسـات العربيـة و دهاليزهـا بالقول : " هل تريدني أن أعلـم شـعبي كيـف يضـرب هـذا القصر بالحجارة ."

كان أسـامة يريـد أن يبقـي علـى زخـم الانتفاضـة الشـعبية الفلسطينية ، ويدعو إلى مزيد من الضربات ، والعمل علـى إبقاء وهجها مهمـا كـانت الظـروف ، وعـدم التفريـط بهـا ، وإضـاعتها كمـا حصـل خلال الانتفاضـة الأولـى ، ولا يخفـي تحسره على عجزه مع أفراد القاعدة عن المشاركة بالقتال في أرض مسرى الرسـول " صـلى اللـه عليـه وسـلم " كمـا قال لي .

سـعى أسـامة بعـدها بأشـهر مـن خلال رسـالة إلـى مـؤتمر ديوبند الذي عقدته المدرسة الديوبنديـة فـي باكسـتان إلـى

مناشدة الباكستانيين لـدعم الانتفاضـة بكـل السـبل ، ووزع أنصاره خلال المؤتمر شريط فيـديو يطـالب بالبيعـة لنظـام الإمارة الإسلامية الطالبانية بزعامة الملا محمد عمر ، كونها الحكومة الشرعية في الأرض ، ومما قاله في بيـان مكتـوب حينها : " ... وأنتم تعلمون أنه قد قيض الله لهذه الأمة في هذه الأيام العصيبة قيام دولة إسلامية تطبق شـريعة اللـه ، وترفع راية التوحيد ،هي إمارة أفغانستان الإسلامية بقيـادة أمير المؤمنين ملا محمد عمر حفظه اللـه . فـواجبكم دعـوة الناس إلى لزوم هذه الإمارة ، ونصرتها بالنفس والنفيس ، والوقوف معها في مواجهة هـذا التيـار الجـارف مـن الكفـر العالمي ، وتحقيقاً لذلك نرجو أن تضمنوا توجيهات المؤتمر ، الدعوة إلى نصرة الإمارة الإسلامية في أفغانستان ، بكــل الوسائل الممكنة ، وبالنفس ، وذلك بتحريض الشباب علـى الجهاد ، والإعداد في أفغانستان ، فالجهـاد فـي مثـل حـال الأمة اليـوم آكـد فـروض الأعيـان ، وبالمـال ، وذلـك بـدعوة الأغنياء إلى إنفاق أموالهم لهـذه الإمـارة ، ودفـع زكـواتهم إليها ، واستثمار تجاراتهم فيها ، وباللسان بإصدار الفتـاوى في شرعية هذه الإمارة ، ووجوب نصرتها . وبهذه المناسبة فإني أؤكد لكـم وللمسـلمين فـي العـالم ، أننـي أديـن اللـه

بوجوب مبايعة أمير المؤمنين الملا محمد عمـر ، وإننـي قـد بايعته بالفعل عملاً بالنصوص الشرعية الكثيرة ومنها حـديث حذيفة ."

لكـن المـؤتمر الـذي أداره زعيـم جمعيـة علمـاء الإسـلام الباكستانية مولانا فضل الرحمن ، لـم يقـم بشـكل رسـمي بتوزيع الشريط أو قراءة الرسالة ، حتى لا يحرج نفسه أمام الحكومـة ، وغيـر الحكومـة ، خصوصـاً و أن فضـل الرحمـن شخصية سياسية ، ودينية ، معروفة عالمياً ، ولديه ارتباطات دولية ، وبالتالي مثـل هـذا الأمـر ، قـد يسـبب لـه إحراجـات كثيرة ، غير أن هذا لـم يحـل دون توزيـع الشـريط و البيـان داخـل المـؤتمر الـذي غـص بمئـات الآلاف مـن المناصـرين وسـط حضـور مـن دول عربيـة والهنـد وغيرهـا مـن الـدول الأسيوية .

تكريس الكراهية للأميركيين :

لحظت أن أسامة يود استغلال أي معطـى دولـي ، أو ظــرف أو حــدث مّــا لتثــبيت الكراهيــة ، و الحقــد علــى

الأميركيين بشكل خاص ، و الغربيين بشكل عام ، مشدداً على أن مسألة كره الأميركيين لا تأتي بين عشية وضحاها ، وإنما هي عبارة " عن عملية تراكمية لا تأتي بيوم وليلة ، ولابد أن تتوافر ظروف وقوة دفع إعلامية وإقناعية للمواطنين بالخطر الأميركي المحدق بالأمة الإسلامية المسلوبة الإرادة ، وذلك من أجل تكوين رأي عام ، وتيار شعبي ، ضد التوجهات الغربية و الأميركية في بلاد المسلمين " حسب قوله ، مدللاً على ذلك بضرب الأمثلة التي لن يعدمها في مثل هذا الحال ، وعلى رأسها الانحياز الأميركي للكيان الصهيوني الغاصب ، وكذلك الوضع في العراق وكشمير وغيرها من بقاع الأرض ، ولعل هذا ما تفطنت إليه بعض الأوساط الغربية في فترة متأخرة ، حين كتبت الوول ستريت جورنا في نيسان من العام 2001 نقلاً عن مصادر أميركية بأنها تعتزم التقليل من شأن ابن لادن ، وعدم الاكتراث به ، لأن الحديث عنه سيزيد من شعبيته في العالمين العربي ، و الإسلامي ، وعززت ذلك واشنطن بسياسة تهدف إلى احتواء حركة طالبان عبر زيارة ثلاثة من مسئوليها إلى قيادة الحركة في قندهار في 12- 4 – 2001 ، بينما التقى وزير خارجية الحركة مولوي وكيل أحمد

متوكل في الدوحة مع عضو الكونغرس الأميركي المعروف روار بكر أملاً في أن تتم عملية الاحتواء ، وخشية من إطلاق الحركة ليد أسامة بن لادن بعد الضغوطات الأميركية المتزايدة عليها ، إذ أسمعني أحد مسئولي طالبان أن أحد القادة من الحركة التقى أحد كبار الاستخبارات المركزية الأميركية المتخصصين في منطقة الخليج العربي ، وهدده بإطلاق يد أسامة بن لادن في حال وجهت أميركا أي ضربة إلى الحركة ، خصوصاً و أن احتمالات توجيه ضربة أميركية لأفغانستان إثر عملية كول تزايدت .

وتذكرت حينها ما قاله لي المصور النصراني الباكستاني أونيل عدنان حين كان يقوم بتصوير مقابلة لأسامة بن لادن قبل سنوات في قندهار ، بأن أسامة حين عرف بأنني نصراني أكرمني كثيراً ، رغم أنه كان يوم رمضان لدى المسلمين ، لكن لم يمنعه ذلك من إعداد بعض الطعام والفواكه لي ، وهو أمر أقدره كثيراً كونه يحصل في شهر الصيام لدى المسلمين ، فأنا نصراني ، ولكنني تربيت في بيئة مسلمة هي باكستان , ومازلت أتذكر ما قاله لي أسامة حينها بأنه " لست ضد النصارى ، وإنما ضد الأميركيين

الـذين يفرضـون نظرتهـم ونسـختهم علـى العـالم برمتـه مسلمه وكافره " .

تحـدث ابـن لادن بزهـو وفخـر عـن هبّـة الشـارع العربـي والإسلامي لصـالح الانتفاضـة الفلسـطينية ، وضـد الانحيـاز الأميركي السافر إلى جانب يهود ، وكأن لسان الحال يقول : بأن ما قمت بـه طـوال السـنوات الماضـية مـن تحريـض " الأمـة علـى الجهـاد و العـداء ضـد أميركـا أسـفر عـن نتائـج إيجابية ." فقد عاصـرت أنـا شخصـياً الجهـاد الأفغـاني خلال الثمانينيات ومـا زلـت أتـذكر دعـوته إلـى مقاطعـة البضـائع الأميركيـة فـي وقـت مبكـر جـداً ، بينمـا كـان المجاهـدون الأفغان يتلقون الدعم من الاستخبارات المركزية الأميركيـة في قتالهم ضد الاتحاد السوفييتي .

وقدر أسامة الدعم الشعبي العربي إلـى أفغانسـتان حسـب ما نقل عنه الدكتور أيمن الظواهري فـي كتـابه " فرسـان تحـت رايـة النـبي " أن الـدعم الشـعبي العربـي لتسـليح المجاهدين خلال السنوات العشر من الجهاد الأفغاني وصل إلى 200 مليون دولار أميركـي ، عـدا عـن دعـم المنظمـات الإغاثية العربية التي كـانت تنفـق بلا حسـاب علـى مجـالات

الخـدمات الاجتماعيـة للمحتـاجين والمهـاجرين والأيتـام ، وكذلك أقسام التعليم والصحة وغيرهما .

كشـف أسـامة فـي تلـك الجلسـة معـي عـن أمـر مهـم باعتقـادي ، وهـو أن الصـحافيين الأميركييـن أرسـلوا عـدة أسئلة عن طريق السـفارة الأفغانيـة فـي إسـلام آبـاد إليـه وبدا لنا والكلام لأسامة ، أن الأميركيين يريدونني أن أتكلـم فـي هـذا الظـرف بالـذات لكـن الطالبـان رفضـوا ذلـك ، مشددين على أني ما زلت ممنوعاً من الحديث ، ومن ضـمن الأسئلة الـتي وجهـت إلـى أسـامة عـبر السـفارة الأفغانيـة مشـيراً إلـى أنهـا أسـئلة غيـر بريئـة ، وهـي أسـئلة مـن السلطات الرسمية الأميركية ، ولم تكن من الصـحافة ، مـن بينها ما هو موقفك لو انسحبت القوات الأميركيـة الآن مـن الخليج ؟ وماذا كانت سياستك لو انسحبت القوات الأميركية من الخليج حال إرغام الرئيس العراقي صـدام حسـين علـى الانسحاب من الكويت ؟ وبالتأكيد فإنه لم نتمكن من سـماع وجهة نظر أسـامة فـي هـذين السـؤالين المهميـن ، إذ أنـه سريعاً ما انتقل إلى أسئلة ومواضيع أخرى .

ابن لادن والإعلام الفضائي العربي :

أما الموضوع الآخر البـارز فـي حـديث ابـن لادن خلال تلك الجلسـة القصـيرة ، فقـد تركـز علـى الإعلام العربـي ، وتحديداً الفضائي منـه ، الـذي لعـب بنظـره دوراً هامـاً فـي عكس ما يجري لأطفال الانتفاضـة داخـل فلسـطين ، الأمـر الذي سيشجع على تفاعل الشعوب العربية والإسـلامية مـع أحداث الانتفاضة بشكل خاص ، و الأحداث الإسلامية بشـكل عام ، وبـدت إشـارات مـن أسـامة فـي الجلسـة تشـير إلـى رغبته بالانفتاح علـى الفضـائيات العربيـة ، وتحديـداً إم بـي سي وتلفزيون أبو ظبي ، بعـد أن كـانت أشـرطته تتناقلهـا قناة الجزيـرة ، وإن كـان بنظـر مسـاعديه أن سـبب اختيـار الجزيرة هو نشرها وبثهـا كـل مـا يرسـل بعكـس المحطـات الأخرى التي تتوقف عن نقل بعـض اللقطـات ، كمـا حصـل حين أرسل إليها شريط خطابه إلى مؤتمر ديوبند فلم ينشر لا في إم بي سي ولا في تلفزيون أبو ظبي حسـب مصـادر عـدة علمـت بهـا لاحقـاً ، وكـذلك حادثـة عـدم بـث إحـدى الفضائيات العربية كل شريط اعترافات الجواسـيس العـرب

الذين تم إلقاء القبض عليهم من قبل طالبان والقاعدة في العام 2000 .

طـوال الجلسـة القصـيرة هـذه كـان أسـامة هادئـاً للغايـة ، يتوقف أحيانـاً عـن الحـديث ليطلـب شـربة مـاء فـي غرفـة بسيطة ، تفتقد إلى أبسط الأثاث الذي يليق بشـخص عـاش حياته في أسرة معروفة ، وميسورة ، ولـم يظهـر لـي فـي تلك الجلسة أن أسامة تعب أو مريض كما يشاع بيـن الفينـة والأخـرى ، إذ جلسـت بجـانبه فـي العـرس لأكـثر مـن أربـع ساعات فلم يغير جلسته ، سوى مرات معدودة ، ورغم أنني لست طبيباً إلاّ أن وجهه وجلسته وحـديثه معـي طـوال تلـك الفـترة لا يـوحي بـأنه مريـض أو متعـب ، وأعتقـد أن أمـر ملاحظـة فلان تعبـان أو مريـض لا تحتـاج طـبيب أو نحـوه ، بعكس ما حاولت بعض الأجهزة تصوير وضعه الصحي .

وبـالعودة إلـى الحيـاة البسـيطة المتقشـفة الـتي يعيشـها أسامة يقول كل الذين يعرفونه بأنه ربى نفسه وأولاده منذ أن كانوا في السعودية على الخشونة وعدم التكلف ، انتقل أسامة بعد أن تحدث عن الأسئلة ورفض طالبان السماح لــه بأي حوار صحافي إلى الحديث عن صـحافي أميركـي ، وبـدا لي منتشياً وواثقاً ومبدياً ارتياحاً لما سـيرويه لـي وقـال : "

جاء صحافي أميركي إلى هـذا المكـان ، وحيـن بـدأ الحـديث بيني وبينه ، أطفأ جهاز التسجيل ، وأمر المصور أن يتوقف عن التصوير ، فلعله أخطأ العنوان كما قال ، ثم التفت إلي وقال لي ، هل أنت أسامة بن لادن بالفعل فقلت نعم ، فرد : لا أصدق ... كنت أتخيل أنك عدواني وقاس وشديد اللهجة ، بينما تتحدث بكل هـدوء ، وبسـاطة ، وهـو عكـس مـا كنـت أتخيله قبل وصولي إلى هنا ولقائي بك ."

لا أدري ماذا كان يقصد ابـن لادن مـن حـديثه لـي عـن هـذه القصة ، لكن ربما كان يسـعى إلـى إقنـاع العـالم أنـه ليـس بالشرير الذي حاولت القيـادة الأميركيـة تصـويره وإبـرازه ، ولا يرث " إمبراطورية الشر " كمـا كـان الرئيـس الأميركـي رونالد ريغان يطلق علـى الاتحـاد السـوفييتي السـابق ، ولا علاقة له بمحور الشر الذي أطلقه الرئيس الأميركي الحالي جورج بوش الابن على كل من إيران والعراق وكوريا ، وإنما هـو شـخص وديـع لـديه رسـالة هـي القضـاء علـى أميركـا ، وتفتيتها إلى 52 دولة كما يقول مستشهداً ومدللاً على ذلك بقـدرات المجاهـدين الـذين فككـوا الاتحـاد السـوفياتي ، ومضيفاً دليلاً آخر " لقـد أبلغنـا الأخـوة الـذين شـاركوا فـي القتال ضد القوات الأميركية فـي الصـومال ، مـن أن قتـال

الجنــدي الأميركــي أســهل بكــثير مــن قتــال الجنــدي السوفييتي ، فالأخير أشجع بكـثير مـن الجنـدي الأميركـي ، ولذا نحن نعتقد أن هزيمة أميركا أسهل من هزيمـة الاتحـاد السوفييتي ."

كان الجو لا يسمح لي بطرح أي سؤال على الشيخ أبـو عبـد الله كما يدعوه أتباعه ، فقد التزمت بذلك حتى لا أحرج أحداً ، و إن كانت الحاسة السادسة الصحافية تدفعني إلـى قلـب الطاولة وتغيير قواعد اللعبة ، لكن سريعاً ما كنت أعود إلـى قواعـد اللعبـة الاجتماعيـة ، الـتي وافقـت عليهـا قبـل بـدء الرحلة و اللقاء مع رفيقي أبي عثمان ، وإلاّ قد أفسد حينها كل شيء ، ولا أحصل حـتى علـى بضـع دقـائق مـن شـريط العـرس كـي أظهرهـا للعـالم ، وأبيـن أننـي حضـرت هـذه المناسبة التي يحلم بها أي صحافي يطمع بالسبق والشهرة .

قبـل مغـادرته روى لـي قصـة طريفـة عـن أحـد أشـقائه ، مفادها كيف أن وفداً كورياً جاء إلى المملكة ، ليتفاوض مـع شركة شقيقه من أجل أعمال تجارية ، فسـأل أحـد أعضـاء الوفد على الطاولة أحـد إخـواني عـن ماهيـة صـلة القرابـة التي تربطك مع أسـامة بـن لادن فسـكتوا جميعـاً خشـية أن

تفسد عليهم الصفقة التجارية ،ثم تشجعوا وقالوا لهم بأنه شقيقنا ، فوقفوا على أرجلهم ليؤدوا التحية ، وحينها ازدادت ثقة إخواني بأن الوفد ليس من الغاضبين علي ، أو أنني لن أفسد عليهم صفقتهم التجارية التي يعتزمون التوصل إليها مع الكوريين ."

تلميحات عن امتلاك أسلحة غير تقليدية :

يعي أسامة بن لادن كل كلمة يتفوه بها ، وخصوصاً إن كان أمام صحافي مثلي سينقل عنه قسمات ولمحات وجهه ، وحركات يديه ، فكيف بكلامه ؟!! ولكن ما شعرت من خلال الحوار معه أن الرجل ربما يملك سلاحاً غير تقليدي ، ولو سعيت إلى تجميع ما قاله لي في هذا الصدد لن أفلح في إثبات ذلك ، ولكن هذا هو الانطباع الذي ساد خلال تلك الزيارة ، فالظاهر أن أسامة يريد أن يرهب أعدائه من الأميركيين ، وربما غيرهم ،من خلال هذه الرسائل ، بالإضافة إلى كسب ثقة مناصريه ، والمسلمين المؤيدين له بشكل عام ، وذلك في قدرته على منازلة الأميركيين ، ما

دام التفوق بين الطرفين يكمن في الأسلحة غير التقليدية .

كان المسؤول العسكري في القاعدة أبو حفص المصري قد قال لي متسائلاً قبل لقائي أسامة : " هل من الصعب الحصول على مثل هذه الأسئلة ؟!! فنحن نقيم في منطقة محاطة بكل أنواع أسلحة الدمار الشامل ، وبنظرة سريعة إلى خريطة المنطقة يتبين ذلك بوضوح ، فدول وسط آسيا مليئة بذلك ، وتمتلك كل أنواع السلاح غير التقليدي ، وكله معروض في السوق السوداء ، ولمعان الدولار يدفع أي شخص هناك إلى بيع ما لديه من هذا السلاح ، والهند كذلك ، وهناك الباكستان ، وكذلك الصين ، وإيران ، وأغلب هذه الدول لديها عداوات معينة ونسبية مع أميركا ــ الأمر الذي يسهل على التعاون معها ، والاستفادة من هذه العداوات والتناقضات فيما بينها ، وحتى لو نسينا موضوع الدول وعداواتها لأميركا ، فهناك جهات حكومية أو غير حكومية نافذة في هذه الدول لا ترغب بالهيمنة الأميركية على المنطقة ، وليس من مصلحتها لا القريبة ولا البعيدة ذلك أيضاً ، وبالتالي فليس من الصعب على أمثالنا الحصول على هذه الأسئلة ."

احتوت القاعدة في صفوفها كثيراً من مقاتلي الأوزبك ممثلين بحركة النهضة الإسلامية الأوزبكية بزعامة جمعة نمنجاني ، ومحمد طاهر وغيرهما ، وكذلك الطاجيك والشيشان والتتار الذين ما تزال روسيا تحكمهم حتى الآن ، كذلك التركستانيين الذين ما يزالون تحت حكم الصين ، وغيرهم ، ومثل هؤلاء يفهمون تماماً بلادهم وتحديداً مناطق وسط آسيا بيئة وسياسة وجغرافية ، ولذا فتحركهم هناك سهل جداً ، و الحصول على ما يريدونه من سلاح عبر التعاون مع المافيا أو مع الأجهزة الحكومية النافذة مقابل حفنة من الدولارات ليس مستحيلاً ، كما يعرف كل من زار المنطقة ، فقد لحظت خلال زيارتي إلى عشق آباد عاصمة تركمانستان في العام 1995 لهث الناس العامة وراء الدولار وبريقه ، وحدثني في هذا السياق ديبلوماسي عربي كبير نقلاً عن صديق له رجل أعمال مشهور ، يقول الأخير بأنه زار إحدى دول وسط آسيا والتقى رئيسها ، وحين جلس معه في القصر الرئاسي ، لمح بعض الطائرات المروحية المعطوبة ، فقال التاجر للرئيس : لماذا لا تصلحون مثل هذه الطائرات ؟!! فذهل لرد الرئيس عليه حين قال له : " إنني أفكر أن أبيعها لأصلّح القصر ، وقد

عرضت الطائرة الواحدة بخمسة آلاف دولار أميركي ." فاستغرب التاجر العربي لهذا الجواب ، وحرر له شيكاً بأضعاف المبلغ ، فإن كان الرئيس يتحدث عن مشكلة خمسة آلاف دولار ، فماذا عمن دونه في المسؤولية والرتبة الذي قد يبيع الكثير من الأسرار والمعلومات والمواد مقابل إغراء الدولار.

لعل من أهم الميزات التي اكتسبتها القاعدة خلال الحرب الأفغانية ، هي إقامة علاقات وربط الناس الذين قدموا إلى الجهاد في أفغانستان ، فقد كان مثل هذا التجمع ربما الأهم في حياة المسلمين ، والأكبر بعد تجمع الحجيج في مكة المكرمة ، إذ أفاد هذا التجمع والذي ضم عشرات الجنسيات تعرف الكثير على مشاكل بلاد الغير ، وتقديم خبرات لبعضهم البعض ، ثم الاستفادة من إمكانيات كل جهة في بلادها ، ولعل القاعدة أدركت منذ البداية أن الحملة عليها عالمية ودولية ، وهو ما أكده أحد المقربين من أسامة بن لادن خلال تلك الجلسة لي بقوله : " إن التحرك عالمي ضد الإسلام ، فهناك العولمة الأمنية في مطاردة الحركات الجهادية ، ولا بد من مواجهة ذلك من خلال تكاتف جهود الحركات العاملة للإسلام كلها في أرجاء

الأرض ، من أجل إلحاق الهزيمة بهذا الحلف الشرير من القوى المناهضة للمد الإسلامي الجهادي ."

ويظهر أن المشروع الذي كان يسير عليه أسامة بن لادن هو الحصول على أسلحة الفقراء للدمار ، والممثلة بالأسلحة الكيماوية ، نظراً لتكلفتها البسيطة ، وقدرتها التدميرية الهائلة ، فأسامة الذي بدت عملياته التي نفذها ــ وأعود فأقول إن صحت نسبتها إليه ـ بدءً من تفجير الخبر ، إلى العليا ، ثم السفارتين الأميركيتين ، فالمدمرة كول ، ثم إلى تفجيرات نيويورك وواشنطن ، يشير إلى أن خسائر عملياته في تصاعد ، وليس في تنازل ، ولذا من الصعب عليه أن ينفذ عمليات أصغر من العمليات التي نسبت إليه ، بحيث لا تلحق خسائر كبيرة في الطرف الآخر ، وعلى هذا لا يستبعد البعض أن يكون قد لجأ بالفعل إلى الحصول على مثل هذا النوع من السلاح ، لإيقاع الخسائر بالطرف الآخر، ويثبت أنه يتجه إلى الأمام أو إلى أعلى ، وبذلك لم تتراجع وتيرة عملياته العسكرية .

ولكن مع هذا لا يمنع ذلك من بدء حرب عصابات تكلف الجيش الأميركي والقوات الدولية بضعة أفراد ، فهذه

العمليات تختلف عن تلك العمليات المـدبرة والمخطـط لهـا بعيداً عن حرب العصابات .

ولذلك يعتقد البعض أن الذي وصل إلى ضرب معاقل الهيبـة الأميركية في نيويورك وواشنطن ـ أعـود فـأقول إن صـحت نسبتها إليه ـ فإن مثـل هـذه الجهـة باعتقـادي كـانت تفكـر بحجم الرد وتداعيات ذلك ، وبالتالي بكل تأكيـد قـادرة علـى تطوير ذلك الصراع ، ولعل ما صرح به وزير العدل الأميركي أشكوكرفت مـؤخراً بـأن القاعـدة الـتي دربـت عشـرة آلاف مقاتل لم يكونوا لتنفيذ هجوم واحد هو هجوم الحادي عشـر من أيلول .

كان تقرير للأمم المتحدة حصلت عليه بعد سقوط طالبان ، تحدث عن قدرات أسـامة بـن لادن ، وطالبـان ، فـي امتلاك مثل هذا النوع من الأسلحة غير التقليدية ، ويقـول التقريـر بأنه عشية سقوط حركـة طالبـان الأفغانيـة اختفـى حـوالي مائة صاروخ من طـراز سـكود الروسـي ، مـع عـدة منصـات صواريخ لإطلاقه ، وحتى ساعة إعداد التقرير الذي تـم فـي أواخر يناير " كانون ثاني " من عـام 2002 مـن قبـل بعـض الخبراء الدوليين الذين أرسلهم الأمين العام للأمم المتحـدة كوفي عنان إلى أفغانستان ، فإن القاعدة و طالبان حسـب

معلومات التقريـر ، تملكـان أسـلحة دمـار شـامل ، وقـادرة على ضرب أهداف محددة في داخـل أفغانسـتان ، وفـي أي وقت تشاء ، وهو ما يضع السلم الأفغـاني ، و المنطقـوي ، في دائرة الخطر ، خصوصـاً و أن سـيطرة الحكومـة الحاليـة على كامل التراب الأفغاني محل تساؤل واختبـار حقيقـي ، في ظل تجدد المعـارك بيـن قـوات وزيـر الـدفاع الأفغـاني الجنرال محمد قاسم فهيـم ونـائبه الجنـرال الأوزبكـي عبـد الرشـيد دوسـتم فـي مـزار الشـريف شـمالي أفغانسـتان ، بالإضـافة إلـى المعـارك الـتي انـدلعت فـي خوسـت وبكتيـا شرقي أفغانستان بعـد أن رفـض قـادة محليـون معروفـون ونافذون قـرار الحكومـة الأفغانيـة المركزيـة بزعامـة حامـد كارزي تنصيب باتشا خان زادران حاكماً على الولايـة ، وأدت المواجهات بين الطرفين إلى وقوع أكثر من خمسين قـتيلاً وعشـرات الجرحـى ، وبـدء الحـديث عـن حـرب عرقيـة فـي أفغانستان بعد تدفق قـوات وزارة الـدفاع الأفغانيـة والـتي يغلب عليها الطـاجيكي والأوزبكـي وكـذلك الشـيعة للقتـال فـــي منـــاطق البشـــتون ، حيـــث تتواجـــد قـــوات طالبـــان والقاعدة ، وهو ما قد يحول المعركـة إلـى مواجهـة عرقيـة في ظل شعور البشتون بأن أميركا والقوات الدولية لا تثـق

بهـــم ، وبالتـــالي فهـــي تعتمـــد علـــى القـــوات الطاجيكيـــة والأوزبكية .

وجاء التـوتر بيـن أميركـا وإيـران علـى خلفيـة دعـم إيـران للقائـد إسـماعيل خـان حـاكم ولايـة هيـرات وكـذلك دعمهـا للزعيــم الأوزبكــي عبــد الرشــيد دوســتم ، بالإضــافة إلــى خلفيــات دعــم طهــران لجماعــة القاعــدة حســب الوجهــة الأميركية ، ووصلت القضية ذروتها بعد أن كشـفت صـحيفة لوس أنجليـس تـايمز يـوم الثـامن مـن مـارس " أذار " مـن العام 2002 عن اعتقال 12 إيراني من بينهـم ضـابط برتبـة جنرال من الحرس الثـوري الإيرانـي كـانوا يقومـون بشـراء ولاء بعــض القــادة الميــدانيين المحلييــن لصــالح الحكومــة الإيرانية ، ومثل هذه التقارير ستزيد من مصـاعب الحكومـة الأفغانية المركزية في توتير علاقاتها مع جار لها مهم مثـل إيران ، خصوصاً و أن علاقاتها متوترة أصـلاً مـع دولـة جـارة مثــل باكســتان ، وهــو مــا يضــاعف مــن متــاعب الحكومــة المركزيــة فــي القــدرة علــى بســط الســيطرة علــى كامــل الـــتراب الأفغـــاني ،فـــي ظـــل امتـــدادات عرقيـــة وإثنيـــة لأفغانستان في كل الدول المجـاورة ، وهـو مـا يجعـل أمـر

التدخل وحتى بدافع المصلحة طبيعياً للدول المجاورة في الشأن الأفغاني الداخلي .

كانت الأجهزة الغربية تحدثت ، وكتبت حتى وسائل الإعلام الغربية الكثير عن امتلاك أسامة بن لادن للأسلحة غير التقليدية ، خصوصاً بعد أن ثبت لقاء لأسامة بن لادن مع عالم ذرة باكستاني يدعى سلطان بشير الدين محمود ، كان زار أفغانستان خلال فترة حكم حركة طالبان الأفغانية ، وهو الذي أنشأ مؤسسة إغاثية تدعم أفغانستان ، والمحتاجين في باكستان ، واعترف بلقائه أسامة بن لادن ، لكن نفى بالمقابل أن يكون حصل بينهما أي تعاون بشأن تقديم أي معلومات أو تسهيلات فيما يخص تصنيع أسلحة نووية أو غير تقليدية ، وإن كان مثل هذا لم يقنع ـ على ما يبدو ـ المسؤولين الأميركيين .

وإظهار بعض العبوات على شاشات المحطات الفضائية الأميركية و التي تحتوي المواد المستخدمة في تصنيع أسلحة كيماوية وجرثومية في معاقل القاعدة في كابول وقندهار وجلال آباد عكس المخاوف في واشنطن وغيرها من العواصم الغربية من القدرات التي تمتلكها القاعدة على تصنيع مثل هذا السلاح الخطير ، بالإضافة إلى

تداعيات ذلك على الأمن القـومي الأميركـي ، خصوصـاً بعـد أن تسربت معلومات عن حصول القاعدة على تقريـر سـري للكونغرس الأميركي يخص النواقص والقصور في المنشآت النووية و الحساسة الأميركية ، وذلـك فـي كومـبيوتر " لاب تـوب " عـثرت عليـه القـوات الأميركيـة فـي أحـد معاقـل القاعدة داخل أفغانستان .

مثـل هـذا الأمـر الـذي سيضـع تسـاؤلات جديـة عـن إمكـان اختراق القاعدة للحياة السياسـية الأميركيـة ، خصوصـاً بعـد تفجيرات الحادي عشر من أيلول ، فمثل هذه العمليات فـي حال ثبت أن القاعدة ورائها تشير إلى أنها وصلت إلى فهم تعقيـدات الحيـاة السياسـية الخاصـة ، فضـلاً عـن العامـة الأميركية ، مكنتها من ضرب أهداف تجسد الهيبة الأميركيـة الماليـة و العسـكرية وهـي " مركـز التجـارة العـالمي " ، والبنتـاغون وسـعيها الـذي لـم ينجـح فـي ضـرب الهيبـة السياسية ممثلة بالكابيتول هول " أي مقر مجلـس الشـيوخ الأميركي ، بعد أن أسقطت الطائرة التي كانت في طريقها إلى المبنى ، وهو ما عـبر عـن قصـور خطيـر فـي الأجهـزة الأمنية الأميركية ، التي تمثل ميزانيتها ميزانيـة دول ، ومـع هـذا لـم تنجـح فـي توقـع مثـل هـذه الضـربات ، فضـلاً عـن

إحباطها ، ومن هنا يدعو البعـض فـي أميركـا إلـى محاسـبة هذه الأجهزة على القصور الذي بدر منها لعدم توقعها مثــل هذا الهجوم ، وبالتالي أين كانت هذه الأجهزة قبـل وعشـية الضربة فـي الـوقت الـذي كـانت فيـه وسـائل إعلام عربيـة وأجنبية تتحدث وتتوقع قريباً من هذه الضربة كما تبين فــي المقدمة من التقرير الذي نشرته صحيفة الدسـتور الأردنيـة قبل الضربة بثلاثة أشهر .

الصمت إزاء إيران :

ما لفت انتباهي في اللقـاء مـع أسـامة هـو صـمته إزاء إيران ، رغم مساعي مني بطريقة أو بأخرى معرفة ما يفكر فيه تجاه إيران والسياسية الإيرانية ، لكنه حرص علـى عـدم مهاجمتها ، رغم تباين مدرسته الفكريـة الـتي ينتمـي إليهـا مع المدرسة الإيرانية ، وهو ما يعد أمراً غير مفهـوم للكـثير من خريجي المدرسة السـلفية السـعودية ، ولكـن يبـدو أنـه يمشي في هذا الموضوع بالذات على حبـل مشـدود بقـوة ، فهو في الوقت الذي لـم تصـدر عنـه أي تصـريحات مشـيدة

بإيران لم ينتقدها أبداً ، وأبقى الباب مفتوحاً وربما غامضاً نوعاً ما ، فإن كان لا يستطيع القدح بها ، نظراً للحاجة التي ربما يعوزها ، أو لحسابات لم تظهر لي حتى تلك الفترة ، ولا هو يستطيع أن يمدحها كون ذلك سيفقده بعض الشعبية في الخليج الذي ليس على ود مع المدرسة الشيعية والخمينية تحديداً .

ويتردد في أوساط مؤيديه ومناصريه ، أنه لعب دوراً لافتاً في تخفيف حدة التوتر بين طالبان وإيران ، إبان سقوط مزار الشريف عاصمة الشمال الأفغاني بأيدي حركة طالبان في العام 1997، وطرد مقاتلي الأوزبك والطاجيك منها حلفاء الحكومة الإيرانية ، وهو ما أعقبه حينها مقتل تسعة ديبلوماسيين إيرانيين على أيدي قوات حركة طالبان ، ما دفع طهران إلى حشد قواتها على طول الحدود مع أفغانستان ، ووصول المواجهة إلى أشدها بين البلدين ، وكادت تقع المواجهة بينهما لكن تم تفاديها بجهود صامتة قام بها على ما يبدو أسامة .

كانت الساعة قد بدأت تؤشر إلى العاشرة ليلاً ، فاعتذر أسامة بهدوء ، وجمع رداءه الأفغاني الذي كان يلقيه على عاتقيه ، ونهض بعد أن استأذن ، فالعادة كما قال أتباعه ،

أنه لا يتأخر في نومه استعداداً لصلاة الفجر ، التي عادة يظل مستيقظاً بعدها ، ولا ينام إثرها ، خرج أسامة من الغرفة وتبعه بعض حراسه ومرافقيه ليؤذن ذلك بأن وقت النوم قد بدأ .

فقندهار بعد العشاء كل شيء فيها هادئ ، بل أشبه ما تكون بمدينة الموتى كمثل المدن الأفغانية الأخرى ، حيث لا حركة ولا تسوق في ظل حظر الحركة للسير بعد الساعة العاشرة ، وهو ما اعتاد عليه الأفغان لأكثر من عقود ثلاثة خلت منذ وصول الشيوعيين إلى السلطة ، أواخر السبعينيات ، وبالتالي اعتاد الأفغان طوال العقود الثلاث الماضية على أن يفيئوا إلى فراشهم وبيوتهم قبل موعد حظر التجوال .

كان أحد الأفغان العرب قد سارع بعد مغادرة أسامة إلى فرش فراشاً لي ، داعياً إياي إلى النوم ، وبالفعل نمت إلى صباح كانت بدايته بصلاة الفجر التي أم المصلين فيها أسامة نفسه ، ليتوجه بعدها إلى توديع والدته وشقيقيه وشقيقته ، الذين قدموا لحضور عرس ابنه محمد ، وبعد أن ودعهم جمعياً إلى باكستان ، ليتوجهوا منها إلى المملكة العربية السعودية ، حضر إلينا صباحاً لتناول طعام الفطور ،

لنبدأ جولة حوار أخرى مفروضة علي كالعادة ، دون أن أتمكن من طرح أي سؤال من كل الأسئلة التي تدور في ذهني منذ فترة طويلة ، وهي نفس الأسئلة التي تدور في أذهان مئات الملايين ، وربما أكثر من البشر على هذه الأرض الذين يمسون ويصبحون على أخبار أسامة بن لادن في محطات التلفزة العالمية ، وبكافة اللغات واللهجات ، إذ كان أسامة يستحضر مرة أنه خلال مؤتمره الصحافي الذي عقده في خوست بمناسبة إعلان الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود و النصارى ، حضر صحافي صيني وكان حريصاً جداً على توجيه سؤال لي ، وحين سمحت له وجدته يسأل عن بعض المسلمين التركستانيين الموجودين كما يقول في صفوف القاعدة ، فقد ظهر أن أسامة منتشي من أنه حتى الصحافة الصينية غدت مهتمة به وبقضيته .

<u>فطور ... عسل وزيتون وزيت وزعتر :</u>

جلس ابن لادن وهو يشعر بقليل من البرد ، لكنه كان يحاول معالجة ذلك بإصلاح الجاكيت" الفيلت " الأميركي

المبرقع الذي كان يرتديه ، أملاً في دفع برد قندهار الصحراوي الجاف ، سلم علينا ، وافتتح حديثه عن توديعه لأمه وشقيقيه ، وشقيقته ، قائلاً كم تمنيت أن أتمكن من استئجار طائرة خاصة بها لأرسلها إلى المملكة ، ولا أجعلها تتعب بالانتقال إلى باكستان ، ومن هناك إلى السعودية فأم في مثل هذا السن لا يصلح لها أن تواجه كل هذه المصاعب ، ولكن الظروف صعبة ، واستئجار طائرة خاصة في ظل الحظر المفروض على طالبان أصعب ، صمت برهة أسامة ليعالج حرقة ودمعة طفت من عينيه وكأنه يستسمح والدته لهذه المصاعب التي تكابدها من أجله ، وبسببه ليغلق هذا الملف ، ويسعى إلى السؤال عن الفطور للضيوف ، وبالفعل ، وخلال دقائق كان الفطور الأشبه بالفطور الشامي بين أيدينا في تلك الصحراء القاحلة الجرداء ، فأسامة والدته من سورية وكذلك زوجته الأولى ، ولذا حرص على التأكيد لي لكوني سوري أن ما تأكله طعام من سورية ، خصوصاً الزيت والزعتر ، وكذلك الزيتون ، فهو كله من سوريا ، وبالإضافة إلى ذلك كان العسل الذي بدا لي أحد الأطباق المفضلة لديه ومعه الزبدة و اللبن والجبن والبيض وغيره ، كان فطوراً شهياً في الأوقات

والظروف العادية ، فكيف في صحراء قندهار الجرداء الــتي تفتقــد إلــى أبســط مقومــات الحيــاة الطبيعيــة ، فضــلاً عــن الحياة الكمالية .

جلــس ابــن لادن علــى ركبــة ونصــف ، وهــي الجلســة الــتي يفضلها أثناء الطعــام علــى أســاس أن الرســول صــلى اللــه عليه وسلم كان يجلسها كمــا قــال لــي أحــد مرافقيــه ، مــع إلقــاء الــرداء أو الجــاكيت مــن الكتفيــن ، لأنــه يعيــق أثنــاء الطعام ، فقد بدا لي أنه يحب أن يكون متحللاً من أي ثيــاب ثقيلة خلال الطعــام ، مــذكراً إيــاي بأبائنــا وأجــدادنا ، الــذين يحسبون للطعام حسابه ، ويودون أن يســتمتعوا بكــل لقمــة يضعونها فــي أفــواههم ، لا مثــل جيــل الماكدونالــدز الــذين يــأكلون وجبــات ســريعة دون أي اســتمتاع ، وبعــد أن يهيــئ الجلسة بدءً كما ذكرت من إلقاء الثياب الثقيلة ، التي تعيــق حركة اليد ليتفرغ تماماً إلى الاستمتاع بالطعام ، مــع حركــة فم تدير الطعام ربما لا يحس بها حتى أقرب الجالسين إليه ، مع الحرص على عدم إسقاط أي ذرة ، أو حبة ، من طعــام من فيه ، أو من بين يديه .

الطعام في حضرة أسامة بن لادن له طقوسه بين الأتبــاع ، الــذين يرمقــون كــل نظــرة يلقيهــا ، لتســتجيب لــه ، ولكــن

تلمس الألفة والمودة ، وعدم التكلف بينه وبين أتباعه ، مـع الحرص على الاحترام ، والتقدير ، وعدم التصنع في الحركة أو خلال الحديث ،فنهـوض ابـن لادن عـن المائـدة ، لا يعنـي أبداً أن الطعام قد انتهى كعادة الملوك والحكام ، وإنما مـن أراد المزيد يسـتطيع أن يواصـل ، دون أي حـرج ، وإن كـان أسامة يحرص على البقاء على المائدة أطول فـترة ــ حـتى يرى أن الجميع قد فرغ ، وذلك دفعاً للإحراج في حال قيامه قبل أتباعه ، وضيوفه من باب أولى .

تحدث ابن لادن بعـد الفطـور عـن هيمـانه بـالخيول العربيـة الأصـيلة ، وقـد لحظـت فـي مكـان العـرس بعـض الخيـول العربية التي قيل إنهـا لـه ، ولتعليـم أتبـاعه علـى ركوبهـا ، وهو ما حضّنا عليه عمـر بـن الخطـاب رضـي اللـه عنـه فـي قوله المشهور " علموا أولادكم السباحة و الرمايـة وركـوب الخيل ." كما ذكر أحد الجالسـين إلـى جـانبه ، وربمـا نفـس الخيول التي رأيتها في ذلك المكان ، هي التي شاهدتها بعد سقوط حركة طالبان الأفغانية ، وعرضـها مـن قبـل محطـة السي إن إن الأميركية والتي كانت فـي قنـدهار ، وقـد بـدا عليهـا التعـب والنصـب ، وعـدم الرعايـة والاهتمـام بسـبب القصف الأميركي المتواصل لأكثر من شهر ونصـف الشـهر

على مكان طالما توقعت القوات الأميركيـة أن يحتـوي ابـن لادن وأتباعه .

استأذت ابن لادن بعد الطعام في التقـاط بعـض الصـور لـه وأولاده ، وهو ما سمح به على الفور دون أي حرج ، وطلبت شريط الفيديو الذي كان القسـم الإعلامـي يعـده لنـا ، مـن أجـل عرضـه علـى شاشـة قنـاة الجزيـرة ، وبالفعـل وبعـد حـوالي السـاعة أو أكـثر جـاء أحـدهم ليلقـي الشـريط بيـن يدي ، مؤكداً على أن صورتي قد بدت في الشـريط للتـدليل على حضـوري ، ومـا أن أمسـكت بالشـريط حـتى اطمـأننت على نجاح المهمـة ، ولـم يتبـق أمـامي الآن إلاّ العـودة إلـى باكستان ، لنقل مـا جـرى ، فالعـالم كـان مشـغولاً بأحـداث الانتفاضــة الفلســطينية ، الــتي هــزت الإعلام العــالمي ، وتركـت لـه وجبـة دسـمة ، يعيـش عليهـا فـي زمـن قحـط الأحداث العالميـة ، ولكـن لعـل مثـل هـذا الشـريط سـيلقي حجراً في المياه الإعلامية الراكدة ، وحانت مني نظـرة إلـى الذي سلمني الشريط الذي أدركـت لاحقـاً بعـد نشـر صـوره في أعقاب الحادي عشر من أيلول بأنه خالـد الشـيخ والـذي وصف نفسه مسؤول اللجنة العسكرية في القاعدة خصوصاً بعد رحيل مسؤولها السابق أبو حفص المصري وعرفت مـن بعض المصادر أن خالد الشيخ كان يقوم بمثابة رئيس اللجنة الإعلامية ومسؤول شركة سحاب التي أصدرت عدة أشـرطة فيديو لاحقاً ظهر فيها أسـامة بـن لادن وذلـك فـي أعقـاب سـقوط حركــة طالبــان الأفغانيــة ، وكــان أول منتوجاتهــا شريط الوصية الأولى لمنفـذ هجمـات نيويـورك وواشـنطن أحمـد الحزنـوي وبثتـه قنـاة الجزيـرة الفضـائية ، وحسـب المعلومات المتوفرة لدي فإن الشركة بدأ العمل فيهـا منـذ عام 1999 ، واتخـذت مـن مدينـة قنـدهار مقـراً لنشـاطاتها عمدت إلـى رصـد كـل مـا تبثـه القنـوات الفضـائية العربيـة والغربية والاستفادة مـن موادهـا فـي الشـريط الـذي صـدر مطلع العام 2001 باسم تدمير المدمرة والذي احتـوى علـى لقطـات لتـدريبات عناصـر القاعـدة وكـذلك لـدروس دينيـة ونحوها، كما أصدرت لاحقاً علـى مـا يبـدو دون أن تعلـن أن ذلك من إصداراتها عدداً من الأشرطة ومنها أشـرطة خطـب عامة لزعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن .

ويقول من عرفوا خالد الشيخ بأنه أحد المتابعين للشأن الإعلامي منذ أيام القاعدة في أفغانستان ، وحرص على شراء كل المعدات المتطورة لتحسين أداء القاعدة في الجانب الإعلامي من ناحية نوعية الكاميرات وأدوات الإنتاج وحتى أجهزة الكومبيوتر، ولعلي كنت أحد الشهود على تصويرهم لعرس نجل أسامة بن لادن في قندهار يوم التاسع والعشرين من يناير " كانون ثاني " من العام 2001 م ، حيث شوهد شخص يشبه من نشرت صورته لاحقاً على أنه خالد الشيخ وهو يجلب شريط فيديو العرس ويقدمه لي ويحتوي على بضع دقائق من أجل أن أقوم بإعداد تقريري عن العرس والذي كانت مدته ثلاث دقائق ونصف الدقيقة فقط .

ولاحظ فنيون وتقنيون خبراء في شؤون الإنتاج التلفزيوني أن اللمسات الفنية التي استخدمت في شريط المدمرة أظهر براعة القائمين على الشركة واحترافيتهم وحتى استخدامهم لأجهزة الكومبيوتر في الإنتاج التلفزيوني ، ومع إصدار شريط الوصيتين الأولى والثانية تبين أن شركة السحاب أو الجهاز الإعلامي التابع للقاعدة ما يزال فاعلاً ونشطاً رغم كل الضربات التي تعرض إليها التنظيم والذي خسر الأرض الذي كان يقيم عليها .

ويبدو أن القاعدة تعتمد بنسبة كبيرة على الجانب الإعلامي والدعائي من أجل تحريض " المؤمنين على قتال اليهود والنصارى " حسب تعبير زعيم تنظيم أسامة بن لادن، وباعتبار أن العصر الحالي هو عصر الفيديولوجيا بامتياز وعصر سيلان الصور المرئية وعصر العبادة للمرئي أي التلفزيون فإن القاعدة ركزت كل جهودها على ضخ الصور والتصريحات إلى القنوات الفضائية التي تستهدف بشكل رئيسي الطبقة المتوسطة المتعلمة وكذلك الدنيا في حين يصعب إقناع الطبقة العليا المتعلمة والتي هي حكراً على الطبقة العلمانية المتغربة ، التي تعد بعيدة عن التلفزيون والفيديولوجيا وربما هذا أحد الأسباب المهمة التي جعلت تنظيم القاعدة يبتعد عن التعاطي والتعامل مع الإعلام المكتوب أو حتى المسموع .

نظر إلي مرافقي أبو عثمان ليقول لي : وماذا الآن ؟ هــل تريد المغادرة ؟ فأومأت إليه بنعم ، وتحركنـا باتجـاه محطـة الحافلات فـي مدينـة قنـدهار لنطلـب سـيارة أجـرة ــ كـان مرافقي أبو عثمان يسعى إلى شراء بعض الفواكه لنتسـلى بها في الطريق فابتاع من البائع ، ودفع له ما يريـد دون أن يساومه ، ويبدو أنه قرأ استغراب وجهي على دفع ما طلبــه البـــائع دون أي ســـؤال فـــي مكـــان يتطلـــب المســـاومة والمفاصلة مع البائعين الذين يستغلون الأجانب ، فأزال أبو عثمان التساؤل عن وجهي حين قال : " إنها وصـية الشـيخ أبو عبد الله " أسامة بن لادن " لكل أتباعه فــي أفغانســتان ألاّ يقوموا بالمساومة مع الأفغان ، ويعطوهم ما يطلبــونه ، فهم في أوضاع صعبة ونحن ضيوف ، وليس مــن اللائــق أن تتم المساومة على بضعة دريهمـات هـم فـي أمـس الحاجـة إليها ، وتـذكرت حينهـا قصـة قصـها علـي صـحافي أفغـاني رافق صحافي أميركـي قبـل أكـثر مـن سـنة إلـى قنـدهار ، وحين توجها إلى أحد المطاعم لتناول الغـداء وسـط مدينـة قنـدهار معقـل طالبـان والقاعـدة آنـذاك ، اعتـذر صـاحب المطعم من الصحافي الأميركي طالباً منــه المغـادرة ، لأن ضيوفه من العرب سيأتون الآن ، وبالتـالي سـينزعجون مـن

حضوره ، وهو ما يفسد عليه رزق دائم عليه ، بينما وجود الأميركي مؤقت وغير دائم ، فكم السياسة مرتبطة بالمال والتجارة .

كانت السيارة تتحرك باتجاه سبين بولداك مجدداً ، ثم إلى الحدود إذ عبرناها بسهولة ، ومنها إلى كويته حيث أقمت ليلة هناك في أحد فنادقها ، لأستقل الطائرة إلى إسلام آباد ، وأسرع بتحضير التقرير وأرسله إلى الجزيرة ، وكذلك إلى صحيفة الحياة اللندنية ، لتتوالى ردود الفعل الأميركية عليه .

<u>السفير الأميركي على الخط ؟</u>

فرغت من إرسال الشريط إلى الجزيرة مساءً لأرى في الصباح تعليق الناطق باسم الخارجية الأميركية على تلميحات ابن لادن بحادث المدمرة الأميركية يو إس كول ، والذي اعتبر أنه أمر مثير للتقزز ، أن يؤيد أحد مثل هذه الأحداث التي توقع ضحايا ، و في اليوم الثاني لإرسال الشريط كنت أستعد للتوجه إلى الحج ، وعلمت بعد عودتي

من مكتبي في إسلام آباد أن السفارة الأميركية في إسـلام آباد ، طلبت أن ألتقي السفير الأميركي حينها ويليـام ميلام ، وبالطبع كان الموضوع الحاضر هو زيارتي إلى أفغانسـتان ولقـائي بـابن لادن ، إذ أنـه كـان قـد صـمت لفـترة ليسـت قصيرة ، ولم يتكلم أبداً ، وبالتـالي فـإن واشـنطن تريـد أن تعـرف أي شـيء عـن أوضـاعه ، وربمـا تفكيـره وخططـه المستقبلية ، والظروف التي يعيشها في ظل ما يعلن عـن حصار وقيود طالبانية مفروضة عليه ، فقـد كـانت التقـارير التي تحدثت عن عملية غسل الكلى التي يقـوم بهـا بشـكل دوري محل اهتمام أميركي ، وغير أميركـي ، خصوصـاً و أن بعض التقارير تحدثت عـن تـوجه فريـق طـبي عراقـي إلـى أفغانستان من أجـل معـالجته ، وتحـدثت أخبـار أخـرى عـن شرائه لمعدات خاصة ، من أجـل غسـل كليـتيه بينمـا كـانت تقول بعض المصادر الأفغانية أنه كان يسـتخدم جهـازاً فـي مستشـفى " جـار سـاد بيسـتر" أي مستشـفى الأربعمائـة سـرير ، والـذي كـان عـدوه محمـد نجيـب اللـه آخـر رئيـس شيوعي لأفغانسـتان اشـتراه واسـتخدمه لنفسـه ، وأودعـه فـي نفـس المستشـفى ليقـوم ابـن لادن باسـتخدامه مـن

بعده ، فهل توقع أو تخيل نجيب أن يحصل ذلك ولكن هي الأيام دول .

سعيت بعد العودة من الحج إلى الاتصال بالسفارة الأميركية في إسلام آباد للرد على مكالمة السفير الأميركي ، وبعد أن رد علي الملحق الصحافي الذي أبدى استعداداً لترتيب اللقاء ، رغم أن الموضوع كان قد مضى عليه زهاء الأسبوعين ، إلاّ أنه تبين أن اللقاء بعد هذه الفترة سيكون مع المحلق الصحافي الذي اعتذر للموعد الذي كنا اتفقنا عليه سوية بسبب مشاغل خاصة وقعت له ، ولم نضرب بعدها موعداً آخر .

الفصل الثالث

القاعدة وطالبان،
توقعات مستقبلية

أعتقد أن الكتاب لن تكتمل دورته ما لم نتحدث عن حركة طالبان الأفغانية ، و التي أصبحت على شفاه كل شخص في هذا العالم ، بغض النظر عن لونه ولغته التي ينطق بها ، خصوصاً بعد أحداث الحادي من عشر من أيلول ، و صار الكل يتساءل ، من هذه الحركة التي بمقدورها أن تقول : لا للولايات المتحدة الأميركية ، والتي خضعت لها رقاب كل الحكومات و الدول والزعماء ؟!! وما هي الأهداف والخلفيات العقدية و الفكرية التي تحرك ذلك المارد الطالباني ، و الذي سعى إلى المشاغبة على قوة يسعى الكل إلى خطب ودها فضلاً عن إغضابها والمس بها ؟!! ولم تكتف هذه الحركة بالمشاغبة وإصدار التصريحات فحسب ، وإنما تطورت الأمور إلى أن تؤوي هذه الحركة أكثر الأشخاص مطلوبين لأميركا في العالم ، بل وتحتضن حركته ومساعديه ، وتسمح لهم بأن يصولوا ويجولوا في طول البلاد الأفغانية وعرضها ، دون رقيب أو عتيد ، حتى أن البعض ذهب إلى القول بأن ابن لادن وجماعته خطفوا حركة طالبان .

كل هذه الأسـئلة مشـروعة ، وسـتبقى بـدون إجابـة لفـترة ليسـت قصـيرة فـي ظـل انطلاق الكتـب ، والمقـالات ، والأحاديث ، من قواعد ، وبنى فكرية مسبقة ، ولعل ما يزيد مـن غمـوض الحركـة ، هـو بعـدها عـن الجـانب الـدعائي والإعلامي ، وفقر المكتبـة العالميـة ، بكتابـات القـوم الـتي تعكـس مـا كـان يـدور فـي رؤوسـهم ، ومـا الـذي جعلهـم يتمردون على قواعد دولية وضعتها أميركا ، ومـا علـى هـذا العالم إلاّ أن يرد بـ : سمعاً وطاعة في عصر تحكمه البي 52 و صواريخ كروز وتوماهوك ونحوها.

وكالعادة اختلف الناس فـي حركـة طالبـان الأفغانيـة ، هـل هـي ظالمـة أم مظلومـة ؟ بمعنـى هـل ظلمـت الشـعب الأفغاني حين كلفته فوق مـا يطيـق بإيوائهـا لأكـثر النـاس مطلوبية في العـالم ؟ أم أنهـا مظلومـة ، وضـحية لعـدوان أميركي وهي التي قدمت الكثير من الاقتراحـات والـرؤى ، لحل قضـية أسـامة بـن لادن ، تفاديـاً للوقـوع فـي مصـيدة وشراك الضربة الأميركية ، والـدليل علـى ذلـك مـا كشـفت عنه تحقيقات وتصريحات مسؤولين غربيين فـي أن أميركـا كـانت مبيتـة للضـربة علـى أفغانسـتان حـتى قبـل أحـداث الحادي عشر من أيلول ، وكان القرار اتخذ في حزيران من

العام 2001 ، وذلـك مـن أجـل الوصـول إلـى أسـواق الغـاز والنفط ، حيث محل اللعبة الكبرى التي عادت من جديد إلى المنطقـة ؟ أم أن الأمـر لا هـذا ولا ذاك ، وأن طالبـان ومـا خلفها تعمل علـى نشـدان حيـاة جديـدة للعـالم الإسـلامي ، وتمثل ذلك منذ إعلان نفسها كإمارة ، ورفضها للتقسـيمات الجغرافيـة والعرقيـة والإثنيـة ، فـاحتوت كـل المعارضـين المسلمين من جاكرتا إلى طنجـة ، أملاً فـي تشـكيل قطـب إسلامي معارض لقوى الهيمنة الأميركية والمتحالفين معهـا ؟

وبالتالي يذهب البعض من المفكرين إلى القول بأن كل مـا تدّعيه الإدارة الأميركية من حرب ضد ما يوصف بالإرهاب ما هو إلاّ غلاف لأمر جوهري ، هو الصراع الاقتصادي والتكـالب على نفط آسـيا الوسـطى ، والتخفيـف مـن الاعتمـاد علـى النفط العربي ، ويرى الدكتور حسن حنفي في هذا المجال بـأن صـراع الحضـارات المطـروح غربيـاً مـا هـو إلاّ صـراع اقتصادي بغلاف ثقافي . ويشرح ذلـك الـدكتور حنفـي فـي مقابلة له على موقع إيلاف على الإنترنت يـوم العاشـر مـن مـارس " أذار " مـن العـام 2002 بقـوله : " هـي محاولـة أميركا القفز عبر أوروبا إلى آسيا ، والسيطرة علـي وسـط

آسيا لحصار الصين من الجنوب ، والعراق من الشرق ، والعالم العربي من كل الحائط الشرقي ، وضرب النووي الباكستاني ، وتفتيت إندونيسيا ، وحصار النهضة الصناعية في ماليزيا ، وبالتالي تصبح أميركا في وسط آسيا ، كما هي في وسط أوروبا عن طريق الأطلنطي ، وكما هي في وسط أفريقيا عن طريق الاستيلاء على المواد الأولية والشركات ، وكما هي وسط أميركا اللاتينية عن طريق الجيوش ، والتعامل مع الحكومات التي تشبه حكوماتنا العربية ، وبالتالي يتم لأميركا السيطرة علي العالم . فهي مرحلة أخري من مراحل العولمة ؛ فالعولمة سيطرة اقتصادية ، وهذه السيطرة سياسية واقتصادية وثقافية وتاريخية ، وبالتالي الكل يدخل بيت الطاعة .

لم أسع في هذا الفصل إلى أن أبحث عن أجوبة شافية على كل الأسئلة التي طرحتها عن طالبان ، والتي هي بحاجة إلى بحوث ، ودراسات معمقة ، وربما وقتاً ليس قصيراً لفك ألغاز وأحاجي طالبان وأفغانستان ، ولكن ما أنوي عمله هنا هو تسجيل ملاحظات ومشاهدات وانطباعات صحافي زار مناطق طالبان ، وطالما زار أفغانستان وتعرف إلى قادتها عن قرب ، بعين تحليلية أحياناً وتقريرية أخرى ،

كما التقى معظم قادتها ، وعلى رأسهم زعيم الحركـة الملا محمد عمر ، حيث كنت من الصحافيين القلائل الذين التقـوا الملا عمـر ، ولعـل ضـواغط العمـل والشـغل سـتجعل هـذا الفصل مبتسـراً أملاً أن تسـمح الظـروف فـي تسـجيل تلـك الفترة مـن تاريـخ أفغانسـتان ، والـتي رأى الـدكتور حسـن الترابي في أحد مقالاته في صحيفة " الحيـاة اللندنيـة " أن تجربة طالبان " آثـرت كـثير مـن الحركـات الإسـلامية علـى وأدها لا على تصويبها وتقويمها " .

معظم ما سأكتبه هنا كان من وحـي زيـارتي تلـك الـتي لـم أكتب عنها يومها ، فقد حرصت خلالها على لقاء بعض قادة حركة طالبان ، وتـوجيه أسـئلة إليهـم فيمـا يخـص الأفغـان العرب ، والقاعدة ، لعلـي أحتاجهـا يومـاً مـا ، وإن كنـت لـم أستخدمها لظروف خارجة عني بسـبب حظـر طالبـان نشـر لقـاءات ابـن لادن وتحاشـيت ذلـك ، حـتى لا أكـون ضـمن القائمة السوداء الطالبانية التي ربما تمنع دخولي الأراضـي الأفغانية مستقبلاً ، وفوق هـذا قمـت بالحـديث إلـى النـاس العاديين الذين أبدوا ارتياحاً للوضع الأمنـي ، إذ قـارنوه مـع ما سبق من حكم أمراء الحرب الأفغان الذين حولـوا بلادهـم إلى مزارع لهم ولأقاربهم ، وركزت على عـدة قضـايا وهـي

التي تشغل بـال الجميـع ، مثـل مـن طالبـان ؟ مـن هـي ؟ وماذا تريـد ؟ إلـى الحـديث عـن الواقـع الاقليمـي والـدولي وتــأثيره علــى أفغانســتان و الحركــة ، وطالبــان كضــحية لشــركات النفــط والغــاز العالميــة ، والامتــدادات العرقيــة واللغوية الأفغانيـة فـي الـدول المجـاورة ، ومخـاطر بلقنـة المنطقة ، والمخدرات ، بالإضافة إلى الحـديث السـريع عـن أســباب انهيــار حركــة طالبــان وواقــع الأفغــان العــرب ، ومســتقبلهم بعــد غوانتانــامو والوجــود الأميركــي فــي أفغانستان :

1- طالبان من هي ؟ وماذا تريد ؟!!

في البداية أود نقل رواية زعيم الحركة الملا محمـد عمـر عـن تأسيسـها والظ روف الـتي صـاحبت ذلـك ، فهـي ستكون مهمـة فـي هـذا المجـال ، خصوصـاً و أن الملا عمـر معروف أنه مقل في الحديث خصوصاً في القضايا التاريخية ، ومن هنا قد تكون وثيقة مهمة جداً ، يقول الملا عمر فــي كلمة له بثها راديو الشريعة حين كانت طالبان ما تـزال فـي

السلطة : " كنت أدرس في مدرسة ببلدة سنج سار بقندهار مع حوالي 20 من زملائـي الطلاب ، فسـيطر الفسـاد علـى الأرض ، واستشرى القتل والنهب والسلب ، وكان الأمر بيد الفسقة والفجرة ، ولم يكـن أحـد يتصـور أنـه مـن الممكـن تغيير هذا الوضع وإصلاح الحال ، ولو فكرت أنا أيضًـا وقلـت في نفسي ((لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها)) لكفتني هـذه الآية ، ولـتركت الأمـر ، لأنـه لـم يكـن فـي وسـعي شـيء ، لكنني توكلت على الله التوكل المحض ، ومـن يتوكـل علـى الله هذا النوع من التوكل لا يخيب أملـه أبـدًا .. لعـل النـاس يتساءلون : متى بدأت الحركـة ؟ ومـن كـان وراءهـا ؟ ومـن يمولها ؟ ومن يوجهها ويديرها ؟

وأقول : بداية الحركة أنني طويت الكتب في المدرسة فــي سنج سـار ، وأخـذت معـي شخصًـا آخـر وذهبنـا مشـيًا علـى الأقدام إلى منطقة زنجاوات ، واستعرت مـن هنـاك دراجـة نارية من شخص اسمه سرور ، ثم ذهبنا إلى تلوكان .. هــذه هــي بدايــة الحركــة ، وأخرجــوا كــل تصــور غيــر هــذا مــن أذهانكم .

بدأنا نزور الطلاب في المدارس وحلقات الدرس في صــباح ذلك اليوم ، وذهبنا إلى حلقة درس يدرس فيهـا حـوالي 14

شخصًا ، فجمعتهم في دائـرة حـولي وقلـت لهـم : إن ديـن الله يداس تحت الأقدام ، والناس يجاهرون بالفسق ، وأهل الدين يخفون دينهم ، وقد استولى الفسقة علـى المنطقـة كلها ، يسلبون أموال الناس ، ويتعرضـون لأعراضـهم علـى الطرق العامة .. يقتلون الإنسان ثم يسندونه إلى حجر على قارعة الطريق ، وتمر بـه السـيارات ، ويـرى النـاس الميـت ملقى على قارعـة الطريـق ولا يجـرؤ أحـد علـى أن يـواريه الـــــــــــــــــــــــــــــــــتراب .

قلـت لهـم : لا يمكـن الاسـتمرار فـي الدراسـة فـي هـذه الظروف ، ولن تحل هذه المشـكلات بالشـعارات المجـردة ، نريد أن نقوم نحن الطلبة ضد هذا الفساد ، إن أردتم العمل لدين الله حقيقة فلنترك الدراسة ، وأصـارحكم القـول بـأنه ما وعدنا أحد أن يساعدنا بروبية واحدة ، حـتى لا تظنـوا أنـا سنوفر لكم الطعام ، بل سـنطلب الطعـام والمسـاعدة مـن الشعب .

قلت : إن هذا ليس عمل يوم ولا أسبوع ولا شهر ولا سـنة ، بل سيأخذ وقتًا طويلاً .. هل تستطيعون القيام بذلك أم لا ؟

وكنتُ أشجعهم وأقول لهم : إن هذا الفاسـق الجـالس فـي مركزه مثل القدر الأسود لشـدة الحـر (وكـانت تلـك الأيـام

في فصل الصيف شديدة الحرارة) يحارب دين الله علانية ، ونحن ندعي أننا مـن أهـل ديـن اللـه ولا نسـتطيع أن نقـوم بعمل شيء لنصرة شرعه .

قلـت لهـم : إننـا إن فتحنـا منطقـة سـندافع عنهـا ، ثـم لا تعترضوا لعدم وجود دراسة أو لعدم توافر المـال والسـلاح ، فهـــل تســـتطيعون القيـــام بهـــذا العمـــل .. أم لا ؟ فلم يوافق أحد من هؤلاء الـ 14 على القيـام بهـذا العمـل ، وقالوا : يمكن أن نقوم ببعض الأعمال أيام الجمعة ، فقلـت لهـــم : ومـــن ســـيقوم بـــه فـــي الأيـــام الأخـــرى ؟ أشهد الله على أن الحقيقة هي هذه ، وأنني سأشـهد بـذلك أمـــــام اللـــــه عـــــز وجـــــل يـــــوم الحشـــــر .. هذه الحركة نتيجة التوكل المحـض ، لأننـي لـو قسـت علـى هذه الحلقة باقي المدارس والحلقات لعدت إلى مدرستي ، لكنني وفيـت بالعهـد الـذي كنـت قطعتـه علـى نفسـي للـه تعالى ، فعاملني بما ترون ، فذهبت إلى حلقة درس أخــرى وكـان فيهـا حـوالي 7 طلاب ، فعرضـت الأمـر عليهـم كمـا عرضت علـى طلاب حلقـة الـدرس الأولـى فاسـتعد الجميـع للعمل .

هـؤلاء كلهـم أمـة واحـدة ، لـم تكـن بينهـم فـروق الشـباب والشيخوخة أو الطفولة والشباب أو الذكورة والأنوثة ، لكن هذا العمل كان مبنيًا على حكمة من الله تعـالى ، فـأوقعني منذ بدايته في الامتحان ، فتجولنـا علـى هـذه الدراجـة إلـى صلاة العصر على المدارس وحلقات الـدرس ، حـتى اسـتعد 53 شخصًا من أهل التوكل المحـض ، فعـدت إلـى مدرسـتي وقلت لهم : تأتون غدًا الصباح ، لكنهـم جـاءوا فـي السـاعة الواحدة ليلاً إلـى سـنج سـار ، فكـانت هـذه هـي البدايـة .. إن العمل بدأ قبل أن تمضي على الفكرة 24 ساعة ، وكــان أحد أصدقائي يصلي بالناس ، فلما صلى بهـم صـلاة الفجـر قال أحد المأمومين إنني رأيت الليلة في المنام أن الملائكة دخلت إلىسنج سار ، وكانت أيديهم ناعمة ، فطلبت منهم أن يمسحوني بأيديهم (للتبرك) .

وطلبنا في صباح الغد الساعة العاشرة سيارتين مـن الحـاج بشـر ، أحـد تجـار المنطقـة ، فأعطانـا سـيارتين ، سـيارة صغيرة ، وسيارة شحن كـبيرة ، فنقلنـا هـؤلاء الطلاب إلـى منطقة " كشك نخود " وانضم إلينا آخرون ، ولما كثر العــدد استعرنا الأسلحة من الناس ، فكانت هذه بداية الحركة حتى استمرت)) ا.هـ الزائر إلى أفغانستان فـي العـادة ، لا يجـد

كـثير تغييـر علـى الأرض الأفغانيـة ، رغـم أن المنتقـل مـن باكستان إلى أفغانستان ، يرى النقلة وكأنها بين زمنين ، لا مكانين فقط ، فالنزيف البشري يتواصل هنـاك منـذ وقـت طويل ، و الحرب ما تزال سيدة الموقف ، رغـم انحسـارها في 5% فقط من الأرض أفغانستان ، الـتي تسـيطر عليهـا قـوات المعارضـة الأفغانيـة ، لكـن هـذه الزيـارة لهـا دلالات مهمة ، سيما و أنهـا ترافقـت مـع الهجـوم الانتحـاري الـذي استهدف المدمرة الأميركية " يو إس كول " في ميناء عـدن اليمنـي ، إضـافة إلـى التهديـدات الأميركيـة بضـرب أفغانستان ، و قبلها تهديدات روسية بقصف مواقـع يشـتبه فـي أنهـا تابعـة للمقـاتلين الشيشـانيين ، و هنـاك الحـديث الهندي عن وجود معسكرات تدريب للمقـاتلين الكشـميريين في أفغانستان .

كـل هـذه العوامـل تجعـل مـن زيـارة أفغانسـتان مسـائل مـثيرة ، إلاّ أنـه و قبـل الولـوج إلـى العامـل المنطقـوي ، والدولي ، و تأثيره على ما يجري داخليـاً فـي أفغانسـتان و خارجها ، يحسن أن نركز الحديث عن ماهيـة طالبـان ؛ فمـا هي حقيقتها ؟ و ماذا أنجزت ؟ و ماذا تريد ؟ و كيف أضرت العقوبـات الاقتصـادية بالشـعب الأفغـاني خلال حكـم هـذه

الحركة ؟ لقد ظلت أسئلة ف ي غاية الأهمية ، دون إجابة ، كذلك السؤال عن الدور الأميركي والغربي في صنع حركة طالبان بعد أن اتهمها الكثيرون من المجاهدين السابقين من أمثال زعيم الحزب الإسلامي قلب الدين حكمتيار ، وكذلك رئيس المخابرات العسكرية الباكستانية الجنرال حميد جول بالعمالة لأميركا وبريطانيا ، وأن السفير البريطاني السابق هو الذي كان وراء صنع هذه الحركة ، من أجل ضرب الحزب الإسلامي الخصم العنيد للأميركيين ومسعود ، ولكن نفس حكمتيار وحميد جول عادا وتعاونا ، أو أبديا استعدادهما للتعاون مع الحركة ، ولعل مفتاح ذلك هو المثل الأفغاني القائل : " بإمكانك استئجار الأفغاني ولكن ليس بإمكانك شراءه " وهو ما حصل ربما مع طالبان ، والظاهر أنه حصل افتراق مصالح بينها وبين الأميركيين بعد أن وصلت إلى السلطة في كابول عام 1996 م وهو ما سعيت إلى شرحه لاحقاً .

حركة طالبان حتى الآن تخص طلبة المدارس الدينية ، الذين تلقوا تعليمهم في مخيمات المهاجرين الأفغان في باكستان ، و على أيدي علماء باكستانيين ، من أمثال جمعية علماء الإسلام ، بشقيها مجموعة فضل الرحمن ، و سميع

الحـق ، و الجامعـة البنوريـة برئاسـة مفـتي نظـام الـدين تشامزي ، و يدرك البعض من الطلبة الـذين التقينـاهم دون ذكـر هويـاتهم نقطـة الضـعف هـذه ، وهـي أن القاعـدة الاجتماعية للحركـة مـا تـزال ضـمن إطـار طلبـة المـدارس الدينية ، وبالتالي فإن الحركة لم تسع حتى الآن إلى توسيع قاعدتها الاجتماعية ، لتشمل شرائح أخرى لـديها المفاعيـل والقـدرة والآليـات علـى الـدفاع أكـثر مـن طلبـة المـدارس الدينية الذين تعوزهم التجربة والرؤية لكثير من الأمور التي لم يكونوا على تماس معهـا ، وأدوات التحـرك ونحـو ذلـك ، بالإضافة إلى تقديم نفسـها كممثلـة لكـل شـرائح المجتمـع الأفغاني ، فمـا تـزال تصـر علـى اسـمها ، والـذي يحصـرها ضمن قالب معين ، وطبقة اجتماعية محددة ، بينما هي في السلطة وهرمهـا ، وبالتـالي عليهـا اسـتيعاب الآخريـن فـي صـفوفها ، إلاّ أن هـؤلاء الطلبـة يعـزون ذلـك كلـه إلـى اسـتمرارية المعـارك ، وعـدم توقفهـا ، وهـو مـا جعلهـم منهمكين صباح مساء في الكر والفر ، وأجواء الحرب بحاجة إلـى قـوة متماسـكة و متجانسـة ، بخلاف مـا سـيكون عليـه الحال وقت السلم بعـد أن تبسـط الحركـة سـيطرتها علـى كامل التراب الأفغاني ، الأمر الذي سيدفعها حين ذاك إلـى

توسيع المشاركة ، وإن كان ذلك تفسير غير مقنع للكثيرين ، على أساس أن المشـاركة السياسـية وتوسـيعها مـا الـذي سيضمنها لعرقيات وإثنيات متعددة و متضاربة المصالح فـي وقت السـلم ، بعـد أن تكـون تلـك العرقيـات والأقليـات قـد جردت مـن السـلاح ، الـذي هـو الورقـة الوحيـدة الـتي يتـم الضغط بها في أفغانستان ؟ وبالتالي أفضـل سـلاح لوقـف الحرب كما يرى الكثيرون هو تضمين مصالح هذه العرقيــات والأقليات ، وهو ما سيعني تجريـدها مـن سـلاحها المتمثـل باتهام طالبان في منعها مـن المشـاركة السياسـية ، الأمـر الذي سينزع بدوره المبرر للقوى المنطقوية في أن تواصل تـدخلاتها فـي أفغانسـتان بحجـة الامتـداد العرقـي والواقـع الجيواستراتيجي ونحوه .

يقود الحركة " أمير المؤمنين " الملا محمد عمر صاحب عين واحـدة ، فقـد الأخـرى فـي الجهـاد ، ولعـل وصـف حكومـة الطالبان بأنها " حكومة المعوقين " ربما يكـون دقيقـاً كمـا رأيت ، إذ لاحظت أن أغلب أقطاب الحركة فقـدوا أعينهـم ، أو أرجلهم في الجهاد ضد القوات السوفييتية لأفغانسـتان ، فحاكم ولاية قندهار ملا حسن ، فاقد لساقه و أحد أصابعه ، أما وزير العدل نور الدين الترابي و وزير الخارجيـة السـابق

ملا غوث فكلاهما فقدا عيناً واحدة ، و هناك رئيس بلدية كابول عبد المجيد فقد أيضاً عينه و ساقه ، و نفس الأمر ينطبق على العديد من القادة الميدانيين الطالبانيين .

و رغم أن كلمة " أمير المؤمنين " الملا محمد عمر هي الفيصل في أي قرار ، إلاّ أن للحركة مجلسي شورى مصغر للجانب السياسي ، و يضم حوالي العشرة أشخاص ، وهناك مجلس آخر عسكري ويضم القادة العسكريين الميدانيين المناط بهم المعارك والعمليات العسكرية .

أما المجلس الأول فيعنى بالقرارات السياسية ، و الداخلية للبلد ، و المجلس الثاني يتعاطى مع القرارات العسكرية ، وتجهيز الجبهات ، ومشاكل القادة المحليين والإشراف على العمليات والدعم اللوجستي ونحوه .

لعل طالبان ستعتبر تاريخياً من أكثر إن لم أقل أكثر الحركات السياسية أو الدينية غموضاً ، فليس هناك أي شيء من الأدبيات الفكرية أو الدينية و السياسية التي توضح نشأة الحركة وظهورها وآلية اتخاذ القرار فيها سوى ما كتبه الآخرون تحليلاً واستنتاجاً وليس كشفاً واقعياً

وحقيقياً عما يدور في دهاليز كرملين قندهار حاضرة الحركة الروحية .

يحدثنا محمد رسول " 35 " عاماً الذي عرف الملا عمر منذ عشرين عاماً في إحدى المدارس بقندهار فيقول : " لا أستطيع أن أصفه فهو من الأوفياء لأصدقائه و زملائه ، فلم يتغير علينا قبل و بعد الإمارة أبداً ، و معروف بشجاعته ، و ورعه ، و تواضعه ، و ثباته على الحق ."

و ينقل إلي أحد المسئولين الطالبانيين : " في أحد الاجتماعات مع بعض المسئولين الباكستانيين ، طلبوا منه إغلاق ملف المجاهدين العرب تفادياً لضغوط دولية متفاقمة على باكستان لا تستطيع تحملها " ، وفوجئ المسئولون الباكستانيون برده الذي قال لهم : " نحن نقدر تعاونكم وندرك حجم الضغوط التي تتعرضون إليها ، و بإمكانكم إغلاق حدودكم مع بلادنا ، تفادياً لهذه الضغوط ، واتركونا نعالج الموضوع بأنفسنا ، فمسألة استضافة المجاهدين العرب الذين قاتلوا إلى جانبنا أيام الغزو السوفييتي لأفغانستان مسألة شرعية ، و نتعامل فيها مع الله لا نستطيع المساومة عليها ."

ينقل المبعوث الدولي الخاص إلى أفغانستان الأخضر الإبراهيمي أنه في أحد المناسبات كان هناك لقاء له مع الملا محمد عمر في مبنى القنصلية الباكستانية في قندهار ، ولكن فوجئ في أن الملا عمر يشترط لدخول الغرفة التي ستحتضن اللقاء نزع صورة مؤسس دولة باكستان محمد علي جناح ، وهو الرمز الوطني للباكستانيين ، وأصر الباكستانيون على إبقائها إذ أن ذلك سيمس بكرامتهم وعزتهم ، ولم تحل المسألة إلاّ بعد أن تدخل الإبراهيمي عارضاً إبقائها على الجدار مقابل تغطيتها بالقماش وقبل الطرفان الفكرة .

و ما يزال البعض ينظر إلى الحركة على أنها أحجية غير مفهومة ، و لغزاً محيراً ، وهو حقهم ، وتضاعف هذا اللغز مرتين ، مرة على صعودها المفاجئ ، و أخرى على انهيارها السريع الذي لم يتوقعه الكثيرون .

فالظاهر أن الحركة لم تتعرض إلى الضغوط الأميركية إلاّ بعد سيطرتها على كابول في أيلول من عام 1996 ، وهو مثّل انقلاب في التفكير الأميركي تجاه الحركة ، ويبرر سر هذا الانقلاب الأميركي على الحركة أحد أساتذة جامعة كابول في لقائه معنا : " لقد نجحت الحركة بشكل باهر

في إيهام و تضليل الأميركيين و الغرب بشـكل عـام ، علـى أنها حركة من أجل إعـادة السـلام والاسـتقرار فقـط ، و لا مصلحة لها في الحكم ، الأمر الذي ولّد اعتقاداً لـدى الغـرب بأن الحركة ستسلم السلطة للملك الأفغاني السـابق ظـاهر شاه الذي تسعى واشنطن إلى إعادته مـن رومـا ، وتـوقعت أميركــا علــى أن النــزاع و الشــقاق و الاقتتــال الــداخلي سيصيبها كما أصاب أحزاب المجاهدين الأخرى حال وصولها إلى السلطة ، إن هي رفضت تسليم الحكم للملك الأفغـاني السابق المقيم في روما منذ الانقلاب عليه في العام 1973 على يد ابن عمـه السـردار محمـد داود " ، و كلا الاحتمـالان كذبتهما وقائع الأحداث التي تلت السيطرة على كابول .

في هـذه الأثنـاء ظهـر مـدى التخبـط الأميركـي بيـن مؤيـد لسيطرة طالبان على كابول ، و بين معارض لها . ولعـل مـا عزز القناعة الأميركية أن كـل التحركـات الـتي صـدرت مـن قبل الملالي والعلماء في التاريخي الأفغاني ، كـانت عبـارة عن تحركات ضد ممارسات أخلاقية وسلوكيات لهـذا الحـاكم أو ذاك ، وليــس ضــد سياســات دوليــة أو نابعــة عــن فكــر وسياسة ، وهو ما يعني أن الحركـة المولويـة هـذه ستسـلم السـلطة ، وتتعــاون مــع الملــك والملكييــن ، فقــد بنــت

واشنطن هذه التحليلات على الخبرات السابقة في سياسة وسلوكيات الملالي الأفغان الذين لم يكونوا حريصين على الوصول إلى السلطة بقدر ما يسعون إلى معارضة سلوكيات اجتماعية للحكومات التي ينقلبوا عليها ، وعادة ما يكتفون بتغيير الحكومات ، و يدفعون بحكام آخرين إلى العرش الكابولي كما حصل مع الأمير عبد الرحمن خان في العام 1888 ، و كذلك مع حبيب الله الذي انقلب على أمان الله خان في العام 1928 بدعم العلماء ، لكن يبدو أن العصر تغير كثيراً ، وهو ما عجزت القيادة الأميركية على فهمه وإدراك حجم التغيرات التي حدثت في أفغانستان ، والمياه الكثيرة التي جرت بسبب التحولات العالمية التي أحدثها انهيار الاتحاد السوفييتي ومشاركة المقاتلين العرب إلى جانب المجاهدين الأفغان في الحرب ، وانفتاح الأفغان على العالم الإسلامي بشكل لم يسبق له مثيل .

ما فتئ المحللون الأمريكيون يصرون حتى بعد سيطرة طالبان على السلطة بأنها " ضد العصرنة ، و ليست ضد الغرب " . لكن الحقيقة أن الحركة أشبه ما تكون بالشبكة العنكبوتية التي تصل خيوطها كلها إلى " أمير المؤمنين " ، و هو لقب له دلالاته لدى طلبة المدارس الدينية ، و لا يدع

أي مجال لمخالفة رأيه و حكمه ، سيما و هو يوقـع خطابـاته بخادم الإسـلام ، وقـد أبـدى خلال زيـارتي تلـك الكـثير مـن الشـعب الأفغـاني العـادي ارتيـاحه لحكـم حركـة طالبـان ، خصوصاً في مجال توفير الأمن والاستقرار ، ولكــن كـانوا يشكون من البطالة وقلة ذات اليـد ، فرسـول أمـان التـاجر في داخل غزني الواقعة وسط الطريق الرابـط قنـدهار مـع كابول ، يقول : " الوضع كان خطيـراً قبـل ظهـورهم ، مـن قطع الطرق ، و اغتصاب الأطفال ، و النساء ، و المجــاهرة بالمعاصي ، و حين دخلوا قندهار وغزني وغيرهمـا ، شـعرنا أننــا ولــدنا مــن جديــد ، فــالأمن غــدا شــائعاً ، و الوضــع الاقتصادي تحسن رغم تضـرره بسـبب العقوبـات الأميركيـة على أفغانستان ، نحن مع طالبـان و سـنبقى معهـم ، فهـم الأمل الـذي حفـظ لنـا جهـاد عشـرين عامـاً كـادت الأحـزاب الأفغانية أن تضيع ثمرته ."

و حين تسأل بائع متجـول فـي قنـدهار معقـل الحركـة عـن رأيه فيما يجري يرد بسرعة : " كل شـيء متـوفر ، الأمـن و الاستقرار ، فماذا نريد غير هذا ، أما البضائع فهـي أرخـص حتى من باكستان ، وإن كنـا نريـد عملاً ؛ فالبطالـة مشـكلة المشاكل في بلادنا ، إضافة إلى عدم توفر الخدمات المدنية

و الاجتماعية الـتي تحـول حـتى لعـودة المهـاجرين الأفغـان إلى أوطانهم . " و الغريب أن أسعار المواد في أفغانســتان أرخــص مــن باكســتان ، ولكــن المشــكلة مشــكلة الســيولة النقديــة فــي ظــل فقــدان فــرص العمــل ، وهــذه حقيقــة لمسناها بأنفسنا فمثلاً سعر ليتر البنزين لا يتجـاوز السـبعة عشر روبيــة باكســتانية ، أي مــا يعــادل الخمســة و عشــرين ســنتاً أمريكيــاً ، بينمــا فــي باكســتان يصــل إلــى الواحــدة و الثلاثيــن روبيــة . " ورغــم كــل هــذا الرخــص مقارنــة مــع باكستان ، تبقى مسألة السيولة النقديـة غيـر متـوفرة فـي أفغانســتان ، و فــي طريــق عودتنــا مــن ســبين بولــداك بأفغانســتان إلــى كــويته الباكســتانية وجــدنا الســائق الباكستاني و هو يحشو بعـض علـب حبـات الـدواء ف ي أحـد جيوب السـيارة ، و حيـن سـألناه عـن السـبب قـال : " إننـا نأخــذها مــن أفغانســتان إلــى باكســتان ، فهنــا أرخــص ، وبالتالي لعلنا نبيعها ونستفيد بعض الروبيات " .

لا يظهــر للزائــر أن العقوبــات الدوليــة أضــرت بالشــعب الأفغاني الذي يعاني من أزمة سيولة نقدية ، وكل ما يــأكله مـن صـنع أفغـاني ، وليـس لـديه مجـال للكماليـات ، ولعـل الضرر الرئيسي الذي أحدثته هذه العقوبـات يتمثـل بحركـة

المسافرين التي شـملت 90 ألـف أفغـاني ، يعملـون فـي دولة الإمارات العربية المتحـدة ، فبعـد أن كـان بمقـدورهم المجيء مباشـرة مـن دبـي إلـى أفغانسـتان ، تحتـم عليهـم المــرور مــن خلال باكســتان ، غيــر أن الســماح لإحــدى الشركات الإماراتية بتسيير رحلة أسبوعية إلى قنـدهار بعـد زيارتنـا كـون قـرار الأمـم المتحـدة يحظـر الطيـران علـى الخطـوط الأفغانيـة فقـط ، ربمـا سـهل حركـة الشـعب الأفغاني مـن و إلـى أفغانسـتان إلـى أن انهـارت طالبـان ، وعادت الخطوط الأفغانية تستأنف رحلاتها من جديد .

و قد تمكنـت الحركـة مـن تحصـيل هـذه الشـعبية الكـبيرة و المصداقية وسط الشارع الأفغاني ، من خلال عـدم التمييـز بين مسئول و خفير و مواطن ، فالكل سواسية ، فـالرئيس و المـرؤوس يـأكلان مـن إنـاء واحـد ، لا تمييـز و لا تفضـيل لرئيس على مرؤوسيه .

و العجيــب أن الأمــور تســير بكــل ســهولة و يســر ، فكــل مــواطن يســتطيع أن يقابــل أي مســئول دون عرائــض ، أو وساطات ، و تطبيق الحدود الشرعية ردع قطاع الطـرق ، و اللصوص من تعكير صفو الأمن ، وهو ما لـم يكلـف طالبـان سوى إعدام لبعض القتلة ، فحين انتقلنـا مـن قنـدهار إلـى

سبين بولداك لم نصادف سوى نقطتين للتفتيش ، بينما حين ننتقل من تشمن الباكستانية إلى كويته و هي نفس المسافة نعثر على العشرات من نقاط التفتيش ، الأمر الذي أزعج سائقي الذي التفت إلي قائلاً : " نريد حكومة طالبان في باكستان ، فالكل هنا يرتشي و مفسد بخلاف طالبان " .

و يبدو أن واشنطن توقعت من وراء فرض العقوبات هذه ، أن تضعف الحركة ، و بالتالي تنهار داخلياً ، لكن هذه العقوبات أظهرت الحركة بمظهر التحدي أمام واشنطن ، و هو ما يتناغم مع الشخصية الأفغانية ، وتحديداً القندهارية ويلامس مشاعرها الحقيقة . و على هذا فإن واشنطن تبرمت كثيراً من صمود الحركة أمام هذه العقوبات ، بل و تبرمت أكثر حين تمكنت الحركة من اقتحام معاقل المعارضة في بدخشان في صيف 2001 ، و حصرت المعارضة في جيب ضئيل ، رغم خسارتها حسب المصادر الغربية لحوالي 1500 مقاتل الذي عُد حينها أعنف قتال من نوعه منذ ظهور الحركة قبل ست سنوات ، بينما فقدت المعارضة المئات من مقاتليها .

و الظاهر أن مسـألة القتـل فـي صـفوف طالبـان لا يمكـن المراهنة عليها في تفجير الحركة داخلياً ، وهي التي كـانت قد فقدت أكـثر مـن سـتة آلاف قتيـل فـي معـارك الشـمال الأفغاني في العام 1997أمام قـوات المليشـيات الأوزبكيـة وحزب الوحدة الشيعي الموالي لطهران ، إلاّ أنهـا صـمدت ، ما دام أفرادها يعتقـدون أنهـم يقومـون بـواجب إسـلامي " ذروة ســنام الإســلام و هــو الجهــاد " حســب قــول أحــد الطالبانيين .

و على صـعيد الإنجـازات فقـد تمكنـت الحركـة مـن تصـليح بعض الطرق، وحين وجودنـا فـي تلـك المنطقـة كـانت فـي صدد تصليح طريق قندهار ـ كابول الذي سيكلفها حوالي 15 مليون دولار ، بعـد أن رفضـت عرضـاً صـينياً يقضـي بطـرد بعض الناشطين من تركسـتان الشـرقية الـذين لجئـوا إلـى الحركة مقابل تعهد صيني بتصليح كل طرق أفغانســتان ، و على المقاسات العالمية .

و عرضت الحركة على أثرياء مدينة خوست تصليح مطارها ، و بناءه ليكون مطاراً دولياً ، مقابل الاستفادة من مردوداته لسـنوات مقبلـة ، وظـل الأمـر بيـن أخـذ ورد بيـن الحكومـة

والقبائل المحلية ، حتى انهارت ووصلت الحكومة الانتقالية برئاسة حامد كارزي .

أما على صعيد الكهرباء فقد تمكنت الحركة من إعادتها إلى معظم المدن الأفغانية و بأسعار رخيصة جداً ، بعد أن كان قطع التيار الكهربائي السمة الأساسية أيام الحروب الداخلية بين أحزاب المجاهدين .

واللافت هناك حركة بيع السيارات القادمة من دبي ، والتي تتواصل و بأسعار لا تضاهى ، كون الحركة لا تجيز أخذ الضرائب و المكوث من الناحية الشرعية ، وهو الأمر الذي سهل على التجار الأفغان وشجعهم على التجارة في بلدهم ، و جعل الاقتصاد الأفغاني أكثر ميولاً إلى الخصخصة ، و يفسر ذلك أحدهم بالقول : " إن فلسفة الاقتصاد في الإسلام تقوم على ثراء الفرد و حريته في العمل و التصرف ، و الدولة ليست بحاجة إلى تكديس الثروة إلاّ ما تحتاجه من المصروفات ، فتكديس الثروة لديها ينشر الفساد المالي بين مسئوليها ، و لذا فالمعمول به أنه حين تتعرض الدولة الإسلامية لخطر داهم خارجي أو داخلي يتبرع كل رعاياها لدرء هذا الخطر ، فمنهم من يتبرع بكل ماله ، و منهم من يتبرع بجزئه ."

و يبدو أن الحركة تعتمد بشكل كبير في دخلها على حق المرور للسيارات و الشاحنات ، التي تعبر منها إلى وسط آسيا ، و كذلك إلى باكستان ، سيما مع فتح معابر الحدود مؤخراً مع أوزبكستان ، وهناك معابر الحدود مع تركمانستان وإيران أيضاً .

أما على صعيد الهواتف ، فقد كانت الحركة حسب حديث الناطق الإعلامي باسمها آنذاك محمد طيب أغا قد " وقعت اتفاقاً مع شركة أميركية يقضي بتركيب ألفي خط في قندهار ، و ثمانين خطاً في كابول ، و تبلغ تكلفة تركيب الخط الواحد مائتي دولار ، لكن الآن وقعنا عقداً مع شركة صينية بالمساهمة مع الإمارة الإسلامية الأفغانية ، و الذي يمكن أن يبدأ تنفيذه خلال ثلاثة أشهر ، و يقضي بتركيب آلاف الخطوط في معظم المدن الأفغانية ، الأمر الذي سيخفض من قيمة تركيب الخطوط الجديدة للمواطنين " .

و بذلت الحركة جهوداً مضنية من أجل استعادة مفتاح أفغانستان الدولي الذي كان الرئيس الأفغاني المخلوع برهان الدين رباني قد باعه ، وحين نسأل محمد طيب عن سبب اختيار الصين لتركيب خطوط الهاتف قال : " لقد عرضنا على شركات ألمانية وغيرها العمل في هذا الحقل ,

و لكـن الكـل يتـذرع بعـدم الاسـتقرار، وبالتـالي لـم يقبـل بالعمل في هذه الظروف إلاّ الطرف الصيني ."

و في كابول ولدى وصولنا إليها علمنا بـأنه تـم إعـادة فتـح مصنع ماركوبولو لصناعة الأحذية والـذي ينتـج يوميـاً 1200 زوج من الأحذية ، و بكافة المقاسات بعد أن توقـف طـوال حروب المجاهدين .

و لا يخفي المسئولون الطالبانيون من خيبتهم حيال علمـاء المسـلمين ، و كبـار قـادة الحركـات الإسـلامية ، الـذين لـم يشـاءوا التعـرف علـى هـذه الحركـة ، و حيـن نسـأل أحـد المسئولين الطالبانيين الكبار، و بـالطبع أصـر علـى حجـب هويته عن سرّ ذلك يقـول بعـد أن أشـاد بتصـريحات للشـيخ يوسـف القرضـاوي الـتي أثنـى فيهـا علـى الحركـة : " لا ندري .. فنحن في حيرة من أمرنا ، لم يأتنا أحد مـن أولئـك الذين كانوا يأتون للجهاد حيـن كـانت أميركـا راضـية عليـه ، فهل تغير موقفهم بعد تغير الموقف الأميركي ؟!! "

و يرى بعض المحللين أن عجز الحركـات الإسـلامية العربيـة علـى فهـم طالبـان عائـد إلـى تأثرهـا برؤيـة بعـض أحـزاب المجاهـدين ومـن بينهـم زعيـم الاتحـاد الإسـلامي عبـد رب

الرسول سياف ، إلى جـانب ترسـبات قديمـة رسـخت فـي ذاكرة الحركات الإسلامية العربية بأن المولويين التقليـديين مرتبطين و عملاء ، إما للأنظمة في الـداخل أو للخـارج ، و ذلك بحكم ما يقولون إنه تجاربهم في مناطقهم " ولـذا كنـا نسمع أو نقرأ الكثير من قـادة الحركـات الإسـلامية العربيـة عن عمالة طالبان لباكستان .

و يشدد كل مـن التقينـاه مـن قـادة الحركـة و أتباعهـا ، أن مهمتهم تتركز الآن على إقرار الوضع الأفغاني ، و التعريف بحقيقة الحركة التي بدأت بإطلاق مجلتين باللغتين العربيــة و الإنجليزية باسم " الإمارة الإسلامية " ، و كذلك بث إذاعي من إذاعة الشريعة باللغة العربية لمدة نصف ساعة ، وهناك بعض المواقع على الإنترنت ، أملاً فـي أن يوضـح ذلـك كلـه أهداف ومبادئ الحركة كما قال لنا المسئول الإعلامـي فـي مكتب قندهار مولوي أحمد جـان . ولكـن ذلـك كلـه لـم يفـد الحركة حين لحظـة الانقضـاض الأميركـي عليهـا ، فجيشـت أميركا الجيوش من أجل اقتلاع جذورها .

تقوم الحركة أيضاً ببناء "جامعة عمر " الضخمة في وســط قندهار ، تصل تكلفتها إلى العشرين مليون دولار بتبرع من أحــد التجــار الباكســتانيين ، و ملحــق بهــا مســجد و قاعــة

للمحاضرات ، و دكاكين لتغطية نفقاتها في المستقبل ، و هي ستكون من أولى الجامعات في تلك المنطقة الأفغانية التي أهملت تاريخياً .

و حين أسأل أحد المثقفين الأفغان المتعاطفين مع طالبان والمقيمين في قندهار عن حقيقة معاملة الطلبة للمرأة ، و تعاطيهم مع المخدرات ، و هما ملفان أعاقا كثيراً فهم الحركة سيما على المستوى الدولي ، وجُعل منهما عنواناً لفهم الحركة فيجيب : " أكثر من 90% من النساء الأفغانيات يتحدّرن من الريف ، و القرى ، و هن يرين عزتهن و كرامتهن بالبرقع الأفغاني الذي يصوره البعض للأسف كالخيمة ، و هذه النظرة تتماهى مع نظرة الأفغاني إلى أن عزته هو أيضاً في حمل السلاح ، و لقد أثبتت تقارير منظمات الأمم المتحدة زيادة تعليم المرأة في عهد طالبان عن العهود السابقة ، و لكن ضيق ذات اليد ، و إصرار منظمات حقوقية دولية على أن تكون حقوق المرأة على المقاسات الغربية ، أمر غير مقبول لأي دولة فضلاً عن أفغانستان ، فهناك تباينات دينية وثقافية و تقليدية بين الدول . أما بشأن المخدرات فزعيم الحركة حرّم المخدرات رغم أن شريحة واسعة من الشعب الأفغاني

تعيش على زراعة المخدرات ، فكيف سيواصل الشعب الأفغاني تجاوبه مع هذا القرار في ظل تقليص الدعم الدولي عنه ."

و كان برنامج الغذاء العالم حذر في حال عدم تلقيه 54 مليون دولار عام 2001 فإن أكثر من مليون أفغاني معرضون للموت جوعاً . و يأتي ذلك مع زيادة الجفاف في البلاد ، و احتباس المطر في ذلك ، إضافة إلى تدفق المهاجرين الأفغان مجدداً إلى باكستان بنسبة 28 ألف مهاجر شهرياً ، بسبب الجفاف و القحط و البطالة التي تضرب البلاد .

2- أفغانستان وطالبان في عين العاصفة الإقليمية والدولية :

الموقع الجغرااستراتيجي الذي تحظى به أفغانستان دفعت ثمنه غالياً جداً ، سيما في ظل وجود حكومات ضعيفة ، و هزيلة في كابول ، لا تقوى على الصمود أمام ضغوط و مصالح القوى المتنافسة في المنطقة ، والتي أطلق عليها

الخبراء و الاستراتيجيون بـأرض اللعبـة العظمـى قـديماً ، و رغــــم انتقــــال السياســـة مــــن الجيوسياســـية إلـــى الجغرااقتصــــادية ، وأخيــــراً إلــــى الجغراإرهابيـــة ، إلاّ أن أفغانستان ظلـت محـل اهتمـام العـالم برمتـه ، سـيما دول المنطقة بسبب تحكمها بطريـق الحريـر العـالمي الشـهير ، ترافق ذلك مع تشكيل ست دول على حدودها بعد أن كانت تتعامل مع دولة واحدة قوية مثل الاتحاد السوفييتي .

و يعــزو العديــد مــن خــبراء الجغرافيــا السياســية عــزوف أفغانســتان تاريخيــاً عــن اســتخراج مــدفونات أرضــها مثــل الفحم الحجري ، و الذهب ، و الأحجار الكريمـة إلـى تفـادي سيلان لعاب الدول المجاورة في أن تقفز إليها ، و تستولي عليها بـالقوة للتنعـم بهـذه الخيـرات ، و هـي الفـترة الـتي يحددها الشعب الأفغـاني بحكـم الملـك الأفغـاني المخلـوع ظـاهر شـاه الواقعـة بيـن 1933 ــ 1973 ، والـتي أعقبتهـا مرحلة جديدة دخلتها تميزت بالموجة العنفية ، وهي الموجة الخامســة ، إذا حــق لنــا أن نســتعير تعريــف ألفيــن تــوفلر ، وتتمثل بعنف مع الداخل ، و عنف مع الخارج ، ولعل ما ميـز أفغانستان طوال حقبتها التاريخية كونها أسيرة الصــراعات

و الحـروب مـع الآخريـن أو مـع الـذات ، ولـذا فـإن التاريـخ الأفغاني هو تاريخ عسكري بامتياز .

و حيـن الحـديث عـن العامـل المنطقـوي ، و الـدولي ، و تشعباته ، و أهميته على المسرح الأفغاني ، لا بد من تحديد تلك المحددات التي تلعب أهمية في صوغ سياسات إقليمية ، و دولية تجاه هـذا البلـد الممـزق ، و لعـل علـى رأس تلـك الانشغالات التي تحكم سياسات الكثير من الدول قضـية مـا أطلق عليهـا بـ" الإرهـاب الإسـلامي " ، فالـدول المجـاورة على تباين مواقفها ، و اختلاف مصالحها ، تكاد تجمـع علـى أنها تتعرض إلى تهديدات جدية بسبب وصول حركة طالبـان إلـى السـلطة ، و احتوائهـا للمقـاتلين العـرب ، أو مـا تصـر الحركة على تسميتهم بـ " المجاهدين العـرب " ، فالتهديـد بنظـر قـوى علـى رأسـها أمريكـا ، و روسـيا ، و بعـض دول وسط آسيا ، مزدوج ، أوله تهديد من " المجاهـدين العـرب " علـى أسـاس أنهـم يـديرون شـبكة قويـة لخلخلـة مـوازين المنطقة و العالم بحسب توصيف " الدول الشاعرة بـالخطر " ، و تهديد من حركة طالبـان ذاتهـا الـتي تطـرح شـرعية و مفاهيم دولية جديدة عابرة للقوميات ، و العرقيـات ، وهـي التي أصرت منذ البداية على تجاوز مفهوم الدولـة القوميـة

الذي ظهر في أوائل القرن الماضي ، و غـدا سـمة النظـام العالمي ، و تصنفه طالبان بأنه مفهوم غربـي ، و لا يسـتند إلـى أي مـبرر شـرعي ، فضـلاً عـن مصـادماته لـروح الـدين الإسـلامي كـون الأخـوة الإسـلامية هـي الجامعـة ، و ليـس الأرض أو العـرق ، أو اللغـة ، كمـا تحـدث إلينـا العديـد مـن الطلبـة خلال تلـك الزيـارة ، و لعـل هـذا مـا يفسـر حفـر مصطلح " الإمارة الإسلامية " فهو تعبير له دلالاته الشرعية و التاريخيـة ، باعتبـاره يعنـي بتعريفهـم أن أفغانسـتان و إمارتها جزء من الخلافة الإسلامية الموعودة الـتي تنتظرهـا ، وربما تسعى إليها طالبان وإمارتها.

جاء طرح منصب أميـر المـؤمنين ليعـزز مـن هـذه النظـرة الجديدة إلى السياسة والعلاقات الدوليـة ، فهـو منصـب لـه أبعاده دلالاته الشرعية و التاريخية ، ولعل مساهمة الشـعب الأفغاني في الحضارة الإسلامية دافع ومحفز لهم في لعب مثل هـذا الـدور مجـدداً ، وذلـك علـى غـرار مـا لعبـه حكـام السـلاجقة و الغزنـويين و الغـوريين وغيرهـم ، و ليسـوا سلبيين فـي قضـية المسـاهمة مـع هـذه الحضـارة كمـا هـو الحـال مـع بعـض الشـعوب غيـر العربيـة الـتي تفـاوتت مساهمتها في التاريخ الإسلامي .

ففي العشرين مـن مـارس " آذار " مـن العـام 1996 وفـي طقس ربيعي وصل أكثر من 1200 عالم أفغاني إلى مدينـة قنـدهار لمبايعـة الملا عمـر كـأمير للمـؤمنين ، ولعلـه كـان أضخم تجمع من نوعه في التاريخ الأفغاني المعاصر .

و لا تخفي القوى الشاعرة بما تصفه بالخطر الطالباني ، أو خطـر المقـاتلين العـرب أن المنطقـة فـي حالـة تململ خطيـرة علـى مصـالحها ، و حيـن قـابلت أحـد الكتـاب الأمريكيين مؤخراً قدم إلـى المنطقـة لإعـداد كتـاب عـن " الإرهاب الإسلامي " وهـي الموضـة الـتي غـدت رائجـة فـي العـالم الغربـي هـذه الأيـام ، بـادرني بالسـؤال ألا تـرى أن المنطقـة فـي وضـع خطيـر مـن حيـث تنـامي ظـاهرة الإسلاميين في الجيش الباكستاني ، إلى تمـدد المجموعـات الإسلامية المسلحة في كشمير ، و كذلك طالبان و احتوائها لابن لادن و زملائه ، الأمر الـذي يشـي بحجـم الخطـر الـذي كانت تستشعره القوى الغربية من المنطقة ، خصوصاً و أن تقارير غربية عدة تحدثت عن انتقال ما يوصف بـ " الإرهاب " من منطقة الشرق الأوسط ، إلى جنـوب آسـيا ، وهـو مـا دفع أحد الكتاب الغربيين إلى وصف الحدود الأفغانية بأنها " حدود الفوضى " .

الظاهر أن طالبان كانت تعوّل على تصدير نموذجها فكرياً أكثر مما تلتفت إلى ذلك عملياً ، نظراً لأسباب متشابكة ، و معقدة ، أولها مسألة العوز المادي الذي تفتقده ، و مصالح العالم المعقد ، و قتالها المتواصل مع المعارضة ، فضلاً عن مسألة تاريخانية ، تمثلت بدور المدارس الدينية التي تنتمي إليها طالبان في التمدد الفكري والشرعي في الدول المجاورة .

و على رأس معالم الفكر ، و الأصح الممارسات و السلوكيات الطالبانية التي بدأت تنتشر في المنطقة ، و تحديداً باكستان كونها دولة نووية ، قضية الإعجاب بالنموذج الطالباني ، في قدرته على ضبط وضع البلاد الأمني ، رغم أنها كانت وما زالت في حالة حروب ، إضافة إلى إشاعة الأمن و الاستقرار ، و توفير الفرص للجميع بعيداً عن الوساطات و المحسوبيات ، و معلوم أن الدولة الأولى المرشحة لذلك باكستان كونها تتشاطر مع أفغانستان أموراً كثيرة مثل الدين ، واللغة ، و العرق ، و التقاليد ، و نحوها ، إضافة إلى أن المدارس الدينية الباكستانية كانت ، و ما تزال الحاضنة الأساسية والرئيسية للطلبة الأفغان .

وقد ألقى النموذج الطالباني ببصماته على باكستان ، وتجسد من خلال التذمر الشعبي إزاء مئات الآلاف من القضايا المعلقة منذ عشرات السنين في المحاكم ، بينما يلمس الباكستانيون المقيمون على الأراضي الأفغانية سرعة تسوية النزاعات والخلافات بسرعة في القضاء الطالباني ، وذلك في غضون ساعات أو أيام على الأكثر ، و الغريب أن هذا الواقع دفع بعض الباكستانيين القاطنين على الحدود إلى الاحتكام للطالبان ، و ليس إلى الحكومة الباكستانية ، وعمد تنظيم سباه الصحابة " جيش الصحابة " في بعض المناطق الباكستانية إلى تشكيل محاكم موازية للمحاكم الباكستانية ، محلها في المساجد ، و بدأ العامة يلتفتون إليها لنيل حقوقهم بالسرعة ، تحاشياً لبيروقراطية المحاكم الحكومية ، طبعاً كل هذا قبل الإجراءات المتشددة التي اتخذها الرئيس الباكستاني برويز مشرف في أعقاب الضربات الأميركية على أفغانستان .

و عكس مخاوف انتقال النموذج الطالباني إلى باكستان مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية سابقاً كارل أندرفورث حين حذر من انزلاق باكستان نحو " الطلبنة حسب قوله ، فالظاهر أن معظم الحركات الإسلامية الباكستانية ، و حتى

غير الإسلامية ، تتودد إلى الحركة الطالبانية، و هو تقليد متوارث لدى الأحزاب الباكستانية إزاء كل من يصل إلى السلطة في كابول ، كون الأفغان هم الذين نشروا الإسلام في هذه المنطقة ، و دافعوا عنه من خلال معاركهم الشهيرة مع الهندوس .

تدرك القوى الدولية والإقليمية بأن أفغانستان هي من أعرق الدول في المنطقة ، ولذا فإن مرضها سبب في مرض المنطقة برمتها ، كما قال الشاعر الإسلامي محمد إقبال ، والذي اعتبرها بمثابة قلب آسيا ، فإن مرض مرضت أسيا ، وإن شفي شفيت آسيا ، ووصفها أيضاً اللورد كيرزون البريطاني آخر نائب للملكة في أفغانستان أوائل القرن العشرين بأنها " كابينة قيادة أسيا " ، ولكن ثمة مفارقة كبيرة في الحرب الأميركية الآن على ما يوصف بالإرهاب في أفغانستان عن حرب الخليج الثانية ، ففي الأولى كان على أميركا أن تدفع من جيبها ، أو من جيب دافع الضرائب الأميركي ، الذي لن يتحمل لفترة طويلة عملية الدفع ، بينما في حرب الخليج الثانية ، كانت أميركا تقبض من دول الخليج وغير الخليج وهو فارق كبير في الحضارة المادية التي تقوم عليها أميركا وحلفائها في هذه

الحرب والـذين يحسـبون كـل شـيء فـي ميـزان المـادة ، و كذلك في صناديق الاقتراع وقياسات الرأي .

3- طالبان ضحية صراع الشركات الكبرى على أنابيب الغاز :

مـع ظهـور حركـة طالبـان الأفغانيـة علـى المسـرح السياســي ، التفتــت الشــركة الأرجنتينيــة بريــداس إلــى أفغانستان ، من أجل مدّ أنابيب الغاز إلى باكستان ، و منهـا إلى الهنـد ، و اليابـان ، و هـو مـا سـيوفر علـى أفغانسـتان بحدود مائة مليون دولار سنوياً ، كحق مرور أنابيب الغاز من مناطقها ، إضافة إلى تزويـد المنـاطق الـتي تمـر بهـا هـذه الأنابيب بالغاز ، مع توفير عشرات الآلاف من فـرص العمـل للشعب الأفغاني العاطل عن العمل .

و يبدو أن الشركة الأرجنتينية حظيت بقبـول لـدى الحركـة ، على أساس أن شركة يونوكول الأمريكيـة تشـترط شـروطاً قاسية للإقلاع بالمشروع النفطي و الغازي ، و على رأسه ، تحســين طالبــان لســجلها فــي مجــالي حقــوق الإنســان ، وحقوق المرأة ، و هي مسائل حساسة لدى الحركة ، إضافة

إلى كسب الاعتراف الدولي و نحو ذلك من المسائل التي لا تعنى بها بريداس الأرجنتينية .

و بعد أن أمضت رئيسة الوزراء الباكستانية حينها بـي نظيـر بوتـو علـى الاتفـاق، ثـارت ثـائرة واشـنطن ، و دفـع ذلـك ديبلوماسي أمريكي في جلسة له مع بوتو إلى إساءة قواعد البروتوكول حين وجه لها كلمات قاسية ، لتفضيلها الشركة الأرجنتينية على الأميركية ، وهو الأمر الذي لـم تـرض بوتـو بأقل من اعتذار من الديبلوماسي الأميركي ، لكن بعـد أيـام من هذا اللقـاء العاصـف بينهمـا ، و إصـرار بوتـو علـى منـح الحق للشركة الأرجنتينية ، تم الإطاحة بها .

وعزت بوتو حينها الأسباب في لقـاء مطـول أجريتـه معهـا في ذلك الـوقت سـبب الإطاحـة إلـى : " تفضـيلها الشـركة الأرجنتينية على الأمريكية ، لقد أسقطتني شركة يونوكـول الأمريكية " هكذا قالت بوتـو . ويبـدو أن بوتـو لـم تـدرك أن معظـم السياسـيين الأميركيـين كـانوا أو سيصـبحوا بعـد تقاعدهم سياسياً مسؤولين في هذه الشركات كمستشارين للاسـتفادة مـن علاقـاتهم العامـة ، وكـان مـن بينهـم وزيـر الخارجية الأميركي السابق هنـري كيسـنجر ، نـائب الرئيـس الأميركي الحالي ، وديك تشيني ومستشارة الأمن القــومي

الأميركي الحالي كونداليزا رايس ، والمستشار الأميركي للشؤون الأفغانية زالماي خليل زاده الأفغاني الأصل ، وحتى مساعدي المبعوثين الأمميين السابقين عملوا كمستشارين لشركات النفط والغاز هذه ، وهو ما يعزز ارتباط السياسة بالنفط والغاز .

و مع سقوط بوتو وافقت باكستان مع تركمانستان ، و أخيراً طالبان ، على منح الحق ليونوكول الأمريكية ، و هو ما أزعج بريداس التي كانت وقعت أصلاً العقد مع الرئيس التركماني صابر مراد نيازوف ، الذي سرعان ما تخلى عنه بعد أن رأى ما حل ببوتو ، بالإضافة إلى قدرة الأميركيين على خلق متاعب عدة لنظامه الشمولي ، فتوجهت بريداس إلى المحاكم رافعة دعوى قضائية ضد الرئيس التركماني ، ويونوكول ، و في أيلول من العام 1997 خطت بريداس خطوة ذكية حين باعت 60% من أسهمها إلى شركة أمكو الأمريكية ، و نقلت بذلك المعركة إلى معركة بين شركتين أمريكيتين في عصر لا يقوى البعض على الصمود أمام القوة الأميركية ، فكيف إذا كانت المسألة متشابكة ويتداخل فيها السياسة أو النفط .

و بقيت الضحية الأساسية لهذا الصراع تركمانسـتان ، الـتي ما تزال تعاني من عدم الاستفادة مـن نفطهـا و غازهـا ، إذ أنها المتضرر الأول من تأخير المشروع ، وهي التي أطلـق عليها " كويت جديدة " ، بسبب مخزونها من النفط ، لكنهـا لا تقدر على تصديره ، والتنعم بـه رغـم تـوالي السـنين ، و يقدر الخبراء استخراج دول وسـط آسـيا مـن النفـط يوميـاً بمليون برميل لا تصدر منه سوى 300 ألف برميل .

و الصـراع المنطقـوي ليـس بعيـداً عـن مصـالح الشـركات العالمية ، فروسيا لا ترغب بأن تـذهب الأنـابيب بعيـدة عـن أراضيها ، أملاً في كسب مردود حق المرور ، لكن ذلك يـأتي على حساب تركمانستان ، لعوامـل عـدة علـى رأسـها بعـد المسافة إلى جانب حالـة الاضـطراب الـتي تسـود روسـيا ، وكذلك بعدها عن الأسواق العالمية .

أما إيران فهي أيضاً لا ترغب أن تذهب الأنابيب بعيدة عنها ، و لـذلك سـعت إلـى مـد خـط أنـابيب الحديـد إلـى سـرخس التركمانية لربطها تجارياً معها ، علـى أمـل أن يسـاعد ذلـك على ربط الجمهوريات الأخرى بإيران .

ولإيران انشغالاتها الخاصة ، فالحركة تلوح بإشهار سلاح السنة و البلوش الإيرانيين المتواجدين على الأرض الأفغانية ، و هم قادرون على إضرام النار في الساحة الإيرانية الداخلية ، خاصة و أن البلوش و السنة بشكل عام يجاورون أفغانستان بينما تنحصر الشيعة في وسط إيران ، و هو ما قد يوفر أرضية خصبة للتحرك الطالباني ، هذا في حال تدهورت الأوضاع . و يسود اعتقاد أن التحول في السياسة الإيرانية إزاء أفغانستان جاء بعد حسابات إيرانية طويلة و معقدة إزاء هذه التضاريس المتشابكة، وإن كان الوجود الأميركي هذه الأيام قد يسبب تقلباً في السياسة الإيرانية ، و التي كانت مؤيدة للأقليات ، ومعارضة بشكل عام للأغلبية البشتونية التي ترى فيها تهديداً لعرقية الهزارة الشيعة الأفغان .

4- <u>الامتدادات العرقية و اللغوية الأفغانية إلى الدول المجاورة :</u>

لعل أكثر ما يهدد المنطقة هو انتقال شـرارة الصـراع العرقي الأفغاني إلى الـدول المجـاورة ، سـيما و أن وجـود امتدادات للعرقيات الأفغانية في الدول المجاورة ، سيشجع تلك العرقيات و الإثنيات على الانضمام لبعضـها البعـض ، و هو ما قد يحـول المنطقـة إلـى حالـة مـن الانفجـار ، سـيما وهي الـتي تخـتزن فـي أحشـائها برميـل بـارود ، فـالبلوش الأفغـان لهـم امتـداداتهم فـي إيـران و باكسـتان ، و كـذلك الطاجيــك و الأوزبــك فــي طاجيكســتان و أوزباكســتان ، و هنـاك البشـتون الأفغـان فـي باكسـتان ، و التركمـان فـي تركمانســتان ، ولـذا يـرى بعـض المحلليـن أن هـذا الواقـع السوداوي القادر على بلقنـة المنطقـة ، دفـع دول الجـوار إلى التعامل مع ظاهرة حركة طالبان الأفغانية فـي البدايـة الـتي رأت فيهـا الكـثير مـن دول المنطقـة بأنهـا ظـاهرة مسـتقرة و ليسـت عـابرة ، سـيما مـع تمكـن الحركـة مـن السـيطرة علـى بدخشـان معقـل الرئيـس الأفغـاني برهـان الدين رباني ، و ثبوت أن المعارضة هزيلة ، فاقدة الشـعبية ، لا تقوى على مقاومة فضلاً عـن هزيمـة الطالبـان ، و لـذا فإن التعامل معها أفضل من مقاومتها و عدائها .

لكن دخول أميركا على الخط بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ، وإن كانت النية مبيتة من قبل ذلك بقدر ما أراح بعض الدول ، بقدر ما أقلقهم على مصيرهم ومصير المنطقة التي يقلقها التواجد الأميركي في حدائقها الخلفية . وما تزال القوات الأميركية غير واثقة من تعاون الأغلبية البشتونية معها في حربها ضد ما يوصف بالإرهاب ، إذ أن تجربة طوره بورة أثبتت أن الذي تعاون معها هو القائد حضرت علي من أقلية البشائي ، وهي المقربة من الطاجيك ، وهو قائد موال لأحمد شاه مسعود ، بينما شعرت القوات الأميركية أن القائد البشتوني المعروف في جلال آباد زمان خان لم يتعاون معها بشكل كامل ، ولعل هذا الدرس هو الذي استفادته من طوره بوره ، حيث لم تثق بالقادة البشتون المحليين ، فعمدت إلى جلب قوات طاجيكية من الشمال ، وتحت إشراف وزارة الدفاع الأفغانية ، الأمر الذي سبب حساسيات بين القادمين الطاجيك وبين البشتون المحليين ، إذ أنها كانت المرة الأولى في التاريخ الأفغاني المعاصر تدخل فيها قوات طاجيكية إلى مناطق البشتون خصوصاً مناطق بكتيا وبكتيكا .

4 – المخدرات :

تعـد المخـدرات مـن المسـائل الـتي تقلـق الغـرب بشكل خطير ، و لذا فهو كان كثير التأكيد علـى ضـرورة أن توقف طالبان زراعة هذه الآفة ، خصوصاً وهي التي تفتـك سنوياً بعشرات الآلاف من الشـباب الغربـي ، فالإحصـائيات الغربيـة تقـول بـأن ثلاثـة أربـاع مـن المخـدرات العالميـة مصدرها أفغانستان ، و لكن كما قال لنا أحـد كبـار الأفغـان الذي يزرع هذه النبتة : " إن كان الغرب قلـق بالفعـل علـى شبابه فليتوقف عن شرائها و استخدامها ، و ليحفظ حدوده ، ويشدد الرقابة عليها ."

و يأخذ الأفغان على المؤسسـات الدوليـة للإغاثـة ، و كـذلك على الـدول عـدم مسـاعدتها فـي المجـال الزراعـي ، فـي الوقت الذي يحذر برنامج الغذاء العالمي من مخاطر تعرض مليون أفغاني للموت جوعاً إن لم يدعم بـــ 54 مليـون دولار خلال مثلاً في العام 2001 .

فحالة الجفاف الأفغاني التي شاهدناها خلال زيارتنا تلك ، لاسيما في ولايات مثل بادغيث و غزني و هيلمند ، وصلت إلى درجة خطيرة في ظل موجة الجفاف و القحط التي تضرب المنطقة برمتها ، و طاولت حتى الحيوانات .

مع سقوط حركة طالبان ووصول حكومة حامد كارزي إلى السلطة عادت من جديد المخاوف الغربية من زراعة هذه الآفة إذ توقعت صحيفة الغارديان في عددها الصادر في 21ـ 2ـ 2002 بأن ترتفع نسبة محصول المخدرات إلى ما يوازي الثلاث سنوات الماضية ، وقدرت الجريدة الكمية بـ 4600 طن ومعلوم أن أفغانستان تقدم 75% من الاستهلاك العالمي للهيروئين ، وحذرت الأجهزة الأمنية الغربية من مغبة وخطورة هذا الأمر في حال عدم معالجته قبل بدء المحصول ، إذ أنه سيشكل كارثة للغرب ، وبريطانيا تحديداً ، كون نسبة 90% من المخدرات الواصلة إلى بريطانيا إنما قادمة من السوق الأفغاني .

ويتحدث من دعا نفسه بهشام المكي في كتابه الذي نشره على حلقات على موقع المحروسة فيقول :" وأن هذه الحرب يجب أن تبدأ وتنتهى قبل موسم زراعة الأفيون, أى فى حدود شهرى أكتوبر ونوفمبر, وبحيث تتيح أمريكا الفرصة كاملة للمزارعين الأفغان لزراعة كافة الأراضي الممكنة بالأفيون. وهذا لا يتأتى إلا بإسقاط حركة طالبان الحاكمة أو إضعافها إلى الحد الذي تعجز فيه عن فرض

حظر شامل كالذي فرضته فى موسم عام 2000/2001م. وهو الحظر الذي أفقد الاقتصاد الأمريكي مبلغ 400 مليار دولار كانت تصب فيه من عائدات الهيروين المنتج من الأفيون الأفغاني. وعبارة جورج بوش التى أطلقها مع إندلاع شرارة هذه الحرب والتى قال فيها (من أجل أن نحسن اقتصاد أمريكا علينا أن نحارب). هذه العبارة تعطى مصداقية أكبر للتقدير المذكور والذى أطلق على هذه الحرب حتى قبل أن تنشب لقب (حرب الأفيون الثالثة).

ولكن الخطاب الرئاسي لبوش بعد وصول حكومة كارزي المعينة في مؤتمر بون من قبل الأمم المتحدة ومن خلف ستار الولايات المتحدة الأميركية خفف اللهجة إزاء المخدرات على أساس أن من الصعب أن تعالج حكومة غير مؤيدة شعبياً لهذه القضية الحساسة ، و التي يعيش عليها الملايين من الأفغان ، وهو ما قد يعزز ما ذكره مكي من قبل ، وجاء هطول الثلوج في الشرق الأفغاني لأول مرة منذ ثلاثين عاماً لينعش موسم المخدرات هذا العام في أفغانستان ، خصوصاً وأن أمراء الحرب الأفغانية سيعمدون إلى تسهيل حركة المخدرات إلى دول وسط آسيا ، ومنها إلى الدول الغربية ما داموا سيحصلون على نسبتهم وحصتهم من وراء هذه التسهيلات .

ومازلت أتذكر ما قاله أحد الأفغان الكبار في السن بأنه إذا كان لدى الغربيين والأميركيين تحديداً " القنبلة

الهيدروجينية فنحن لدينا القنبلة الهيروينية " نسبة إلى الهيروين الذي يستخرج من المخدرات ، وحسب تقرير الأمم المتحدة الذي صدر من فينا يوم 25-10-2002 فإن أفغانستان عادت بعد سقوط حركة طالبان الأفغانية كأكبر منتج للمخدرات في العالم وقال التقرير بأن مسحاً دولياً أظهر أن محصول المخدرات ارتفع في العام 2001 إلى 3300 طن بعد أن كان قد تراجع في أيام طالبان عام 2000 إلى 185 طن فقط بعد الفتوى الشهيرة التي حرم فيها زعيم الحركة الملا محمد عمر زراعة المخدرات والاتجار بها ، بينما كان منتوج المخدرات قبل أن منعتها طالبان 4600 طن .

5- طالبان لماذا الانهيار السريع؟!

تساءل الكثيرون عن سرعة ظهور حركة طالبان ، والتي ابتلعت حيتان أفغانية كثيرة ، كان وما زال لها سمعتها ، وصخبها ، في الساحة الأفغانية ، وما يزال هذا السؤال يحير الكثير من المحللين ، والمختصين بالشأن

الأفغاني ولكن التساؤل الذي سيظل محل اهتمام الكثيرين من الباحثين بالشأن الأفغـاني هـو : لمـاذا انهـارت طالبـان بهـذه السـرعة ، وهـي الـتي كـانت تهـدد ، وتتوعـد القـوات الأميركية ؟!!

وتتفاوت النظرة التحليليـة لهـذا الموضـوع الحسـاس الـذي يحتاج إلى وقت حتى تخرج وثائق تشرح ماذا حصل ؟ ولماذا حصل ؟ وبالتالي يندفع صـناع القـرار فـي كـابول وقنـدهار وغيرهما من المدن المجاورة ، إلى الحديث عن ذلك اللغز . وربما نسعى في عجالة إلى تحديد بعض الأسباب والعوامـل التي أدت إلى سقوط الحركة بهذا الشكل المريع والسريع ، وإن كان من الصعب الجزم بهذه الأسباب لوحدها على أنهـا التي تقف خلف هذا الانهيار :

1. الثابت والذي أعتقد أنه وراء الانهيار السريع للحركـة ، هو عدم تمتعهـا بتنظيـم قـوي ، وترابـط فيمـا بينهـا وبيـن عناصرها ، فهي حركـة وليـدة ولـم يسـمح لهـا الـوقت فـي ترسيخ تنظيمهـا ، وترابطهـا ، وهـو مـا تحتـاجه التنظيمـات

والأحزاب في العادة ، وكما يقول الأفغان بشكل عام : " جاءت طالبان سريعاً وخرجت من المسرح سريعاً ."

2. لم تفهم الحركة أبعاد التحرك الأميركي ضدها في أعقاب الحادي عشر من أيلول ، وفشلت في تعزيز الجبهة الداخلية للحؤول دون تسلل القوات الأميركية من خلالها ، واستغلال قوى داخلية في إسقاط الحركة ، كما حصل حين تحالفت واشنطن مع التحالف الشمالي ، ورغم مناداة زعيم الحزب الإسلامي الأفغاني قلب الدين حكمتيار إلى تشكيل جبهة موحدة ، إلاّ أن الحركة ظلت تتعامل مع الوضع ، وكأنها تتعاطى مع التحالف الشمالي ، ولا تريد أحداً أن يشاركها في شرف النصر ، كما كانت تتوهم ، وإن كانت الدول تتجه في لحظة تعرضها لأي عدوان خارجي إلى توحيد جبهتها الداخلية ، فإن طالبان تصرفت ، وكأنها غير مبالية بكل ما يجري من حولها ، وتهدد وتتوعد دون الارتكان إلى أرضية صلبة ، وقوية ومتماسكة . وغدا مصطلح كارزي عالمياً إذ كلما فكرت أميركا بضرب دولة وتأديبها يتم طرح نموذج التحالف الشمالي وشخصية مثل كارزي لتقوم بالدور المنوط بها أميركياً .

3. الاعتماد الكبير على السلطات الباكستانية ، و التي ظلت الحركة تعول عليها رغم التعاون الوثيق والقوي بين إسلام آباد وواشنطن ضد ما سمي بالحرب على الإرهاب ، ومازلت أذكر ما قاله لي أحد الطالبانيين بعد لقائه مع قادة عسكريين باكستانيين كبار في إسلام آباد خلال الضربات الجوية الأميركية ، بأن المسؤولين الباكستانيين طلبوا منهم الصمود لشهر واحد والبقية عليهم ، أي على الباكستانيين ، ولكن ظهر أن باكستان ربما ورطت طالبان التي كانت على ما ظهر تستشيرها في كل شيء ، حتى يقال أن الانسحابات السريعة من الشمال وكابول ، وحتى الجهات التي سلمت طالبان المدن إليها كان بالاتفاق مع الأجهزة الأمنية الباكستانية ، أو على الأقل مع شريحة منها ، إذ أن التقارير ما تزال تتحدث عن تعاطف أو تعاون بعض الشرائح من الأجهزة الأمنية مع طالبان .

وتتحدث المصادر العربية والأفغانية المطلعة التي كانت في جلال آباد والمقربة من صنع القرار الطالباني بأن عملية انهيار طالبان طبخت بين حاكم جلال آباد الطالباني السابق ملا عبد الكبير والقائد عبد الحق الذي قتل على أيدي طالبان قبل انهيارها ، واعترف بذلك عبد الحق قبل مقتله

أمام حاكم ولاية لوجر ، والذي حقق معه وكتب اعترافاته ، وسجلها كاملة ، وما تزال بعض المصادر الطالبانية تحتفظ بهذه التسجيلات لديها ، وحتى أنها تحتفظ بها مكتوبة كما علمت ، وقد روى الكثير من الباكستانيين المتعاطفين الذين توجهوا إلى أفغانستان لمساعدة طالبان كيف أن بعض القادة الميدانيين الطالبانيين متواطئون مع الشماليين ، وحين تحدث الطلبة الباكستانيين مع بعض القادة الطالبانيين عن هذه المسألة جوبهوا بالبرود وعدم التفاعل مع هكذا قضية حساسة و مهمة .

4. التعارض والتناقض ، وعدم التنسيق ، والمكاشفة ، والمصارحة ، بين تنظيم القاعدة ، وحركة طالبان ، إذ بدا أن كل واحد لديه استراتيجيته في قتال الأميركيين ، وإن كان باعتقادي لم يكن للطالبان استراتيجية في الحرب ضد الأميركيين ، وكانوا يعولون على خطط القاعدة والمقاتلين العرب ، ولكن الانسحاب الطالباني المفاجئ من كابول ، أذهل الكثيرون ، إذ أوقع شباباً عرباً في الأسر ، وهم ما يزالون نياماً دون أن يخبرهم أحد عن الانسحاب ، ولعل الضحية الحقيقية كانت الشباب الباكستاني المتطوع حديثاً ، والذي يصل عدده إلى عشرة آلاف مقاتل ، وهم شباب لا

يعرفون اللغة ، و لا التقاليد الأفغانية ، فضلاً عن الطرق والجغرافيا ، وهو ما جعلهم فريسة سهلة لقوات التحالف الشمالي وقد عرضتهم في المزاد العلني من أجل ابتزاز عائلاتهم وأهلهم ، وفرضوا عليهم دفع ثلاثة آلاف دولار أميركي للإفراج عن الشخص الواحد ، وتحدث الكثير منهم بعد الإفراج عنهم عن المعاملة القاسية و السيئة التي عوملوا بها خلال فترة الاحتجاز خصوصاً لدى قوات شورى نظار بزعامة القائد السابق أحمد شاه مسعود .

5. لعل من أسوء القرارات التي اتخذتها طالبان وتحديداً زعيم الحركة الملا محمد عمر في يوليو " حزيران " من العام 2000 ، هو منع زراعة المخدرات في أفغانستان ، دون توفير أي بديل رغم أن أفغانستان تصدر إلى العالم 75% من هذه الآفة ، ويعيش الشعب الأفغاني بنسبة عالية جداً جداً على هذه الآفة ، وفي ظل عدم تقديم طالبان أو المجتمع الدولي ، البديل لهذا المحصول ، فقد نفر الكثير من الشعب الأفغاني من الحركة وقراراتها وإن كانوا بقوا صامتين ولكن غير مرتاحين لهذا القرار الذي لن يكون بالتأكيد قراراً شعبياً ، فالشارع الأفغاني لم يخف امتعاضه واستيائه من قرار الحركة التي سحبت منه قوت يومه الذي

يعيش عليه في ظل قحط وجفاف لم تعشه على البلاد مــن قبل .

6. فشــلت الحركــة فــي حشــد الــرأي العــام العربــي والإسلامي ، وتوظيفه بشـكل أفضـل ، وذلـك فـي إرسـال الوفود إلى الدول العربية والإسلامية ، ففـي الـوقت الـذي كانت تقول جهاد وعلى الأمة الإسلامية المشاركة فيه ، لــم تكن تضع العالم الإسلامي الـذي كـانت تطلـب النصـرة منـه في صورة الأوضاع الحقيقية ، بل رفضـت حـتى فـي جعـل القتال ضد القوات الأميركية وهي التي رفضت التعاون مـع زعيم الحزب الإسلامي الأفغاني ، وكـذلك مـع قـادة أفغـان آخرين وكأن الحرب مع أميركا نزهة .

7. كالعـادة لعـب المـال الـدور الأساسـي فـي تغييـر ولاء القيادات الطالبانية ، وما زلت أتذكر قول أحدهم بأن هـؤلاء القادة الميـدانيين مـن الأفغـان ليسـوا تـابعين للملا عمـر، بقدر مـا هـم تـابعين للسـلطات الباكسـتانية ، وبشـكل أدق لــبريق الــدولار والأمــوال ، فقــد اشــترتهم الســلطات الباكسـتانية مـن الأحـزاب الأفغانيـة الأخـرى خلال الحـروب الداخلية الأفغانية ، وذلك قبل سقوط كابول بأيدي طالبان ، ولذا تواترت الروايات عن شراء التحـالف الشـمالي لـذمم

قائدين في جبهة شمال كابول ، وهو ما سـهل لهـا اخـتراق الجبهة ، ودخول المدينة والناس في بيوتهم وفراشهم .

8. الظـاهر أن الحركـة اسـتخفت كـثيراً بقـوة الولايـات المتحدة الأميركية وإمكانياتها ، وبكل تأكيد لم تقرأ الكـثير ، أو حتى النذر القليل عن تلك القـوة ، وإليكـم القصـة الـتي رواها لي مندوب الحـزب الإسـلامي فـي باكسـتان الـدكتور غيرت بهير يقول الأخير : " حين توجهت إلـى كـابول خلال القصف الأميركي والتقيت وزير الـدفاع الطالبـاني ، وجـاء الحديث عن الرئيس الليبي معمر القـذافي فـالتفت الـوزير إلى الذي كان بجانبه وسأله من هذا القذافي " ؟!

6- هل تنبأ ابن لادن بسقوط طالبان ؟

طريقة انسحاب القاعـدة ، والفشـل الأميركـي فـي القبض على أحد من رموزها ، أو قتله ، باستثناء مـا حصـل بطريق الصدفة المحضة لأبي حفص المصري فـي قنـدهار ، يشير إلى العجز الأميركـي وفشـله فـي تحقيـق أي انتصـار حقيقي حـتى الآن ، فالقيـادة الأميركيـة الـتي أعلنـت أنهـا

قتلت أبا حفص المصري في كابول ، تبين لاحقاً أنه قتل في قندهار ، الأمر الذي يشي بضعف المعلومات الأميركية عن القاعدة وقادتها ، وإذا أضيف هذا الكلام مع تصريحات ابن لادن المتكررة ، أو من خلال حواريه بشأن إعجابه بالتجربة الصومالية في جر الأميركيين ، وإيقاع الخسائر بهم ، وهو الأمر الذي سيسهل على خروجهم من أفغانستان ، نستطيع أن نقرأ من خلال ذلك كله أن ابن لادن كان يدرك إمكان سقوط طالبان ، ولذا استعد لهذا اليوم ، ولعل ما ضاعف من إمكان استعداد أسامة بن لادن لهذا المصير هو الطريقة التي اختفى فيها ، دون أن يعلم به أحد ، وهو ما عنى أنه كان يستعد لهذه اللحظة ، خصوصاً وأنه اختفى معه المئات من الأتباع ، وهو ما يشكل هزيمة أمنية للقوات الأميركية والتحالف الدولي ، وانتكاسة للهدف المعلن من وراء الحملة الأميركية على أفغانستان ، والمتمثلة في القضاء على ما يوصف بالإرهاب ، وتفكيك شبكة القاعدة ، و القبض على أسامة بن لادن .

وحتى ما حصل من وقوع بعض الأفغان العرب في شراك القوات الأميركية ، وبالتالي تم نقلهم إلى غوانتاناموا ، كان ذلك كله بمحض الخطأ الذي ارتكبه أحد القادة المحليين

العـرب ، وهـو ابـن الشـيخ الموريتـاني ، وهـو مـا سـيأتي مفصلاً مدعماً بروايات بعض الأفغان العرب وبعـض الأفغـان الطالبانيين الذين التقيتهم .

7- كيف وصل الأفغان العرب إلى غوانتانامو ؟

ما يزال لغـز وصـول الأفغـان العـرب إلـى غوانتانـامو يحير الكثيرين ، فهل كان يصدق من خـرج مـن الصـعيد ، أو من الخليج ، أو من الشام ، بهدف الجهاد في أفغانســتان ، أن يجد نفسه فجأة في غوانتاناموا أسيراً بين يدي القــوات الأميركيـة ، ربمـا تصـلح قصـص هـؤلاء إلـى فيلـم ، ربمـا يضاهي أفلام جيمـس بونـد ، ولكـن الـذي بـدأ يتسـرب مـن مصادر الأفغان العرب ، ومصـادر طالبـان ، أن قائـداً عربيـاً محلياً، يدعى ابن الشيخ الموريتـاني ، والـذي أقـام الفـترة التي سبقت وصوله إلى أفغانستان في ليبيـا خـالف أوامـر بعــض مرؤوســيه ، حيــن ســلك مــع حــوالي مــائتين مــن المحاصرين في طوره بوره الطريـق إلـى باكسـتان ، بينمـا كان المفروض أن يلجأ إلى بعض القبائل الأفغانية التي تــم

الترتيب معها مسبقاً ، وبعد أن وثق المقاتلين العرب الذين كانوا متعبين من معارك طوره بوره ، إذ يتردد أن خروجهم كان بمساعدة القائد زمان خان البشتوني ، وهو ما أغضب القائد حضرت علي من أقلية البشائي ، وهي أقرب ما تكون إلى العرقية الطاجيكية والمحسوب على جماعة شورى نظار الذي كان يقودهم أحمد شاه مسعود ، والمتحالف بقوة مع القوات الأميركية في المنطقة ، وبعد أن تمكن المقاتلون العرب من الخروج من أفغانستان باتجاه الأراضي الباكستانية ، طلبت القبائل التي كانت أقسمت على القرآن الكريم ، وهو قسم عظيم لدى تلك القبائل ، بألاّ تسلمهم ، وأنها ستحميهم من كل سوء ، وبعد أن استقروا في بيوتها ، طلبت منهم بطريقة خداعية، تسليم الأسلحة ، وسلموها بالفعل ، ثم استدعت قوات الأمن الباكستانية التي كانت حكومة باكستان نشرت أكثر من ستين ألف جندي من قواتها على طول الحدود مع أفغانستان ، فاعتقلت المقاتلين العرب ، وشككت مصادر أفغانية قبلية عدة تحدثت إليها عن الرواية الحكومية في حصول مصادمات بين قوات الأمن الباكستانية وقوات الأفغان العرب خلال عملية نقلهم من سجن كوهات إلى

بيشاور ، وشددت المصادر على أن ثمة عملية مـدبرة كـانت تهدف إلى التخلص منهم ، وهو ما أرادته القوات الأميركيـة على غرار قلعة جنكي ، لكن العمليـة لـم تسـفر سـوى عـن قتل حوالي عشرة من الأفغان العرب ، والذين دفنوا بشكل لائـق مـن قبـل أهـالي المنطقـة الـذين يـزورون قبـورهم وحولوها إلى أضرحة يضعون عليها أكاليل الزهور .

لكـن مصـادر الأفغـان العـرب يؤكـدون أن بعـض المقـاتلين الأسـرى حـاولوا المقاومـة ، وهـرب بعضـهم وتمكـن مـن الإفلات مـن قـوات الأمـن الباكسـتانية ، ولجـأت القبائـل الباكستانية لاحقاً إلى اتخاذ قرار جماعي بإضرام النـار فـي بيـوت قبيلـة منجـل ، والـتي سـلمت الشـباب العربـي إلـى السلطات الباكستانية ، وكانت سبباً في وجـودهم الآن فـي غوانتانامو .

وما تـزال المحكمـة الباكسـتانية العليـا فـي إقليـم بيشـاور تواصل الاستماع إلى المحامي جاويد براتشـا ، والـذي رفـع قضية ضد الحكومة الباكسـتانية لاحتفاظهـا بالعشـرات مـن الأفغان العرب حتى الآن فـي سـجونها دون وجـه حـق كمـا يقول ، بالإضافة إلى قتلها عشرة منهم في طريقهـم إلـى السجن ، وكنت تحدث إلى المحامي براتشا ، والذي أكد لـي

بأن الحكومة الباكستانية ردت على اعتراضي بقتل الشــباب العرب بالقول : إن قتلهم حصل في حـادث مـروري بينمـا ، الكل يعرف ، وتم نقل ذلك في وسائل الإعلام الدولية ، بأن القتـل حصـل فيمـا وصـف باكسـتانياً بـأنه تبـادل نـار بيـن الطرفين ، وهو غير دقيق ، وإنما تـم تصـفية هـؤلاء العـرب دون إبداء أية مقاومة .

ومن الغرائب في هذه القضية أن وزير الداخلية الباكستاني معين الدين حيدر بعد أن نقلت عنه صحيفة عكاظ السعودية عن احتجاز السلطات الباكستانية لأكثر مــن 240 سـعودي ، عـاد ونفـى ذلـك ، موضـحاً أنهـم أعـادوهم إلـى الأراضـي الأفغانية ولم يسمحوا لهـم بـدخول الأراضـي الباكسـتانية ، وعلى هذا فحتى الآن تنفي باكسـتان أن يكـون الـذين فـي غوانتانـامو انطلقـوا مــن أراضـيها ، مـع العلـم أن أهـالي كوهـات مـن الشـهود العيـان فـي تلـك المنطقـة أكـدوا أن القـوات الأميركيـة هـي الـتي نقلـت الأفغـان العـرب وهـم يلبسون الشورت في شتاء تلك المنطقة القارس .

وكنـت قـد تـوجهت إلـى منطقـة كوهـات علـى الحـدود مـع أفغانستان من طرف طـوره بـوره ، واتصـلت مـع عـدد مـن المصادر الباكستانية النافذة لاستيضاح المسألة ، فتبين لـي

أن الخديعة كانت من قبل إحدى القبائل التي عمدت القبائل بشكل عام في المنطقة إلى إضرام النار في بيوتها كثمن لفعلتهم تلك ، وإن كانت القبيلة أكدت أنها لم يكن في تصورها أن يصار إلى تسليمهم إلى الولايات المتحدة الأميركية ، وأن الأمر ليس سوى تسليمهم إلى السلطات الباكستانية ، ويبدو أن الأخيرة لم تكن تتوقع حتى نقلهم إلى أميركا التي أكدت الأخيرة للباكستانيين على أنه سيصار إلى نقلهم إلى قاعدة قندهار لمزيد من التحقيق .

والذي ظهر لي خلال تلك الرحلة أن القبيلة التي سلمت الأفغان العرب هي من الشيعة الذين يعارضون طالبان ، خصوصاً وهم الذين يرون أنهم مع الأفغان العرب كانوا سبباً في قتل واضطهاد الشيعة الأفغان ، وقد كانت هذه القبيلة تسبب مشاكل لمرور حتى قوافل المجاهدين الأفغان خلال حربهم ضد القوات السوفييتية .

ونقل لي شهود عيان عن حالة الأسرى العرب المائة والسبعة والخمسين الذين تم إبعادهم إلى أميركا ، أن كلهم كانوا يحملون القرآن ، وحين رأى أحد الأميركيين أسيراً عربياً يقرأ في القرآن خلال صعوده إلى الطائرة ، التقط

منـه المصـحف ، وطرحـه أرضـاً ، فمـا كـان مـن الضـابط الباكستاني إلاّ أن صفع الأميركي على وجهه قائلاً له : " إن كنت تريـد شـيئاً منهـم فأخبرونـا ، فهـذا القـرآن ولا يمكـن التصـرف معـه بهـذه الطريقـة ." ، ونقـل أحـد الضـباط الباكستانيين الذين كانوا موجودين في المطار عن الأفغـان العرب قبل تسـليمهم إلـى أميركـا قـولهم : " اقتلونـا فـي باكستان ، ولكن لا تسلمونا إلى أميركا ."

ولحظت خلال زيارتي إلى كوهـات وبنـو ، وتلـك المنـاطق ، حجم التعاطف مع العرب بعد تلـك الحادثـة ، حيـث روى لـي أحدهم أن عمته بقيت يومين لـم تـذق الطعـام وهـي تبكـي على الأفغان العرب ، وكم أحسست بالذنب الذي يستشـعره أهـالي تلـك المنطقـة مـن جـراء فعلتهـم تلـك ، وإن كنـت لحظـت أيضـاً أنهـم بـدؤوا أكـثر صـمتاً إزاء أي عربـي فـي المنطقـة حـتى لا يكونـوا سـبباً فـي سـجنه وتسـليمه إلـى أميركا .

8- <u>قوائم المقاتلون العرب المعتقلون :</u>

كشفت قائمة بأسماء الأفغان العرب الـذين اعتقلـوا في باكستان ، أو تم ترحيلهم ، حصلت عليها في إسلام آباد ، بأن عدد الـذين تـم نقلهـم مـن سـجون كوهـات وبيشـاور الباكستانيتين إلى قاعدة غوانتانامو فـي كوبـا ، وصـل إلـى 54 شخصاً ، إذ يتصدر اليمنيون القائمة ، وقد وصل عــددهم إلى 17 شخصاً ، وخلفهم السعوديون الـذين وصـل عـددهم إلى 15 شخصـاً ، بينمـا كـان أهـل المغـرب سـبعة أشـخاص فقـط ، والكويـتيون أربعـة ، و الجزائريـون اثنـان ، وكـذلك الفرنسـيون والبحرينيـون ، أمـا كـل مـن إسـبانيا والعـراق والسودان والصومال وبنغلاديش فكان من نصيب كـل دولـة واحد فقط ، وعلمـت أن عـدد الأفغـان العـرب الـذين كـانوا يتواجدون في أفغانستان خلال حكومـة طالبـان الأفغانيـة و حتى سقوطها إثر الغارات الأميركيـة علـى أفغانسـتان بلـغ 4742 شخصـاً حسـب بعـض المصـادر ، وإن كنـت لا أجـزم بصحة هذه الأرقام نظراً لصعوبة الحصـول علـى مثـل هـذه الأرقام في الأوضاع الطبيعية ، فكيف في أوضاع مثل التي تعيشها أفغانستان ، وهذه الأرقام التي حصلت عليهـا تـبين أنها تنتمي إلى 15 دولـة ، موزعـون علـى الشـكل التـالي : كان من نصيب دول المغرب العربي 1100 شخص تقريبـاً ،

والسعوديون 680 شخصاً ، بينما بلـغ عـدد الجزائريين 560 شخصاً ، واليمنيون 480 ، والفلسطينيون 430 شخصاً ، أما المصريون فبلغوا 270 شخص ، والسودانيون 520 ، والعراقيون 80 ، والأتراك 35 ، والفيليبينون 180 ، والأميركيون 30 والبريطانيون 62 ، والفرنسيون 8 .

وكانت وزارة الإعلام الأفغانية الطالبانية قد تحدثت عن نفس الأرقام تقريباً ، وحسب المعلومات المتوفرة لدي من مصادر استقت معلوماتها من وزير الدفاع الطالباني مولوي عبيد الله المسجون حالياً في كوبا كما يتردد ، فإن المقاتلين العرب توزعوا على الشكل التالي خلال حكومة طالبان 260 عربياً في قندهار وعلى أربعة مراكز منها مركز نيمروز ، و الذي ضم 80 شخصاً ، و مركز هلمند ، واحتوى على 60 عضواً ، أما في أورزكان فكان هناك مركزان ، واحتويا على 145 شخصاً ، وفي كابول سبعة مراكز ، واحتوت على 1870 شخصاً ، و في مزار الشريف شمالي أفغانستان مركزين ، وضما 440 ، وقندوز على الحدود مع طاجيكستان ثلاثة مراكز احتوت على 400 مقاتل ، وكذلك في لغمان مركزين وضما 300 ، و في ننجرهار إلى الشرق الأفغاني على الحدود مع باكستان 12 مركزاً ،

واحتوت على 1700 شخص ، و في كونر ثلاثة مراكز ضمت 160 ، أما في خوست فكان هناك أربعة مراكز واحتوت على 600 شخص ، واحتضنت ولاية بكتيا ثلاثة مراكز ، والتي استعوعب 740 شخصاً .

وتقول المصادر الأفغانية التي كانت في جلال آباد خلال معارك طوره بوره بأن عدد الأفغان العرب الذين تم القبض عليهم خلال تلك المعارك وصل إلى الخمسين شخصاً بعضهم جرحى ، وتوزعوا الآن على السجون الأفغانية في كابول وكابيسا .

9- <u>الأفغان العرب في المزاد الأفغاني :</u>

تحدثت مع الكثير من المصادر العربية والمطلعة على ملف المختفين العرب ، ورشحت بعض المعلومات عن تعرض سيدة إلى حالة اغتصاب ، وهو ما أكدته سيدة يمنية كانت عادت من أفغانستان إلى باكستان ثم توجهت إلى اليمن لاحقاً في عز الأحداث ، وإن كنت لا أستطيع الجزم بهذه الرواية ، خصوصاً وأن مصادر المقاتلين العرب تنفي

ذلك نفياً قاطعاً ، وتؤكد أنهم أخرجوا العائلات والأطفال قبل كل شيء ، وأن ما يشاع مثل هذه التقارير والأخبار إنما تهدف إلى زعزعة ثقة المسلمين في القاعدة ، والتي تخلت عن نسائها كما يحلو للبعض أن يصوروه ، وذكرت تقارير عدة عن تعرض العناصر العربية المعتقلة في أفغانستان للبيع ، مقابل بضعة آلاف من الدولارات يطالب بها السجانون الأفغان أو المسؤولون الأفغان ، وقد غدوا سلعة يتاجر بها ، ويأتي سعرهم أغلى من السعر الباكستاني ، حيث تحدثت الكثير من المصادر عن إقامة بعض القادة المحليين لسجون خاصة من أجل الاتجار بالأفغان العرب أو الباكستانيين الذين تم أسرهم .

وكانت مؤسسة القذافي الخيرية التي قامت بتسفير بعض العناصر العربية من باكستان إلى ليبيا تحدثت إلي عن دفعها لمبالغ تراوحت بين الثلاثة آلاف والخمسة آلاف دولار للقادة الميدانيين الأفغان وذلك من أجل الإفراج عن عربي مسجون لديهم ، أما الباكستانيون المعتقلون فتتراوح أعدادهم بالآلاف ، وما يزال وضعهم غامض رغم أن بعض الأهالي الباكستانيين تمكنوا من تخليص بعض أقاربهم ، أو أولادهم من الأسر مقابل ألف دولار أميركي .

10- الأفغان العرب بعد سقوط طالبان ، كيف يفكرون ، وما هي استراتيجيتهم ؟!

لا أحد يعرف على وجه الدقة حجم المقاتلين العرب المتبقين في أفغانستان ، والذين ما يزالون على علاقة مع أسامة بن لادن ، ولكن يبدو أن العدد ليس قليلاً ، إضافة إلى أنه ليس دقيقاً ، ما تشيعه الأوساط الأميركية عن تضخيم العدد في المعارك مثل جبال عرما وذلك لتبرير تأخير حسم المعركة ، فقد وردت إشارة قوية من فاكس تلقيته باسم القائد سيف العدل ، وهو أحد قادة القاعدة المعروفين والمطلوبين أميركياً من زرمت ، وذلك خلال معارك عرما وزرمت في الشرق الأفغاني في مارس " آذار " من العام 2002 يقول فيه : " وكانت خسائر المجاهدين أربعة من قوات الحركة ، واثنان من تنظيم القاعدة ، ويؤكد المجاهدون أن الخسائر التي يذكرها الإعلام الأميركي وتابعه العربي عن خسائر الحركة والتنظيم تفوق الأعداد

الموجودة أصلاً في المنطقة ، ويتحدى مسؤول في التنظيم وزير الدفاع الأميركي قائلاً : أين جثث هؤلاء القتلى ."

فإن كانت المصادر الأميركية تتحدث عن وجود 500ـ 600 مقاتل عربي فنستطيع أن نستشف من كلام سيف العدل أن قوات المقاتلين العرب أقل من هذا بناءً على هذا الفاكس .

ولكن في حال صحة رواية أن المقاتلين العرب في أفغانستان قبل الهجوم الأميركي حوالي خمسة آلاف مقاتل فإن الموجودين في أفغانستان حالياً سيكونون أكثر مما وضعهم سيف العدل ، خصوصاً إذا علمنا أن المعتقلين العرب لدى الأميركيين والأفغان والباكستانيين ربما لا يتعدون الخمسمائة شخص ، وهذا يعني أن البقية ما تزال على قيد الحياة ، وربما بعضها متخف أو هارب .

والذي بدا لي أن القاعدة بدأت تطالب بعض أتباعها وناشطيها بمغادرة أفغانستان منذ سقوط كابول والشمال الأفغاني ، وتحسبت لهذه الخطوة ، فالتقاليد الأفغانية تقضي في حال سقوط مدينة ، فإن المدن الأخرى ستتهاوى، وهو ما حصل مع طالبان حين مجيئها إلى

السلطة ، وكذلك حين خروجها منها ، وهو الدرس الذي وعيه الأفغان العرب تماماً ، وحسب المعلومات التي رشحت إلي من مصادر أفغانية وعربية فإن أسامة بن لادن كان في كابول لدى سقوطها ، وغادرها بعد دخول قوات التحالف الشمالي ، ويبدو أن مصير الأفغان العرب سيرتبط لفترة ليست بسيطة بأفغانستان لسبب بسيط ، أن القوات الأميركية أو ما يسمونها بأدبياتهم وفي موقعهم النداء أو مركز البحوث والدراسات على الانترنت بـ " القوات الصليبية " هم الذين كانوا مسؤولين عن جلبها إلى أفغانستان ، وبالتالي فعليهم مسؤولية إخراجها من البلاد حتى يبرؤوا ساحتهم ، وإلاّ فلماذا حرضتم واستفزيتم أميركا لتأتي إلى أفغانستان ، وأجدني مرة أخرى أؤكد على نقطة مهمة ، وهي : هذا كله في حال صحة ما نسب عن تورط القاعدة في تفجيرات نيويورك وواشنطن .

ويتوقع أن تكون استراتيجيتهم المقبلة ، تتلخص في السعي جاهدين إلى بث الفوضى في البلاد ، فكارزي الذي جاء إلى السلطة بدعم أميركي لم يتمكن من تعيين سوى أربع حكام ولايات من أصل 30 ولاية أفغانية حتى كتابة هذا الكتاب ، وانهمك كارزي منذ تنصيبه وحتى هذه اللحظة

بزيـارة الـدول الكـبرى والصـغرى ، بينمـا لـم يتـوجه إلـى الولايات الأفغانية الأخرى الملتهبة ، في الوقت الذي يعاني البشتون في الشمال الأفغاني مـن تطهيـر عرقـي ، حيـث أرغــم الآلاف علــى تــرك منــازلهم ، لا لســبب ســوى أن الأقليات تريد أن تنتقم مـن فـترة حكـم طالبـان ، وهـذا مـا أكـده وزراء أفغـان فـي الحكومـة زاروا المنطقـة ، وكـذلك تقارير مفوضة حقـوق الإنسـان فـي الأمـم المتحـدة مـاري روبنسون الـتي زارت مـزار الشـريف لهـذا الغـرض دون أن يقـوم رئيـس الـوزراء الأفغـاني نفسـه بزيارتهـا , وهـو مـا سيسـبب خلخلـة الوضـع الأمنـي و العرقـي ، الأمـر الـذي سيكون على المدى المتوسط والبعيد فـي صـالح طالبـان و القاعدة ، فرغم مرور الأشهر على وصول كارزي وســقوط طالبان ، إلاّ أن الوضـع الأمنـي مـا يـزال متـدهوراً ، وتـابعه الوضع المعيشي ، إذ أن معظم الموظفين والمسؤولين لـم يتلقوا رواتبهم منذ أشهر .

لقـد رأى كـارزي كيـف تـم رفـض الحـاكم الـذي عينـه فـي خوسـت باتشـا خـان زادران ، بالإضـافة إلـى مقتـل وزيـر الطيران المدني الدكتور عبد الرحمن ، وعجـز كـارزي علـى تشـكيل محكمـة لمحاكمـة المتسـببين فـي مقتلـه ، رغـم

تصـريحات كـارزي الـتي حملـت عشـرين شخصـية كـبيرة مسؤولية قتل الدكتور عبد الرحمن ، والتي وصـفها كـارزي بالمؤامرة المدبرة ، الأمر الذي نفاه وزير خـارجيته الـدكتور عبـد اللـه عبـد اللـه ، وجـاء رفـض القـادة المحليـون مـن البشتون في ولاية خوسـت وبكتيـا ، السـماح لقـوات وزارة الـدفاع الأفغانيـة مـن الأقليـات الطاجيكيـة المشـاركة فـي المعارك ضد طالبان والقاعـدة فـي المنطقـة ، ليشـير إلـى الحساسية بين الطرفين ، وضعف تماسك الحكومـة وهزالـة قوتها .

وإلى جانب السعي إلى إثارة الفوضى سيواصل المقـاتلون العرب وبدعم مـن بقايـا طالبـان ، إلـى شـن هجمـات علـى قوات السلام الدولية في كابول وقندهار ،وكذلك المسؤولية عن محاولة اغتيال وزير الدفاع الأفغاني الجنرال محمد قاسم فهيم خان ، وذلك في استراتيجية على ما يبدو تهـدف إلـى اسـتنزافها ، الأمـر الـذي سـيرغمها فـي حـال تكاثرت وتناسلت خسائرها إلى مغـادرة أفغانسـتان ، سـيما وأن الرأي العام الغربي لا يتحمل مزيداً من الخسائر .

وينقـل المطلعـون والمقربـون مـن الأفغـان العـرب ، بـأن سياسـتهم واسـتراتيجيتهم الآن وإن كـانت الصـمت حـتى

تتضح الأمور أكثر في أفغانستان ، ولكن لم يعـودوا ضـيوفاً على أفغانستان بعـد أن وطأتهـا " القـوات الصـليبية " كمـا يطلقون عليها ، وبالتالي غدا أمراً محتماً على كل الشـعوب الإسـلامية للنهـوض مـن اجـل إخراجهـا مـن أفغانسـتان ، وبالتـالي لا يسـتبعد أن تلجـأ بـدعم قـوى أفغانيـة لتشـكيل جيش إسلامي أو مليشيات إسلامية لهـذا الهـدف ، خصوصـاً وأن كـثيراً مـن المتضـررين الأفغـان ظهـروا وبـانوا علـى السـطح بعـد تشـكيل حكومـة كـارزي ، فأغلبيـة الشـعب الأفغاني لم تكن راضية على هذه الطريقـة فـي التشـكيل ، وجماعـات مسـلحة قويـة مثـل دوسـتم و إسـماعيل خـان ، وفـوق هـذا العرقيـة البشـتونية الـتي تمثـل الأغلبيـة فـي أفغانستان ، وحتى الرئيس الأفغاني السـابق برهـان الـدين رباني وحليف سياف ، كل هذا سيشكل تهديداً جدياً لحكومة كارزي ، والقوى الغربية ومشروعها في أفغانستان .

وكانت الزيارة التي قمت بها إلى منطقة ميران شـاه علـى الحدود الباكسـتانية ـ الأفغانيـة خلال معـارك عرمـا فرصـة مهمة لي للوقوف على بعض الحقائق إزاء المعارك الـدائرة في الشرق الأفغـاني ، وكـذلك تلمـس ملامـح الاسـتراتيجية الطالبانيـة ، ومعهـا القاعـدة خلال الفـترة المقبلـة ، فقـد

التقيت الكثير من قـادة طالبـان الأفغـان وكـذلك مـع بعـض علماء الباكستانيين الذين يعتقد أنهم مقربـون مـن الحركـة والقادرون على معرفـة بعـض مـن اسـتراتيجيتها المقبلـة ، وقـد أجمـع الجميـع حينهـا علـى أن الربيـع وذوبـان الثلـوج سيشـهد توسـيعاً لحـرب العصـابات فـي منـاطق الغـرب الأفغاني ، وخاصة غزنـي وقنـدهار ، تناميـاً فـي الـرد علـى الوجود الأميركـي ، سـيما وأن معاقـل الملا عمـر فـي تلـك المنطقة .

لعل رئيسة الـوزراء البريطانيـة السـابقة مـارغريت ثاتشـر التي وصفت في مقال لها نشر فـي الغارديـان البريطانيـة أفغانستان بأنهـا بلـد غـدار ، يمكـن قـراءة الكـثير مـن بيـن سطور هذا الكلام ، وهو مـا يـوحي بالمخـاوف الـتي تعتمـل في صدور البريطانيين وغيرهـم مـن جـراء انقلاب الأمـور ، خصوصاً وأن البريطانيين هم أكـثر مـن خـبروا هـذه البلاد ، نظراً للحروب الثلاثة التي خاضوها مع الأفغان .

أما على الصعيد الباكسـتاني فمـا يـزال الكـثير ينتظـر ردود الفعــل إزاء الخطــوات القويــة الــتي اتخــذها الرئيــس الباكستاني برويز مشرف ، والهادفة إلى تقليـص نشـاطات الجماعــات الإســلامية المســلحة ، وحــتى تطهيــر بعــض

مؤسسات الدولة من أي نفوذ أو علاقة للإسلاميين ، ومثل هذه الخطوات التطهيرية التي لجأ إليها الرئيس مشرف ضد الإسلاميين في كل الدوائر والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية ، قد يكون لها مفعول عكسي ، وتدفع القوى المسلحة الإسلامية مع الأجهزة الأمنية المتعاطفة مع الإسلاميين من الطالبان والكشميريين إلى إبرام تحالف ثلاثي ، الأمر الذي سيهدد مركز الرئيس مشرف بالإضافة إلى المشروع الأميركي في المنطقة ، فباكستان هي الحجر الأساس في الحرب الأميركية ضد ما يوصف بالإرهاب .

وكانت وسائل الإعلام الأميركية تحدثت عن بدء تجمع تنظيم القاعدة وحركة طالبان في المناطق الباكستانية ، ولكن وزير الخارجية الأميركية كولن باول رأى في وقته أن الحكومة الباكستانية قادرة على معالجة الأمر لوحدها دون مشاركة منا ، كون ذلك سيخلق مشاكل أكثر للقوات الأميركية ، ومعلوم أن المناطق القبلية الباكستانية المجاورة لخوست وبكتيا وبكتيكا موالية لطالبان ومعادية للقوات الأميركية ، بالإضافة إلى التشاطر العرقي واللغوي وقبله الديني والمذهبي ، وهو الأمر الذي سيجعل مهمة

القوات الأميركية في الشرق الأفغاني صعبة إن لم أقل مستحيلة ، وينبغي أن نذكر هنا أن المناطق القبلية الباكستانية تحتوي على كل أصناف الأسلحة إما تصنيعاً محلياً ، أو استيراداً من المافيا الدولية ، وهو ما سيعني أن مشكلة توريد الأسلحة والذخائر إلى المقاتلين من طالبان والقاعدة سهلة جداً ، ويضاف إلى ذلك وجود الآلاف من المعتقلين الباكستانيين ومعظمهم في سجون التحالف الشمالي ، ومعظم هؤلاء متطوعون باكستانيون من هذه المناطق ، وبالتالي ثمة حافز آخر على القتال ، أو على الأقل التعاون مع القوات الطالبانية و القاعدة .

وكانت السلطات الباكستانية اكتشفت خلال معارك زرمت وعرما أكثر من شحنة أسلحة وذخائر ، ومن بينها صواريخ موجهة بالليزر متجهة إلى مواقع القاعدة وطالبان من أجل استخدامها في المعارك التي كانت تدور ضد القوات الأميركية وحليفتها الأفغانية .

ويظهر أن المخاوف الأميركية من وجود خلايا للقاعدة في باكستان كان صحيحاً بعد الغارات والمداهمات على فيصل آباد واعتقال عدد من أفراد القاعدة بينهم أبو زبيدة التي تعتبره واشنطن المسؤول العسكري للقاعدة .

وبعد أن أجرى الرئيس الباكستاني برويز مشرف تعديلات في الجيش ، وأقال رئيس المخابرات العسكرية الباكستانية الجنرال محمود أحمد الذي يتردد عن قربه من طالبان وتنظيم القاعدة ، بدأ الرئيس مشرف باتخاذ خطوة أخرى تمثلت في حظر خمس جماعات كشميرية وباكستانية مسلحة ، ثم بدأ كما أوردت النيويورك تايمز في العشرين من شهر شباط من العام 2002 بحل وحدتين أمنيتين ف ي الاستخبارات العسكرية الباكستانية ، وهما الوحدتان المعنيتان بالشؤون الكشميرية والأفغانية ، الأمر الذي سيحرم اكثر من أربعة آلاف موظف من العمل في الوحدتين ، بحجة أن لديهما علاقات وروابط مع طالبان والمجموعات المسلحة الكشميرية ، ومثل هذه الخطوات الجريئة والقوية ربما تفجر الأوضاع في وجهه كما توقع رئيس الجامعة البنورية المقربة من طالبان نظام الدين تشامزي ، والذي توقع ثورة إسلامية دموية ضد حكم مشرف في تصريحات له بثتها وكالة الأسوشيتد بريس الأميركية في الحادي والعشرين من شباط من العام 2002 .

لكن ما يمكن قوله بعد كل هذا أن منطقة جنوب آسيا ووسطها دخلت مرحلة جديدة ، والتحالف الباكستاني ـ الأميركي ضد ما يوصف بالإرهاب تحالف خارج السياق المكاني ، ولكن ربما ليس خارج السياق الزماني القصير المدى ، فبكل تأكيد دولة مثل الصين لن تكون راضية على مثل هذا التواجد الأميركي والغربي بشكل عام على حدودها ، وهناك الامتعاض الإيراني ، وكذلك الامتعاض الروسي ولكن على المدى البعيد وليس القريب ، وبالتالي فإن باكستان وضعت نفسها في مكانة صعبة للغاية ، ويبقى الانتظار سيد الموقف فيما ستسفر عنه هذه المواجهة الفريدة من نوعها في التاريخ البشري !

11- كيف تتواصل طالبان والقاعدة مع العالم الخارجي :

تمكنت حركة طالبان الأفغانية وتنظيم القاعدة من إبداع أساليب جديدة في كسر الحصار الأمني والإعلامي المضروب عليهما عقب هزيمتهما في أفغانستان خصوصاً وأن الحركتين توعدتا بحرب عصابات طويلة الأمد في أفغانستان وهو ما يتطلب حرباً دعائية قوية من أجل كسب المواطنين العاديين ، والظاهر أن الاعتقالات والمطاردات والملاحقات داخل أفغانستان وباكستان لم تحد من نشاط هذه الجماعات في مواصلة نشاطاتها ولعل ما سهل تحركها هو انتظام العديد من الباكستانيين في صفوفها وهو ما يسهل تحركها في بلد مثل باكستان.

ومن خلال تتبع أساليب طالبان و القاعدة في هذه الحرب الإعلامية يظهر أنهما استخدما أساليب و طرق عدة في كسر الطوق الإعلامي المضروب عليهما خصوصاً و أن أكثر

أو كــل قــادة طالبــان والقاعــدة متخفيــن ليــس بإمكــانهم الظهــور أمــام وســائل الإعلام ، ويقــف علــى رأس هــذه الأســاليب حــرب مواقــع الانــترنت الــتي أشــعلتها القاعــدة وطالبان ،وحتى أن قائد القوات المركزيــة فــي أفغانســتان الجنرال تومي فرانكس تحدث مؤخراً عن استخدام الانترنت من قبل مقاتلي طالبــان و القاعــدة فــي الشــرق الأفغــاني خلال عملية أناكوندا ، وتملك طالبــان موقعــاً علــى الشــبكة العنكبوتيــة باســم إمــارة أفغانســتان الإســلامية وباللغــة العربية وتنشر عليه رسائل ومنشــورات زعيــم الحركــة الملا محمد عمر وكــذلك أخبــاراً متفرقــة عــن عمليــات تســتهدف الأميركيين والقوات الأفغانية الموالية لهــا ، بالإضــافة إلــى مقــالات لعلمــاء باكســتانيين وأفغــان موالــون للحركــة عــن ضرورة جهاد القوات الأميركية ونحــو ذلــك ، ولهــذا الموقــع دعايات في كــثيرة فــي المواقــع العربيــة الأخــرى ، ولعــل الموقع الثاني الأهم هو مركز البحــوث والدراســات وباللغــة العربية أيضاً أو موقع " النداء " المقرب مــن القاعــدة وإن كان ينطق باسمها على ما يبدو ويحرص الموقع علــى نشــر بيانات القاعدة والتي كان آخرها بعنوان " رسالة من قاعدة الجهـــاد إلـــى أمتنـــا المســـلمة وشـــعبنا البطـــل فـــي فلسطين ."كما ينشر الموقع بيانات طالبان وكذلك مواضيع عن " الحملة الصليبية في أفغانســتان،وكتــب تؤيــد طالبــان وتعزز من رؤية القاعدة وطالبان إلى الأميركيين والغربيين بشكل عام ، بالإضافة إلى أخبار من مصادر الموقع الخاصة وكذلك مقتطفات من مواقع وصــحف أخــرى عــن الضــربات التي تتعرض إليها القوات الغربية في أفغانستان .

أمــا الطريقــة الثانيــة الــتي تتبعهــا طالبــان والقاعــدة فــي التعريف الإعلامي بأنفسهما فهي المنشورات الليلية أو مــا يطلق عليها الأفغان " شب نامه" وهي التسمية التي درجت بعد الغزو السوفياتي لأفغانســتان حيــث لجــأ إليهــا الأفغــان خشــية مــن اكتشــاف أمرهمــا مــن قبــل الشــرطة الســرية الروسية أو الأفغانية ،ويتم توزيع هذه المنشورات الآن مــن قبل طالبان و القاعدة باللغــات المحليــة لتحريــض الشــعب الأفغاني في المخيمات على مقاتلة ما يصــفهم البيــان بــ " الصــليبيين " بالإضــافة إلــى التطــرق إلــى الكرامــات الــتي وقعــت لــ " المجاهــدين العــرب فــي أفغانســتان " ،وهنــاك منشورات ليلية أخرى وزعت داخــل أفغانســتان تــدعو إلــى مكافأة لكل من يأسر أميركي أو يقتله وهو ما أثار حالة من

عدم الثقة بين القوات الأميركية والقوات الأفغانية الحليفة لها إذ أن القوات الأميركية تخشى أن تغدر هذه القوات بهـا من أجل حفنة من الدولارات .
أما الطريقة الثالثة فتتمثل في الصحف الموالية لهمـا مثـل صحيفة ضرب المؤمن والتي تصـدر باللغـة الأورديـة والـتي كـانت معروفـة بأنهـا مقربـة مـن الحركـة حيـن كـانت فـي السـلطة ،وكـذلك هنـاك صـحف ومجلات أخـرى وتبقـى الطريقة الرابعة وهي الاتصال ببعـض الصـحافيين بالهـاتف وتسريب معلومات لهم أو تبني عمليات محـددة كمـا حصـل في محاولة اغتيـال وزيـر الـدفاع الأفغـاني الجنـرال محمـد قاسم فهيم في جلال آباد حين اتصـل مصـدر مـن القاعـدة وتبنى العملية ، وأحياناً يتم الاتصال والاتفاق على مكان مـا لتسليم منشور ما مثلما حصـل مـع مراسـل " الحيـاة " فـي البيان الذي تلقاه مؤخراً باسم "رسـالة مـن قاعـدة الجهـاد إلى امتنا المسلمة وشعبنا البطل في فلسطين ."
وهناك طريقـة خامسـة وهـي لقـاء بعـض الصـحافيين فـي مناطق قبلية باكستانية أو داخل أفغانسـتان كمـا جـرى مـع مراسل التـايم الأميركيـة حيـث التقـى بعـض قـادة طالبـان السـابقين وهـددوا خلال اللقــاء بتكـثيف عمليـات حـرب العصـابات وكـذلك فـي لقـائي خلال زيـارتي إلـى منـاطق القبائـل الباكسـتانية مـع كـثير مـن قـادة حركـة طالبـان وكشفوا خلال اللقاء عن أسرهم لبعـض الجنـود الأميركييـن وغيرها من الأخبار.
وتبقى الوسيلة السادسة الممثلة بإرسال رسائل عبر البريد الاكتروني كما حصل مع أحد الصحف العربيـة حيـن أرسـلت رسـالة مـن أسـامة بـن لادن حـول القضـية الفلسـطينية .
انتهى